المؤرخ العربي

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

العدد السادس (٦)

تقديم

يسر وزارة الاعلام في المملكة المغربية ان تضع بين يدي القراء والباحثين العرب العدد السادس من مجلة «المؤرخ العربي» التي تصدر عن الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب الذي يوجد مقره ببغداد بـ العراق .

ان التاريخ العربي كل لايتجزا . ذلك ان مختلف الاحداث التي عرفها بلد عربي كان لها التأثير الواضح على باقي البلدان العربية الاخرى .

ونظرا ـ لما للتاريخ العربي من اهمية قصوى في حياتنا جميعا باعتباره نبعا ننهل منه الكثير من العبر والتجارب وعنصرا حيويا يحفز هممنا ويحرك طموحنا بما تطويه صفحاته من مجد تالد ، وحضارة عريقة . طالما أنارت دياجي الظلام في اوربا في حقب متفاوتة من التاريخ ـ كان لابد من مجلة تستقطب نشاطات المؤرخين العرب . فكانت مجلة «المؤرخ العربي» .

لقد كثرت الدراسات والابحاث في العصر الحديث عن دور الحضارة العربية في النهضة المعاصرة . وطلعت علينا كتب مختلفة باقلام كتاب وباحثين اجانب لاتربطهم بالعرب او الاسلام اقل الصلات . ومع ذلك جاهروا بالحق لانه حق ، ونشروا كتبهم وابحاثهم بلغاتهم وترجم بعضها الى كثير من لغات الارض ، وهكذا راينا امثال : دوزي ، وبروكلمان ، وادوارد فون ديك ، وبروفنسال ، واندري ميكيل ، وزنجريد هانكه ، وتوينبي ، وفيشر ، وماسينيون ، وبلاثيوس ، وغيرهم . كلهم وقعوا تحت سحر هذه الحضارة التي فجرها عرب خرجوا من الصحراء . كانوا يديرون الجمة جمالهم ، فاذا بهم يديرون دولاب التاريخ ويغيرون مجراه في حقبة مامن الزمن . حينما بسطوا نفوذهم حول العالم المعروف في ذلك الابان في فترة وجيزةمن الزمن .

وبعد ان استتب الامر للعرب اثر فتوحاتهم الكبرى . اثبتوا للامم التي فتحوها انهم يحملون بين أعطاف قلوبهم احساسا مرهفا يتجلى في اشعارهم الرقيقة الخالدة ، وفي ادابهم العربية الاصيلة التي تحفل بجميل القيم ، وحميد الخصال وبليغ الحكم . كما اثبتوا للعالم كذلك انهم امة متفتحة قابلة للتأقلم والتطور والمطاوعة والانصهار والتجانس فاذا بهم

ينكبون على ثقافات غيرهم من الامم ، هندية ، ورومانية ، ويونانيــة وفارسية وغيرها ينقلون منها واليها ، ويترجمون ويحللون ويناقشون ويعلقون ولايحارون في اختيار فن دون اخر او علم دون علم ، فكانت الحكمة تدرس بجانب الفلسفة والمنطق ، والطب والفلك والصيدلة ، والرياضيات، بجانب الاداب . بحكاياتها وقصصها وأساطيرها وأمثالها وأشعارها بجانب العلوم اللغوية والمعجمات أضف الى ذلك العديد من النظم والفنون والعادات وهلم جرا . تلكم كانت البيئة العربية مرآة لايعلوها الصدأ شفافة نقية تنعكس عليها كل المظاهر الحضارية والفكرية والاجتماعية وغيرهـا للامم الاخرى . ولقد كانت «اللغة العربية» هي الاداة التي تم عن طريقها تحقيق هذه النهضة العربية الكبيرة ، أجل عن طريـــق «الحرف العربي» مرت كثير من ثقافات وفلسفات وعلوم الامم وهنا اثبتت هذه اللغة مدى طواعيتها ومرونتها في الاخذ والعطاء ، في الترجمة والنقل ، في التعريف والتعبير . لقد كان لامتزاج هذه الحضارات وتجانسها أكبر الآثار علـــى تطوير اللغة وتزويدها بطاقات اكبر وامكانات اوسع بسبب التاثيرات الخارجية النابعة من لغات اخرى متعددة ، فبرهنت اللغة العربية حينئذ انها فعلاً قادرة على هضم كل غريب وقبول كل جديد وتلوينه باللون العربي ، بل انها اخذت واعطت بدورها العديد من الكلمات والتعابير والتراكيب والصيغ والابنية الى غيرها من اللغات سواء السامية كالسريانية او الهندو اوربية كالفارسية واليونانية الخ ،، كما طبع هذا التاثير فيما بعد كثيرا من اللغات الحية التي تعيش بين ظهرانينا اليوم ،،

وفي هذا العدد من «المؤرخ العربي» سيجد القارئ الكريم الكثير من مظاهر هذه الحضارة المشرقة باقلام أساتذة وباحثين ذوي باع في ميادين تخصصهم .

ونظرا للخط العلمي الذي تنتهجه هذه المجلة التي اصبحت محط عناية الهيئات والاوساط الثقافية في الوطن العربي فاننا نرجو لها اطراد التوفيق والتطور حتى تصبح منتدى علميا نشيطا للمؤرخين العرب والباحثين على اختلاف مشاربهم واهتماماتهم . كما نرجو لاتحاد المؤرخين العرب الساهر على هذه المجلة مزيدا من التقدم والنجاح في اداء مهمته القومية .

والله نسأل العون والرشاد لما فيه خير العروبة والاسلام .

المدارس الاسلامية في العصر العباسي وأثرها في تطوير التعليم

الدكتور حسين أمين
جامعة بغداد - كلية الآداب

ان من ابرز مايميز الحضارة العربية الاسلامية في العصر العباسي هو ذلك الاهتمام الكبير بالجانب الثقافي ومابلغته المعرفة من تطور كبير وما اصاب التعليم من ازدهار واسع . وانشاء المدارس في الاسلام من المنجزات العظيمة التي حققت الاهداف العلمية والتربوية وقدمت الخدمات الجليلة للانسانية جمعاء .

وتشير المؤشرات التاريخية ان مدينة نيسابور كانت رائدة المدن الاسلامية في انشاء المدارس ، فقد شيد أهلها مدرسة للفقيه الشافعي ابي اسحق الاسفراييني المتوفي سنة ثماني عشرة واربعمائة للهجرة (1) . كما تشير المصادر ان مدرسة اخرى انشئت في تلك المدينة للعالم ابي بكر البيهقي المتوفي سنة ثمان وخمسين واربعمائة للهجرة (2) .

نلاحظ ان اهتمام أهل نيسابور كان منصبا على العناية بالمذهب الشافعي ودراسة أصوله ومن هنا على ما اعتقد كانت سببية انشاء المدارس فيها كمعاهد للدرس والعلم ، ونيسابور كانت مركزا من مراكز أهل السنة والشافعية بخاصة ، وبرزت فيها طائفة من كبار اصحاب الحديث واعلام الفقهاء كالبيهقي والحاكم النيسابوري . فالحركة المدرسية في الاسلام على ما ارجح نشأت في كنف الفقهاء الشافعية ورعايتهم وذلك ان الشافعية عندما رأوا ضعف مركزهم وانصراف الحكام في هذا القسم الشرقي من العالم الاسلامي عنهم واعتمادهم في نفس الوقت على الفقهاء الحنفية ببغداد ، بدأوا يعملون لدراسة وتدريس المذهب الشافعي وأصول فقهه والدعوة له فنشأت بهذا حركة هدفها الاول العناية بالمذهب الشافعي واصول ذلك المذهب لم تكن الدولة تعترف به وتتذاك في تلك المناطق .

1) ابن خلكان : وفيات الاعين ج أ ص 9
2) المرجع السابق ج أ ص 57 ـ المقريزي ـ الخطط ج 2 ص 363

ان انشاء المدارس في الاسلام يظهر انها مبادرات شخصية حققت للناس طموحاتهم في ان تكون تلك الامكنة مراكز علمية تدرس فيها مختلف العلوم والاداب . وهي في عهدها الاول وان لم تستكمل شروط المدرسة فقد تكونت من بيت له رحبة واسعة فيه بعض الغرف للدرس ، وقد تختلف المدرسة من حيث السعة ومن حيث الوقوف التي توقف للصرف عليها ، وكذلك من حيث الشيوخ الذين يدرسون بها ومكانتهم العلمية واشتهارهم .

وفي سنة 459 هـ شيد الوزير السلجوقي نظام الملك المدرسة النظامية في الجانب الشرقي من بغداد . والحق ان المدرسة النظامية تعتبر من اقدم مدارس بغداد واشهرها ، وقد انشئت لتدريس الفقه الشافعي وشرط الواقف ان يكون المدرس بها والواعظ ومتولي الكتب من الشافعية اصلا وفرعا (3) ، وكان نظام الملك قد امر بانشاء عدة مدارس في العالم الاسلامي اصبحت نموذجا للمدارس الجديدة وغدا نظام الملك نفسه قدوة حسنة يحتذى به كبار رجال الدولة من الوزراء والامراء في انشاء المدارس ، كما ان اهمية عمل نظام الملك ترجع الى كونه بداية عصر جديد من الازدهار للمدرسة اذ اصبح السلاطين ورجال الطبقة العالية مولعين بتأسيس المدارس كما ان تكوين المدرسة على الوضع الذي رسمه نظام الملك وما الحقه من اقسام داخلية لاقامة الطلاب اصبح فيما بعد نموذجا يحتذى به في سائر المدارس التي انشئت في العصور التالية (4) .

ويبدو ان نظام الملك كان أول من خصص الرواتب والاجور للمدرسين وكل العاملين في مدارسه كما تكفل باعاشة الطلبة وتحمل جميع مصروفاتهم . ومن الجدير بالذكر ان علماء ماوراء النهر ، اصابهم الهم والحزن عندما كوتبوا ببناء المدارس ببغداد والتنظيمات التي استحدثها نظام الملك فيها . فأقاموا مأتم العلم وقالوا : كان يشتغل به ارباب الهمم العلية والانفس الزكية الذين يقصدون العلم لشرفه والكمال به ، فيأتون علماء ينتفع بهم وبعلمهم . واذا صار عليه اجرة تدانى اليه الاخساء وارباب الكسل (5) .

ان الدافع على مارجحه من تأسيس المدارس النظامية كان مذهبيا وسياسيا . لقد كان نظام الملك شافعيا اشعريا حريصا على مذهبه ، وعاصرت نظام الملك اراء وافكار متباينة مختلفة كانت منتشرة في العالم الاسلامي كالمعتزلة والباطنية وبقايا القرامطة وغيرهم من اصحاب الملل

---

3) ابن الجوزي : المنتظم ج 9 ص 6 .

4) ENCYCLOPEADIA OF ISLAM : Art Masjid.

5) حاجي خليفة كشف الظنون ج 1 ص 53 .

والنحل وكان نظام الملك يرمي بدرجة كبيرة الى توجيه الرعية وجهة تخدم مصلحة الدولة وتبعث علي الاستقرار والسكينة والامن ، لذا كان هم نظام الملك التأكيد في مواضيع الدراسة على افهام الناس عامة ومنتسبي النظامية خاصة أصول الدين الصحيحة ، ولما كان نظام الملك شافعيا ، كان يرى ان يدرس الفقه والاصول المستمدة من افكار وآراء الشافعية . وكان من شروط النظامية ان يكون المدرس من الشافعية اصلا وفرعا .

ولما كانت المدارس الحكومية هي في الحقيقة امتداد لحركة التعليم في المساجد لذا نرى ان التعليم في بداية امره في مدارس نظام الملك كان قائما على العلوم الدينية واللغوية ، واعتقد ان هذا انما كان استجابة لروح العصر الذي شيدت لاجله المدرسة النظامية . وقد اعتمدت النظامية في تدريس ونشر وتطبيق الفقه الشافعي واعتمت بتدريس القرآن والحديث والادب واللغة . ثم اخذت هذه المدرسة تتوسع يوما بعد يوم واخذت العلوم الرياضية طريقها الى هذه المدرسة .

ونلاحظ في المدرسة النظامية نوعا من الاختصاص فنجد مثلا ابازكريا التبريزي المتوفى سنة 502 هـ استاذا للفقه والادب في المدرسة (6) ثم اصبح علي بن محمد الفصيحي المتوفي سنة 516 هـ صاحب ذلك الكرسي بعد وفاة التبريزي (7) .

وكان ابو المبارك الملقب بالوجيه النحوي متفقها حنفيا ولما شغر منصب تدريس النحو بالمدرسة النظامية وشرط الواقف ، ان لايفوض الا الى شافعي المذهب فانتقل ابو المبارك الى مذهب الشافعي وتولاه (8) . اي تولى تدريس النحو في المدرسة النظامية ومن هذا نستدل على ان بعض الاساتذة كانوا ينتقلون من مذهب الى مذهب في سبيل الحصول على منصب رسمي . كما يدل على اقتصار الشافعية لوظائف المدرسة النظامية، وهناك اساتذة اختصوا في تدريس الفقه والحديث والاصول وعلم الكلام والتفسير وغيرها من العلوم .

اما كيفية التدريس في النظامية . فان ابن جبير اعطانا صورة واضحة لها حين زار المدرسة اواخر القرن السادس الهجري وحضر مجلس وعظ في الخامس من صفر سنة 580 هـ ووصف مجالس العلماء انها مجالس علم

---

6) ياقوت : معجم الادباء ج 19 ص 27
7) ياقوت : معجم الادباء ج 15 ص 67
8) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج 1 ص 562

ووعظ ، وقال عنهم ان لهم طريقة مباركة ملتزمة (9) . وكان التدريس مرتبطا على الاكثر باوقات الصلاة ، خاصة بعد صلاة العصر ، بعد ان يتفرغ اكثر الناس من أعمالهم ، ـ اقصد هنا دروس الوعظ لعامة الناس ـ. يقول ابن جبير : «وأول من شاهدنا مجلسه منهم الشيخ الامام رضي الدين القزويني رئيس الشافعية وفقيه النظامية والمشار اليه بالتقديم في العلوم الاصولية . حضرنا مجلسه بالمدرسة المذكورة اثر صلاة العصر من يوم الجمعه (10) . وطبيعي ان المدرس كان يجلس على مكان عال وهو متطيلس (اي يرتدي الطيلسان) والطريقة المتبعة ان الطلاب يجلسون امامه على شكل نصف حلقة ، ويبدأ الطلاب بالقراءة . وكانوا يقرأون بتلاحين معجبة ونغمات محرجة مطربة (11) (ثم يبدأ الشيخ بتفسير الدرس) ويتصرف في أفانين العلوم من تفسير كتاب الله عز وجل وايراد حديث رسوله عليه الصلاة والسلام والتكلم على معانيه (12) .

وتعددت المدارس في العالم الاسلامي وتنوعت في دراساتها وتخصصاتها وصارت بعض الموضوعات تدخل التدريس في قاعاتها كالطب والصيدلة وعلم الفلك والحساب والجبر والهندسة وغيرها من المواضيع . ولعل من أبرز واشهر المدارس التي انشئت في أواخر الدولة العباسية المدرسة المستنصرية والتي امر ببنائها الخليفة المستنصر بالله العباسي وافتتحت للتدريس في سنة 30 هـ . والمدرسة المستنصرية لها اهمية خاصة لانها تعتبر خطوة جديدة في تطور تاريخ المدارس في العالم الاسلامي ، اذ المعروف ان المدارس السابقة كانت كل واحدة منها تبنى لدراسة مذهب واحد بعينه، ولكن هذه المدرسة هي اول مدرسة عرفها العالم الاسلامي كله تشيد لتدريس المذاهب الاربعة ، ويبدو ان الخليفة المستنصر استهدف من عمله ذلك جعل مدرسته محط انظار أهل السنة جميعا فلايقف شرط مذهبي امام الطالب كما جعل نظام الملك من شروط القبول في النظامية ان يكون الطالب شافعيا اصلا وفرعا (13) .

وهذا يعني ان عامة الناس سواء كانوا من الحنفية او الشافعية او المالكية او الحنابلة لهم حق الدخول في المدرسة المستنصرية وطبيعي فان

---

9) ابن جبير : الرحلة ص 174

10) ابن جبير : الرحلة ص 174

11) المصدر السابق

12) المصدر السابق

13) ابن الجوزي ـ المنتظم ج 9 ص 66

الخليفة المستنصر وهو الذي انشأ المدرسة فمن غير المعقول ان يخصصها لطائفة دون اخرى .

ومن الجدير بالذكر ان بناء المدرسة المستنصرية يعتبر من أجمل الاثار العباسية وسط مدينة بغداد في الجانب الشرقي منها والبناء يمثل نوعا من الطراز العباسي الذي يمتاز باستخدام الاجر والتأثر بالاساليب المعمارية الساسانية وتفضيل الاكتاف او الدعامات على الاعمدة في حمل البوائك كما يمتاز بالاقبال على استخدام الجص في كسوة العمائر (14) .

ولاول مرة في تاريخ المدارس الاسلامية يلحق الخليفة بالمدرسة اربعة معاهد ، معهد لتدريس القرآن وآخر للحديث النبوي الشريف ومدرسة للطب واخرى للصيدلية . وانخرط بالمدرسة الطلبة من جميع انحاء العالم الاسلامي .

وعنيت المدرسة المستنصرية كما عنيت المدارس الاسلامية المنتشرة من مشرق الخلافة الى مغربها بالمكتبات الفخمة واغمارها بالكتب النفيسة، وكانت المكتبة عصب المدرسة ، وكانت الكتب تبوب وترتب حسب فنونها ليسهل على المطالعين تناولها واذا اراد احدهم نسخ بعض مخطوطاتها فان الموظفين كانوا يمدونه بما يحتاج اليه من الاقلام والورق (15) ، وكان للمكتبة خازن ومشرف ومناول . واعتقد ان اعظم مكتبة كانت في مدارس بغداد ايام العباسيين هي مكتبة المدرسة المستنصرية فقد ذكر ابن عنبة ان مكتبة المستنصرية كانت تحوي ثمانين الف مجلدا (16) .

ان المدارس الاسلامية في العصر العباسي ادت دورها البناء في الحفاظ على التراث العربي الاسلامي وتطوير وازدهار الدراسات الدينية والادبية والعلمية وقدمت خدمات جليلة للثقافة الانسانية .

ومما لاشك فيه ان المدارس الاسلامية في أول نشأتها بذلت عناية فائقة في دراسة العلوم الدينية وكان لهذا الامر الاثر الكبير في تطوير وتعميق المواضيع الدينية كعلوم القرآن والحديث والفقه ، وقد ساعد هذا على تفهم الناس لتلك المواضيع وظهور الدراسات العلمية والتي تميزت بالمتانة والوضوح وبالجدية واصالة البحث . ثم دخلت المواضيع الادبية كاللغة والنحو والصرف والعروض والاخبار والادب الى المدارس الاسلامية وكانت العناية فائقة بتطوير تلك الدراسات وبذل مجهودات

---

14) زكي حسن ـ فنون الاسلام ص 54 .

15) لسترانج ـ بغداد في عهد الخلافة العباسية ص 226 .

16) ابن عنبة ـ عمدة الطالب ص 195 .

قيمة من اجل خدمة التراث الادبي العربي وتقديم البحوث القيمة في هذا المجال . كما عنيت المدارس بالعلوم الرياضية وهي تشمل الحساب والجبر والهندسة والمساحة ، وبالعلوم العقلية التي تضمم المنطق وعلم الكلام الحيوان ، وقد ارتقى مناصب التدريس لهذه المواضيع نخبة من علماء العرب والمسلمين وبذلوا مجهودات قيمة من اجل دراسة تلك العلوم وتوسيع مدارك الطلبة وتقديم البحوث القيمة في مجالات العلم المختلفة مما اضاف حصيلة ممتازة في الميدان العلمي .

والمدارس الاسلامية التي عنيت بالدراسات الدينية والادبية والعلمية قامت بتخريج اعداد كبيرة من الطلاب الذين انتشروا في العالم الاسلامي وصاروا ينقلون ما تعلموه في تلك المدارس وارتقى العديد من خريجي تلك المدارس الوظائف السامية في مختلف الامصار الاسلامية .

ان المدارس الاسلامية والتي على ما اعتقد كان هدفها واحدا هو العناية بالمواضيع الدينية اساسا ومن ثم الاهتمام بالدراسات الادبية والعلمية ، ان هذه المدارس ساعدت على اشاعة العلم والمعرفة بين الناس عامة وربط المسلمين برباط الثقافة ، وان اتاحة الفرصة للمسلمين القبول في اي مدرسة في بغداد أو البصرة أو القاهرة أو تونس أو الرباط او اصفهان كان له الاثر المحمود في توحيد الفكر الاسلامي وزيادة الترابط الانساني مما يساعد على اتاحة الفرص للعراقي والمصري والسوري والمغربي والفارسي والتركي ان يتعارفوا وان تتماس العقول وتحتك الافكار وتنصهر جميعها في بوتقة العلم لتبرز افكارا مدروسة واراء مجدية في حقول الادب والعلم . وعدا على ما اعتقد من ابرز ما قدمته تلك المدارس في ذلك العصر من خدمة للانسانية ولتراثها الخالد . كما ساعد ذلك اللقاء بين البلدان المختلفة . في تعرفهم على عادات وتقاليد بعضهم البعض وانتشار اللغة العربية والتي أصبحت لغة الدراسة والثقافة والعلم . مما ادى الى الاهتمام بهذه اللغة وتطويرها وازدهارها .

ان الانظمة الحية المتطورة والتي جاءت بها المدارس الاسلامية كان لها الاثر المحمود في تطوير الدراسات في العالم الاسلامي بخاصة والعالم بعامة ، ونلاحظ ان النظام التعليمي في المدارس الاسلامية ونأخذ المدرسة النظامية على سبيل المثال انها عنيت بالتنظيم الذي يمكن ان نسميه بالجامعي ، فالهيئة التدريسية فيها تتكون من المدرسين والمعيدين ، ويحدد القلقشندي وظيفة المدرس بانه الذي يتصدى لتدريس العلوم

الشرعية من التفسير والحديث والفقه والنحو والتصريف ونحو ذلك (17)
وكان تعيين المدرس في اول تأسيس النظامية من صلاحية الوزير نظـــام الملك كما كان ذلك عندما عين نظام الملك . ابا اسحق الشيرازي للتدريس في نظامية بغداد (18) وكما عين هو الامـام الغزالي للتدريس في المدرسة ذاتها بعد ذلك (19) . وان المدرسة كانت حريصة على التخصص العلمي ويختار المدرس من الذين عرفوا بالعلمية الواسعة والشهرة في تخصصـه الـدقيـيـق .

اما وظيفة المعيد . فوظيفه حضارية تؤكد اهمة التعليم وتطوره عند المسلمين ومن المعتقد ان هذه الوظيفة . ظهرت في القرن الخامس الهجري وذلك لعدم ورود مثل هذه الوظيفة قبل هذا التاريخ . وارجح ان هذهالوظيفة ظهرت رسمي على علاقة وثيقه بوظيفة المدرس بعـد تأسيس النظاميـة ، والطريف في هذه الوظيفة ومحفزاتها انها جعلت الطلبة في المدرسة النظامية يتنافسون تنافسا علميا من اجل الحصول على الدرجات العلمية الممتازة التي تؤهلهم لوظيفة المعيد . وهذا بالطبع سيؤديالى رفع المستوى العلمي لطلاب المدرسة الاسلامية والى ابتكار المواضيع العلمية المختلفة وهناك اسمـاء كثيرة من الذين كانوا طلبة في النظامية او المستنصرية عينوا معيديـن لكفاءاتهم وقدراتهم العلمية الممتازة .

كما ان المعيد اذا ما اثبت جدارة واهلية واصالة بحث رقي الى درجة مدرس وهذا عامل آخر مهم تساعد على تركيز الدراسات وتعميقها كما عمل على تطوير العلوم الاسلامية كافـــة .

وكانت مجالس المدارس الاسلامية ومكتباتها مراكز لقاء المسلميـن وتلقي العلوم والمواعظ والارشادات الدينية مما يقوي الرابطة الدينيـة ويعمل على وحدة الفكر الاسلامي .
ان ابنية المدارس الاسلامية والتي تبارى في اظهار جمالها وزانـة رونقها الخلفاء والسلاطين والامراء والوزراء والموسرون كانت امثلـة رائعة للفن العربي الاسلامي . فالمدرسة المستنصرية ببغداد والتي انشئت

17) القلقشندي ــ صبح الاعشى ج 5 ص 464 .
18) ابن الاثير ــ الكامل ج 8 ص 105 .
19) ابن خلكان ج 1 ص 587 .

سنة 630 هـ اتفق المؤرخون المعاصرون لها انه ما بنى على وجه الارض احسن منها (20) . وانها جاءت في نهاية الحسن (21) ، وصفها غريب وحسن ترتيبها عجيب شامخة الى عنان السماء (22) ، وهي اعظم من ان توصف وشهرتها تغني عن وصفها (23) . وحقا فان هذه المدرسة العربية الاسلامية هي اليوم من اجمل الاثار التي خلفها العباسيون ببغداد تشير الى سلامة الذوق الفني وجمال الهندسة وتعبر عن مجد بني العباس الزاهر . وهي اضافة الى جمال بنائها تمتاز بالزخارف الرائعة التي تتكون من قطع من الآجر المهندسة باشكال وحجوم مختلفة محفورة على شكل زخارف هندسية ونباتية وتتفاوت في الحجم والعمق . وهذه القطع بعد ان تتم زخرفتها على انفراد تجمع بعضها الى بعض وتلصق على الجص في واجهة الجدار او السقف المراد زخرفته كما امتازت بالكتابات العربية الفريدة والتي مازالت واضحة مقروءة حتى عصرنا هذا والتي تدل بوضوح على سلامة الذوق وروعة الخط وقدرة الخطاطين البغداديين وقتذاك

ان المدارس الاسلامية والتي برزت بشكلها المنظم في النصف الثاني من القرن الخامس وامتدت من المشرق وحتى المغرب كانت تطورا كبيرا في الحياة الثقافية والتعليمية وادت رسالتها من اجل تطوير وازدهار التعليم في العالم الاسلامي كما كان لها دورها البارز في تنشيط الاداب والعلوم وساهمت باخلاص في توحيد الفكر الاسلامي والحفاظ على التراث الثقافي والاهتمام باصول البحث والعناية بالفرد من الناحية الاجتماعية كما كان انشاء المدارس مساهمة فعالة وبناءة في رقي البناء واظهار روعة العمارة الاسلامية باساليبها الجميلة .

20) القرماني ـ اخبار الدول ص 180
21) مجهول ـ انسان العيون ورقة 249 مخطوط
22) الاربلي ـ خلاصة الذهب المسبوك ص 212
23) ابن الطقطقي ـ الفخري ص 242

الحياة الدينية والدنيوية في مملكة غرناطة الاسلامية

دكتور أحمد مختار العبادي
- مصر -

المراد بلفظ الاندلس هو اسبانيا الاسلامية بصفة عامة . اطلق هذا اللفظ في باديء الامر على شبه جزيرة ايبيريا كلها ، على اعتبار انها كانت في يد المسلمين ثم اخذ لفظ اندلس يقل مدلوله الجغرافي شيئا فشيئا تبعا للوضع السياسي الذي كانت عليه الدولة الاسلامية في شبه الجزيرة ، حتى صار لفظ الاندلس اخر الامر قاصرا على مملكة غرناطة الصغيرة ، وهي اخر مملكة اسلامية في اسبانيا وتقع في الركن الجنوبي الشرقي من شبه جزيرة ايبيريا .

وكلمة اندلس اشتقها العرب من كلمة واندلوسي وهو اسم قبائل الوندال الجرمانية التي اجتاحت اسبانيا من الشمال في بداية القرن الخامس الميلادي واستقرت في سهولها الجنوبية (Baetica) التي صارت تعرف باسمهم واندلوسي وهي التسمية التي عربها المسلمون بعد ذلك الى اندلس . ولازالت الولايات الجنوبية الاسبانية تعرف الى اليوم باسم اندالوثيا ((Andalucia)

ان موضوع الاندلس حديثه كثير وتاريخه الاسلامي طويل استمر لما يقرب من ثمانية قرون ، وهي مدة طويلة ترك فيها المسلمون اثارا مادية وروحية عميقة مازالت تبدو مظاهرها بوضوح حتى اليوم . لهذا لم يكن الفتح العربي لاسبانيا مجرد احتلال عسكري صعدت فيه الجيوش الاسلامية الى الشمال ثم هبطت الى الجنوب مثل ميزان الحرارة أو الترمومتر ، بل كان حدثا حضاريا هاما امتزجت فيه حضارات سابقة كالفينيقية ، والرومانية والقوطية ، مع حضارة جديدة لا حقة وهي الحضارة الاسلامية ونتج عن هذا المزيج حضارة اندلسية مزدهرة وصلت الى الفكر الاوربي المجاور .

واسبانيا بلاد جبلية وعرة . وقد استغل المسلمون هذه الطبيعة الجبلية في تكوين شبكة دفاعية قوية . فجعلوا من سلاسل الجبال ووديان الانهار التي تقطعها في خطوط مستعرضة من الشرق الى الغرب او العكس ، خطوطا واثرت فيه .

دفاعية ضد اي هجوم يقع عليها من المسيحيين في الشمال . فقامت على هذه الوديان مدن هامة كانت قواعد عسكرية لهذه الخطوط . فمدينة سرقسطة (Zaragoza)) كانت مركزا للخط الدفاعي الاول في الشمال وهو وادي الابرو ، ولهذا كانت سرقسطة تسمى بالثغر الاعلى وكانت تغرا علـــى اراجون وقطالونيا في شمال شرق اسبانيا ، وتليها جنوبا مدينة طليطله (Toledo) التي كانت مركزا للخط الدفاعي الثاني وهـــو وادي التاجو (Tajo)) ، ولذا سميت بالثغر الادنى وكانت ثغرا على الجلالقة ومنطقة القلاع في شمال غربي اسبانيا . وفي الجنوب نجد نهر الوادي الكبير (Guadalquivir) خطا دفاعيا ثالثا تقع عليه العواصم الاندلسية

مثل قرطبة واشبيلية وقادس كما تقع غرناطة على احد فروعه

وفي اقصى جنوب اسبانيا يقع جبل طارق الذي يعتبر قاعدة الوصـل بين الاندلس والمغرب ، ويبلغ ارتفاعه في بعض اجزائه حوالي 438 مترا وكان يسمى قديما بالاسم الفينيقي (Mons calpe) اي الجبل المجوف نسبة الى مغارة كبيرة فيه سماها الاسبان فيما بعد مغارة القديس ميخائيل (San Miguel) ثم اطلق عليها الانجليز بعد احتـلال هذه القاعـدة (سنة 1704) اسم مغارة القديس جورج ولعل هذا الغار هو غار الاقدام الذي ورد ذكره في بعض المراجع العربية التي وصفت هذا الجبل لوجود أثار أقدام فيه .

وبعد الفتح العربي لاسبانيا اطلق المسلمون على هذا الجبل اسم الصخرة المجاز ، وجبل الفتح وجبل طارق ، وهذا الاسم الاخير هو الاسم المعروف به حتى اليوم في جميع اللغات نسبة الى فاتح الاندلس طارق بن زياد

أما المضيق نفسه فقد كان يعرف قديما باعمدة هرقل (Columnasde Hercules) نسبة الى الجبال المحيطة به . اذ كان يظن في القديم ان هـذه الجبال هي نهاية العالم وان هرقل العظيم استطاع بقوتـه الخارقـــة ان يفصليا عن بعضها كي تتصل مياه البحر المتوسط بمياه البحر المحيط . ولما فتح المسلمون هذه الجهات اطلقوا عليه اسم مضيق المجاز او خليج الزقاق او البحر الزقاقي او مضيق جبل طارق ، ويبلغ طول هذا المضيق حوالـي 80 م . كما يبلغ عرضه في اضيق جهاته حوالي 15 م وهي مسافة ضيقة اي يمكن في يوم صحو رؤية الشاطئ الاسباني من الشاطئ المغربـــي او العكس . ومن الطريف ان المسافر من المغرب الى اسبانيا عبر المضيـق يرى جبل طارق من بعيد وكانه سرج فرس ، وقد علق على هذا الخطـــر

المؤرخ الاندلسي ابن سعيد المغربي بقوله :

انظر الى جبل الفتح	راكبا متن لجج
وقد تفتح مثل الـ	افنسان في شكل سرج

وهكذا نرى ان مسافة المضيق التي تفصل المغرب عن الاندلس . مسافة ضيقة لاوزن لها من ناحية الانتشار العسكري او الثقافي او الاقتصادي . فكل من القطرين يعتبر منطقة امان للاخر وامتدادا له في الدم والجوار والاخذ والعطاء وفي الصلات التاريخية والجغرافية والواقع الاستراتيجية . ومن هنا نشأ صراع تقليدي من قديم الازل بين الساطئين الافريقي والاوربي حول السيطرة على هذه المنطقة المحيطة بالمضيق المعروفة باسم العدوتين : عدوة المغرب وعدوة الاندلس والعدوة معناها الشاطيء او الجانب . ولقد استطاعت الدولة الاموية في الاندلس ان تسيطر على مضيق جبل طارق في الجنوب وان تحتل بعض ثغور العدوة المغربية مثل سبتة وطنجة ومليلية لاحكام السيطرة على المضيق ولمنع اي غزو خارجي ياتيها من الجنوب . كذلك استطاعت ان تسيطر على القوى المسيحية الاسبانية في الشمال وتتحالف معها ضد اي تدخل اوربي ياتيها من هذه النواحي الشمالية فسياسة الخلافة الاموية بالاندلس كانت مثل المغناطيس الذي يسد ابواب جبال البرتات شمالا . ومضيق جبل طارق جنوبا في وجه اي تدخل اجنبي .

ولما سقطت الدولة الاموية بالاندلس سنة 1031 م 422 هـ وتفككت الى دويلات طائفية ضعيفة متنازعة . زال هذا المغناطيس شمالا وجنوبا . واخذ النفوذ الفرنسي بشتى صوره واشكاله السياسية والثقافية والدينية يتغلغل في شمال اسبانيا باعثا روحا صليبية جديدة ضد المسلمين

ومن سوء طالع الاندلسيين في ذلك الوقت انه كان يحكم شمال اسبانيا رجل واسع الطموح وهو الملك الفونسو السادس . فاستجاب لهذه النزعة الصليبية الفرنسية وطرد مستشاريه المستعربين وتزوج اميرة فرنسية تدعى كونستانس واحاط نفسه بعدد كبير من الرهبان والقساوسة الفرنسيين اتباع نظام كلوني الذين انتشروا في شمال اسبانيا يحرضون الاسبان ضد المسلمين .

وانقاد الملك الفونسو السادس لهذه السياسة الصليبية الفرنسية وسارع بجيوشه لضرب الخطوط الدفاعية الاسلامية . ومن العجيب انه

هاجم الخط الدفاعي الثاني . خط التاجو ، أو الثغر الادنى ، واستولى على قاعدته طليطلة سنة 1085 م (478 هـ) ، فانهار الخط بسقوط قاعدته واستطاع الاسبان بذلك ان يدقوا اسفينا في قلب الاندلس ويفصلوا شماله عن جنوبه . وفي ذلك يقول الشاعر المعاصر ابن عزنون المعروف ابن العسال الطليطلي :

شدوا رواحلكم يا أهل اندلس
فما المقام بها الا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه وارى
ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

ولم يكتف الفونسو السادس بهذا النصر الكبير الذي احرزه بل سارع بجيوشه نحو مدينة سرقسطة قاعدة الثغر الاعلى للمسلمين فحاصرها بغية الاستيلاء عليها والقضاء على الخط الدفاعي الاول وامام هذا الخطر الداهم استنجد الاندلسيون باخوانهم المرابطين الذين جاءوا من صحراء موريتانيا وكونوا دولة عرفت بدولة المرابطين الفتية في المغرب فلبوا ندائهم وعبروا الى الاندلس فلبت نداءهم واستطاعت بقيادة ملكهم يوسف بن تاشفين الذي انتصر على الاسبان في موقعة الزلاقة سنة 1086 م وانقذ الاندلس من ضياع محقق . واوصلت الدولة المرابطية انتصاراتها على الاسبان في مواقع عديدة مثل اقليش (Ucles) 1108 م وطلبيرة ويابرة وغيرها ولكنها مع ذلك لم تتمكن من استرداد طليطلة قاعدة خط التاجو او الثغر الادنى . بل انها في اواخر ايامها لم تستطع الدفاع سقطت مدينة سرقسطة قاعدة الثغر الاعلى فاستولى عليها يد ملك اراجون الفونسو الاول سنة 1118 م وانهار بسقوطها خط وادي الابرو وهو الخط الدفاعي الاول . وكان لهذا الحادث أثر كبير في سقوط دولة المرابطين وقيام دولة مغربية اخرى مجاهدة وهي دولة الموحدين .

واستطاع الموحدون ان يكونوا امبراطورية كبيرة شملت المغرب العربي الكبير والاندلس كما تمكنت جيوشهم ولاسيما في عهد الخليفة يعقوب المنصور الموحدي ـ ان تحرز نصرا كبيرا على الاسبان في وقعة الارك (Alarcos) سنة 1195 م وان تصل في زحفها الى اقصى شمال اسبانيا ، غير ان الموحدين مع ذلك لم يتمكنوا من استعادة هذه الخطوط

الدفاعية في الثغرين الاعلى والادنى ، بل نجد ان الدول الاوربية بزعامة البابا انوسنت الثالث قد تحالفت ضدهم ووجهت الى الاندلس حملة صليبية التي شبهها المؤرخون بالجراد المنتشر انتصر الصليبيون على الموحدين في موقعة العقاب (Las Navas de Tolosa) سنة 1212 م (609 هـ) ولم تتحمل دولة الموحدين هذه الكارثة فانهارت دولتها في الاندلس وانهار معها الخط الدفاعي الثالث وهو الوادي الكبير بما عليه من مدن كبرى مثل قرطبة واشبيلية وجيان وقادس وانسحب المسلمون الى الركن الجنوبي الشرقي من اسبانيا حيث جبال البشرات (Alpyjarras) وجبال شلير (Sierra) (Nevada) فتحصنوا بها ودافعوا عن هذه المنطقة دفاع اليائس المستميت ، وتمكنوا بزعامة قائد شجاع منهم اسمه محمد بن يوسف بن نصر ان يؤسسوا هناك سنة 1238 م (635 هـ) اخر مملكة اسلامية في اسبانيا وهي مملكة غرناطة او مملكة بني

الاحمر او بني نصر هذه الدولة التي من موضوع حديثنا اليوم مملكة صغيرة مجاهدة كانت هذه المملكة الصغيرة تشتمل على عدة ولايات وهي غرناطة ومالقة والمرية بالاضافة الى جبل طارق والجزيرة الخضراء وطريق ورندة، وكانت عاصمتها مدينة غرناطة (Granada) مدينة مستديرة مرتفعة على سفح جبل شلير (Sierra Nevada) ويخترقها نهر شنيل (Genil) احد فروع الوادي الكبير ويلاحظ وجود تشابه في الاسم بينه وبين النيل . وهو يعتبر واديا صغيرا (حوالي 211 م) اذا قورن بوادي النيل 6500 ك م . ومع ذلك فان الغرناطيين تدروه بالف نيل . لان الشين عند المغاربة تعني الالف في العدد وفي ذلك يقول الوزير الغرناطي لسان الدين ابن الخطيب : وما لمصر تفخر بنيلها والف منه في شنيلها ؟ .

وفي جنوب غرب دولية غرناطة تمتد مروجها الخصبة التي كانت تسمى بالمرج او الفحص اي البقاع ومن هذه الكلمات جاءت التسميات الاسبانية (Las Vegas or Vega, Alfoz) ،وكانت قصبة مدينة غرناطة هي مقر الحكم والسلطان ، وتعرف بالحمراء (La Alhambra) وهذا الاسم قديم في غرناطة وقد ورد ذكره في القرن الثالث الهجري او التاسع الميلادي في عهد الامير عبد الله الاموي . وواضح ان هذا الاسم راجع الى لون تربة الهضبة التي بنيت عليها ولهذا سميت ايضا بالسبيكة اي مثل سبيكة الذهب في لونها تحت اشعة الشمس . وفي ذلك يقول الشاعر الغرناطي ابن مالك الرعيني :

ترى الارض فضة فاذا اكتست

بشمس الضحى عادت سبيكتها ذهب

ومن هذا نرى انه ليس هناك علاقة بين اسم الحمراء واسم بني الاحمر الذين حكموها بعد ذلك منذ القرن السابع الهجري او الثالث عشر الميلادي ، فتشابه الاسمين محض مصادفة .

اما بنو الاحمر او بنو نصر سلاطين هذه المملكة فيرتفع نسبهم الى سيد الخزرج سعد بن عبادة الذي عاون الرسول في دار الهجرة اما تسميتهم بني الاحمر فنسبة الى جد لهم يدعى عقيل بن نصر الذي لقب بالاحمر لشقرة فيه . وقد استمر هذا اللون الاشقر يظهر في بعض افراد هذه الاسرة مثل السلطان محمد السادس الذي لقب في المصادر الاسبانية بالبر منجو ومعناه اللون البرتقالي الضارب الى الحمرة وهو لون شعره ولحيته .

وهكذا نرى انه ليس هناك علاقة بين اسم الحمراء واسم بني الاحمر ، الاول يرجع الى لون التربة ، والثاني يرجع الى لون شعر شقرة بعض افراد احد جدود الاسرة فتشابه الاسمين اذن محض مصادفة

ومع ذلك فان ملوك غرناطة قد اتخذوا من اللون الاحمر شعارا لهم في لون قصورهم واعلامهم وقبابهم بل وفي لون الورق السوس يلبنون عليه رسائلهم السلطانية .

هذا ، ويلاحظ ان الوضع الجغرافي لهذه المملكة الصغيرة بين عدة دول تفوقها قوة ، وتحيط بها من كل جانب ، وهي : مملكة قشتالة شمالا والبرتغال غربا ، واراجون شرقا ، ودولة بني مرين في الغرب جنوبا ، قد جعل سياستها مرتبطة بتلك التيارات السياسية التي حولها . ولهذا لم تلتزم في سياستها على جانب واحد من هذه القوى المحيطة بها بل كانت سياستها تتبدل وتتغير في حذر وحرص من يوم الى يوم حسب الظروف الخارجية المحيطة بها وتمشيا مع سلامة مصالحها مع جيرانها : فتارة تتقرب من قشتالة ضد اراجون وتارة اخرى تتقرب من المغرب ضد قشتالة وتارة ثالثة تتقرب من ملوك البرتغال او اراجون ضد قشتالة وهكذا ، فهذه السياسة الماهرة الماكرة التي سلكتها غرناطة مكنتها من الاحتفاظ باستقلالها مدة قرنين ونصف من الزمان ، لانها عرفت كيف تستفيد من الحزازات القائمة بين هذه الدول لصالحها . ولقد اشاد المؤرخون الاوربيون بالدبلوماسية الغرناطية ووصفوها بصفة تدل على المرونة والمهارة وهي سياسة اللعب بالثلاث ورقات (Juego de Tres Basajas)

على ان هذه المهارة السياسية لم تكن كافية للدفاع عن كيانهـــا فوجودها بين هذه الدول قد جعلها في حالة حرب او استعداد دائم للحرب ضد اي عدوان يقع عليها . وقد اشار الوزير الغرناطي ابـن الخطيب لهـذا الاعداد الحربي للشباب الغرناطي بقوله : «والصبيان تدرب على العمـل بالسـلاح وتعلـم المناقضـــة كمـا يعلـم القرآن في الالـــواح ومن الطريف ان هذه العبارة تتفق مع ما جاء في المدونات الاسبانيـــة المعاصرة من ان جميع افراد الشعب الغرناطي حتى الاطفال منهـم قد اشتهروا بمهارتهم في القتال ولعـل الاحتفـالات الشعبيـــة التي تقـام حتى اليوم في اسبانيا ويمثل فيها القتال بين المسلمين والمسيحيين او ما يعرف باسم (Morosy Cristianos) تعطينا صورة فكرة عن هــذه الحياة الحربية التي سادت اسبانيا في العصر الوسيط ولقد تعاون المغرب مع شقيقته غرناطة في هذه الاعمال الجهادية ، فالى جانـــب الجيــش الغرناطي وجد في العاصمة جيش من فرسان زناتة المغاربة عرفوا باسم الغزاة . وكان يرأسهم امير من الاسرة المالكة في المغرب اسرة بني مرين او بني عبد الحق ويلقب بشيخ الغزاة . وكان لهؤلاء الزناتيين فن حربـــي خاص يقوم على خفة الحركة وسرعة الكر والفر والالتفاف مـــع اللـــي واستعمال الدروع الجلدية والخيول الخفيفة ذات الركـاب المرتفـــع . وهـذا الفن الزناتي يختلف عن طريقة الاسبـان الذيـــن استعملـــوا الدروع الحديدية الثقيلة والخيول المدرعة ذات الركـــاب الطويـــل المنخفض . وكل هذه الاشياء كانت تعوقهم من الحركة امام وثبــــات الزناتيين وخفة حركتهم .

وقد اضطر الاسبان الى اقتباس هذا الفن الحربي الزناتي وتطبيقـه على بعض فرقهم العسكرية التي سموها بنفس الاسم (Zenetes) ، اي الزناتيون ثم لم يلبث هذا اللفـظ ان تطور في اللغـة الاسبانيـة الـــى (Jinete) ومعناها الفارس .

كذلك يؤثر عن الغرناطيين انهم توصلوا الى استخدام المدفع والاسلحة النارية قبل الاوربيين حسب النصوص التي لدينا ، فالمعـــروف ان اول استعمال للمدفع في غرب اوربا كان خلال حرب المائة عام في موقعـــة (Creasy) بفرنسا سنة 1342 بين فيليب دي فالوا ملك فرنسـا وادوارد الثالث ملك انجلترا الذي كتب له النصر باستعمالـــه الالات النارية . اما في غرناطة فالنص الذي اورده الوزير الغرناطي ابن الخطيب

في كتابة (اللمحة البدرية) ونازل سلطان غرناطة (اسماعيل الاول) قلعة اشكر (Huescar) سنة 724 هـ (1324 م) .. ونشر الحرب عليها ، ورمي بالالة العظمى ، المتخذة بالنفط طاقة البرج المنيع ، فعاشت عباب الصواعق السماوية ، ونزل اهلها قسرا على حكمه وفي ذلك يقول شيخنا الحكيم ابو زكريا بن هذيل :

وظنوا بان الرعد والصعق في السما
فحاق بهم من دونها الصعق والرعد
غرائب اشكال سما هرمس بها
مهندمة تأتي الجبال فتنهد
الا انها الدنيا تريك عجائبا
وما في القوى منها فلابد ان يبدو

ومن الغريب ان المصادر الاسبانية المعاصرة ايدت هذا الاختراع واشارت اليه كسلاح جديد رهيب ، ففي حوليات ثوريتا

(Zurita : Anales II P. 51 Nota 1.)

) نجد العبارة الاتية :

Se entendia el rumor en alicante que el rey' de
Granada estaba en posesion de una nueva arma mortifera

اي : وانتشرت الاشاعات في مدينة لقنت بان ملك غرناطة يمتلك سلاحا جديدا مبيدا : وتجدر الاشارة هنا الى ان دولة بني مرين في المغرب استخدمت المدفع ايضا في حصار سجلماسة 1273 م 672 هـ قبل الغرناطيين وقد نص على ذلك ابن خلدون في الجزء السابع من تاريخه المعروف بكتاب العبر . وكل هذا يدل على ان المسلمين استخدموا المدفع قبل الاوربين .

كيفما كان الامر ، فانه يتضح لنا مما تقدم ان هذه المملكة الصغيرة البسيطة التي نشأت في منطقة جبلية وعرة ، استطاعت ان تثبت وجودها كدولة قوية مزدهرة في جميع المجالات السياسية والحربية والاقتصادية الى غير ذلك من المجالات العلمية الحربية التي لا يتسع المجال للخوض فيها الان .

على اننا اذا تركنا جانبا هذه الحياة الجدية والجهادية القاسية التي اشتهر بها الشعب الغرناطي ، وجدنا ان لهذا الشعب حياة اخرى تتسم بطابع البهجة والمرح والسرور ولهذا رد فعل طبيعي للحياة الحربية التي عاشوها . ويظهر ذلك بوضوح في اعيادهم واحتفالاتهم التي كانوا يحتفلون بها في المناسبات المختلفة .

وقد اعطانا المؤرخ الغرناطي ابن الخطيب صورة جميلة في وصف بني وطنه اهل غرناطة فقال : كانوا سنيين على مذهب الامام مالك بن انس ، وكانت اخلاقهم جميلة وصورهم حسنة ، وانوفهم معتدلة ، وشعورهم سود مرسلة ، قدودهم متوسطة تميل الى القصر والوانهم بيضاء مشربة بحمرة ، والسنتهم فصيحة عربية ، تغلب عليها الامانة ، واخلاقهم ابية والعمائم تقل فيهم الا ما شذ في شيوخهم وقضاتهم وعلمائهم . واعيادهم حسنة مائلة الى الاقتصاد ، والغناء بمدينتهم فاش حتى في الدكاكين التي تجمع كثيرا من الاحداث وحريمهم حريم جميل موصوف بالسحر ، وتنعم الجسوم ، واسترسال الشعور ، ونقاء الثغور وخفة الحركات ، ونبل الكلام ، وحسن المحاورة ، الا ان الطول ميدرفيهن ، وقد بلغن من التفنن في الزينة ، والتماجن في اشكال الحلى الى غاية نسأل الله ان يغض عنهن فيها عين الدهر .

وكانت الاحتفالات والاعياد في غرناطة كثيرة ومتنوعة ، نذكر منها الاعياد الدينية مثل عيدي الفطر والاضحى ، وعيد المولد النبوي في 12 ربيع الاول وموسم عاشوراء في 10 المحرم ثم هناك عيد العصير الذي كان يقام عند جني محصول العنب وعصره ، وهو المحصول الرئيسي في البلد فكان الاهالي يغادرون ديارهم ويتنقلون الى حقول الكروم حيث يقيمون عدة ايام لجمع المحصول في جو يسوده المرح والرقص والغناء وهي عادة مستمرة حتى اليوم ويشير ابن الخطيب الى ان هؤلاء الغرناطيين كانوا يحملون اسلحتهم معهم دائما لان هذه الحقول كانت مكشوفة ومجاورة لحدود العدو .

ثم هناك الاحتفالات التي كانت تقام بمناسبة الانتصارات الحربية او بمناسبة اعذار ابناء السلطان او ازواجهم . كذلك شارك الغرناطيون اخوانهم المسيحيين في اعيادهم مثل عيد ميلاد السيد المسيح ، وعيد العنصرة او عيد سان خوان الذي يحتفل به في اسبانيا في 24 يونيو ، وهو يقابل عيد النيروز في الشرق الذي يحتفل به في شهر سبتمبر . وهذه

المشاركة الروحية ترجع الى الحياة المشتركة التي عاشها المسلمون والمسيحيون في الاندلس جنبا الى جنب قرونا طويلة . كما ترجع ايضا الى نظرة الاحترام التي يكنها المسلمون نحو السيد المسيح كما ورد في القرآن الكريم .

ولقد جرت العادة ان يحتفل الغرناطيون باعيادهم بوسائل مختلفة اهمها :

1) العاب الفروسية ومصارعة الوحوش وحفلات الصيد .

2) الغناء والموسيقى والرقص

3) الاحتفالات الدينية

اما العاب الفروسية ومصارعة الوحوش . فكانت تقام في حلبات او ساحات متعددة في مدينة غرناطة مثل ساحة باب الرملة ، وساحة باب الطوابين ، ومكانه اليوم طريق العذراء (Carretera de la Virgen) وكذلك في قلعه الحمراء نفسها امام برج الغدر (جمع غدير) ، ويسمى اليوم (Torre de los siete suelos) فيروى ابن الخطيب انه كانت تقام في احدى الساحات دائرة خشبية في الهواء تسمى الحلبة ثم تأخذ الفرسان في قذفها برماحهم اثناء ركضهم بخيولهم . كذلك كانت تقام المبارزات الفردية والجماعية التي تمثل معركة حقيقية قد يصاب فيها البعض بجراحات . وهذا ، الى جانب الاحتفال بعرض قوات الجيش امام السلطان وعدد من الضيوف الاجانب من البلاد المجاورة سواء أكانت اسلامية ام مسيحية . وكان يوجد بجوار قصر الحمراء ، قصر خاص اعد لاقامة هؤلاء الضيوف ويعرف بدار الضيافة .

اما مصارعة الوحوش ، فكانت تدور حول مصارعة الثيران ، ومرجعنا فيها هو لسان الدين بن الخطيب . والواقع ان ما اورده هذا المؤرخ الغرناطي عن هذه المصارعة لم يرد في الموسوعة الكبرى التي كتبها عن الثيران خوسي ماريا كوسيو (Jose Maria Cossic) اذ ان مؤلف هذه الموسوعة يرى ان مصارعة الثيران بدأت في اسبانيا بعد انتهاء الحكم الاسلامي في اسبانيا اي في القرن 16 م ، في حين ان ابن الخطيب الذي عاش في القرن 14 م يذكر صراحة في كتابه الاحاطة ، بان هذه المصارعة كانت موجودة على ايامه وانها كانت على طريقتين :

الطريقة الاولى ، كانت حربا بين الثور والاسد ، وانه شاهدهـــا بنفسه ، وقد اسفرت عن انتصار الثور ، وجرح الاسد ، وعندئذ خرجـــت طائفة من الرجال المسلحين ، اخذوا يناوشون الاسد الجريح الى ان قتلوه بعد ان افترس بعضهم .

اما الطريقة الثانية ، فكانت بين الثور والانسان ، وكانت منتشرة بين علية القوم من اهل غرناطة . وهذا اقدم نص وجدناه عن هذه المصارعة المشهورة . وكانت الطريقة كما يصفها ابن الخطيب هي ان يطلق الثور او البقر الوحش كما يسميه ثم نطلق عليه كلاب اللان المتوحشة ، فتأخذ في نهش جسمه واذنيه ، وتتعلق بها في صورة القرط من اذانها . وهذا العمل التمهيدي كان الغرض منه هو الحد من قوة الثور وتهذيب حركته ، وهو ما يقوم مقامه اليوم عمل رماة السهام ، (Banderillercs) ، وطاعن الرمح (Picador) وذلك تمهيدا للقاء المصارع . وكان المصارع الغرناطي كما يصفه ابن الخطيب ، فارسا مغوارا يصارع الثور على فرسه المدرب ثم يقتله في النهاية برمحه ، وهذا النوع من المصارعة لايزال قائما الـــى اليوم في اسبانيا ، ويسمى الفارس المصارع باســـم (Rejoneador) نسبة الى الرمح القصير الذي يستعمله في قتل الثور واسمه (Rejon)

وقد اعطانا الشاعر المعاصر عبد الله بن زمرك صورة لذلك عند قوله في مدح سلطان غرناطة محمد بن يوسف الغني بالله : ـ

وطـاردت مقـدام الصوار بـجـارح

يصاب بـــه منه الصمـــاخ او الابط

متين الشوى في رأسه سمهرية 1

مقصرة عنهن مـــا ينبت الخط ( )

وقـد كان ذا تـاج فلمـا تعلقـــا

بسامعـنـيـة زان منهما قـــرط

) السمهرية : نوع من الرماح العربية
)الخط : موضع في خليج البحرين كانت تباع فيه الرمـــاح الخطيـة المستوردة من الهند

ويقول ايضا في نفس المعنى :

وطاردت الصوار ( ) بكل ضـــار
كـمـا انبـعـث عفريتا شهابـــا
ضربـت بـه على الاذان منهـــا
فـلـم تسطـع حراكـا واضطرابـا

ومعصوب الجبين بتـاج دوق ( )
يـروع خـواره الاسـد الغضابـا
تـعـرف ان تحت الارض ثـــورا
فـرام بـان يشق لـه الترابـا

كذلك يذكر ابن الخطيب ان سلطان غرناطة ابا سعيد بن محمد بن نصر حينما كان وليا للعهد خرج للصيد يوما فقابله خنزير جبلي (Jabali) فطرح نفسه عليه ، فكبابه فرسه واستقبله ذلك الخنزير ، فاستل الاميـر سيفه وعاجله بضربة تحت عينيه ابانت فكيه واطارت محل سلاحه وتلاحق به فرسانه وقد يئسوا من خلاصه ، فراوا مابهتوا له . وبشروا بذلك والده السلطان محمد الفقيه فسر سرورا عظيما .

الى جانب حفلات الصيد والفروسية ومصارعة الوحوش ، كان الغناء والموسيقى يمثلان عنصرا بارزا في الاحتفالات والاعياد الغرناطية . ويلاحظ ان اسبانيا عموما تعتبر في طليعة الدول التي برزت في ميدان الموسيقى والغناء في عصورها التاريخية المختلفة ، ففي العصر الاموي مثلا نجد انها رغم استقلالها عن المشرق من الناحية السياسية الا أنها فتحت ابوابهـا لجميع الوان الفنون والاداب والتجارة التي ظهرت في المشرق . فالمدارس الموسيقية الاسلامية الاولى التي ظهرت في الحجاز ولاسيما في مكـــة والمدينة في القرن الثاني للهجرة لم تلبث ان انتقلت الى الاندلس على ايدي الفنانين والفنانات الذين هاجروا اليها . ويكفي ان نتصفح كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني نجد امثلة عديدة لهؤلاء الفنانين الحجازيين الذين انتقلوا الى الاندلس في اوائل العصر الاموي مثل عجفاء وقلم والثنائـي علون وزرقون وغيرهم . كذلك يؤثر عن عبد الرحمن الاوسط انه بنى قصرا

( )الصوار : والصوار والصيار قطيع البقر والجميع صيران (ايثيران)
( ) الروق ، القـرن

حاضا لمغذياته المدنيات عرف بدار المدنيات وحينما بنى العباسيون مدينة بغداد ، وظهرت فيها المدارس العراقية الموسيقية على يد ابراهيم الموصلي وولده اسحاق وتلميذه ابى الحسن بن نافع الملقب بزرياب ، لم يلبث هذا اللون من الموسيقى ان انتقل الى الاندلس علي يد زرياب نفسه الذي هاجر بأولاده وزوجاته الى قرطبة في القرن الثالث الهجري واسس هناك مدرسة موسيقية لم تلبث ان طغت شهرتها على الموسيقى المدنية وانتشرت في جميع انحاء اسبانيا الاسلامية والمسيحية على السواء .

وحينما انحصر ملك المسلمين في مملكة غرناطة ، حافظت هذه الدولة الصغيرة على ذلك التراث الموسيقي الاندلسي العريق بل واخذت تصدره كما يقول ابن خلدون الى البلاد المغربية التي حافظت عليه بدورها حتى اليوم فالموسيقى الاندلسية التي نسمعها اليوم في كل من الجزائر والمغرب وتونس . ماهي الا رواسب موسيقى زرياب القديمة . ففي مقال عن الموسيقى للعالم التونسي الراحل حسن حسني عبد الوهاب عن الموسيقى التونسية ، يذكر أنه لايزال يوجد في تونس لون من الغناء الشعبي التونسي يعرف بلحن غرناطة ، مما يدل على ان غرناطة كانت مركز اشعاع فني وثقافي في البلاد المغربية خصوصا وان عددا كبيرا من أهلها هاجر الى تلك البلاد واستقر فيها واعطاها طابعا اندلسيا في مختلف النواحي الاجتماعية والفنية والثقافية . وبطبيعة الحال هذه المجالات المرحة الصاخبة، كان يصاحبها في كثير من الاحيان شرب الخمر كوسيله من وسائل الترفيه والمشاركة في هذه الاحتفالات والاعياد والنصوص التي لدينا تدل دلالة واضحة على ان اهالي غرناطة قد زرعوا الكرم بكثرة وتفننوا في عصره وتخميره ، كما اقبلوا على شربه شرب عصيره الحلال والحرام ولعل وفرة المحصول من جهة وبرودة الجو من جهة اخرى ، كانا من العوامل التي دفعتهم الى ذلك . وقد سبقت الاشارة الى ان مملكة غرناطة كانت ومازالت من أهم البلاد التي تزرع الكرم ولاسيما مدينة مالقة التي يصفها الشقندي بقولـه :

«وأما مالقة : فانها جمعت بين منظر البحر والبر وبين الكروم المتصلة التي لاتكاد ترى فيها فرجة لموضع غامر ، وقد خصت بطيب الشراب الحلال والحرام حتى سار المثل يضرب بالشراب المالقي . وقيل لاحد الخلفاء ، وقد اشرف على الموت ، أسأل ربك المغفرة فرفع يده وقال «يارب اسألك من جميع مافي الجنة خمر مالقة» .

كذلك يقص علينا ابن الخطيب نادرة تدل على انتشار هذا الشراب

في غرناطة وذلك في ترجمة الطبيب ابى عبد الله محمد بن ميمون الخزرجي (القرن 8 هـ) ويعرف بلا اسلم لكثرة صدور هذا اللفظ عنه في المسائل الطبية . فيقول . «كانت للحكيم الاسلم خمر مخبأة في كرم له بالمرية عثر عليها بعض الخلعاء ، فسرقتها له . فعمد الطبيب الى جرة وملاها بخمر اخرى ودفنها بالحمه وجعل فيها شيئا من العقاقير المسهلات ، واشاع ان الخمر العتيقة التي كانت له لم تسرق ، وانما هي باقية في موضع الحمه . فعمد اليها اولئك الخلعاء ، واخذوا في استعمالها ، فعادت عليهم بالاستطلاق القبيح المهلك . فقصدوا الحكيم المذكور ، وعرضوا عليه ماصابهم ، فقال لهم ادفعوا الى ثمن ما اخذتموه ، وحينئذ اشرع لكم في الدواء ويقع الشفاء بحول الله . فجمعوا له اضعاف ماكان يساويه خمره ، وعالجهم حتى شفاهم

كذلك يلاحظ ان برودة الجو في غرناطة في فصل الشتاء ، لوقوعها على سفح جبل شلير او جبل الثلج (Sierra Nevada) ، كان له دخل كبير في اقبال الاهالي على شرب الخمر ، وفي ذلك يقول الشاعر ابن صدرة يصف برد ، برد غرناطة :

أحل لنا ترك الصلاة بارضكم
وشرب الحميا وهو شيء محرم
فرارا الى نار الجحيم لانها
أرق علينا من شلير وارحم
لئن كان ربي مدخلي في جهنم
ففي مثل هذا اليوم طابت جهنم

آفة اخرى انتشرت في غرناطة ولاسيما في خلال هذه الاعياد الصاخبة وهي الحشيش . وذلك ان الحشيش قد بدأ انتشاره في المشرق ثم انتقل بعد ذلك الى المغرب في وقت متاخر . ويبدو ان المغرب والاندلس كانا في مأمن من تلك الافة حتى القرن السابع الهجري ، والدليل على ذلك تلك الملاحظة التي أبداها الرحالة الغرناطي ابن سعيد المغربي حينما زار مصر في القرن السابع الهجري (13 م) اذ عاب على المصريين اكلهم للحشيشة مبينا ان امثال تلك العادات القبيحة لاتوجد في بلاده .

كذلك يلاحظ ان النصوص والاشعار التي تكلمت عن انتشار الحشيش في غرناطة ترجع كلها الى القرن الثامن الهجري (14 م) مما يدل على ان انتشاره في الاندلس كان منذ ذلك الوقت . في أواخر العهد الاسلامي

بالاندلس حينما لاحت النهاية واخذ الناس يهربون من واقعهم باستعمال فن المغيبات والمخدرات .

ومن امثلة تلك الاشعار قول ابن الوحيد الغرناطي (ت 711 هـ) :

وخضراء بل لاتفعل الخمر مثلها
لهما وثبات في الحشا وثبات
تؤجج نارا في الحشا وهي جنة
وتبدي لذيذ العيش وهي نبات

ولاشك ان انتشار مثل هذه الافات راجع الى الاضطراب السياسي والخمول الذي كانت تعانيه غرناطة في ذلك العهد . ويقص علينا ابن الخطيب نادرة عن انتشار الحشيش في بلده بقوله :

وبلغت الاندلس لهذا العهد (اي عهد السلطان ابي سعيد البرمنجسو (Bermejo) من خمول الامر واختلال السيرة مالافوقه ، حدثني صاحب شرطته ، وهو لاباس به ، قال اطريته باجتناب الناس الخمر في أيامه ، وطهارة بلده من قاذوراتها ، فقال لي اي الملا المشهور . والحشيش كيف حالها ؟ قلت ماعثرت على شيء منه . فقال هيهات ، انزل الى بيت فلان ، وفلان ، وفلان ، وعد كثيرا من الساسة والاوغاد والصناعين ، ورسم مكامنتهم واخذ ينسبهم نسبة الاصمعي لافخاذ العرب وبطونهما ، ويصف الناصح والغاش منهم بصفة وربما دعا مشيختهم بالعمومة . قال صاحب الشرطة : وانصرفت الى ماذكر . فوالله ما اخطأت شيئا عما رسمه ، ولافقدت شيئا مما ذكره ، وذلك لغشياته (اي السلطان نفسه) بيوتهم وانخراطه في جملة منتابيهم ، فهو والله استاذي في الشرطة .

والى جانب هذا المظهر الدنيوي الصاخب المرح ، كان لهذه الاحتفالات مظهر اخر ديني يحتفل به في المساجد والزوايا والرباطات بل وفي قصر السلطان نفسه اي قصر الحمراء حيث كانت تقام الصلوات ، وتتلى ايات بينات من الذكر الحكيم ، وينشد الشعراء القصائد المناسبة للمقام ، الى جانب الاناشيد والموشحات الدينية ، وحلقات الذكر التي كان يصاحبها العزف على بعض المزامير التي تسمى بالشبابة او البراعة .

وفي اخر الليل تقدم الاطعمة والحلوى ويستمر الاحتفال حتى مطلع الفجر . وكانت مدينة غرناطة محاطة بسلسلة من الرباطات تقام فيها مثل هذه الاحتفالات الدينية في مواسم معينة . وقد زار بعضها الرحالة الطنجي

المشهور ابن بطوطة في منتصف القرن الثامن الهجري (14 م) مثل رابطة بنى المحروق المعروفة باللجام في مكان مرتفع بالسبيكة ، ورابطة العقاب على جبل من جبال غرناطة (Sierra Elvira) وهي رابطة قديمة ورد ذكرها في شعر ابي اسحاق الالبيري في القرن الخامس الهجـري . ولاحظ ابن بطوطة وجود جالية كثيرة من الايرانيين في الروابط ومن أهم هـــذه الاحتفالات الدينية الاحتفال بليلة المولد النبوي ، وهذا الاحتفال لم تصبح له صبغة رسمية في المغرب والاندلس الا في وقت متأخر في اواخر القـرن السابع الهجري . قبل ذلك التاريخ كانت الشعوب تحتفل به دون الحكومات ثم استن صاحب سبتة وطنجة الشريف ابو القاسم العزفـي (ت 677 هـ) سنة جديدة وهي جعل هذا اليوم المبارك عيدا وطنيا رسميا في امارتـه ، فشاركت الدولة في الاحتفال به وبذلت الاموال عن سعة فاكسبته روعـة وبهجة . كذلك الف الشريف ابو القاسم العزفي كتابا حول هـذه المناسبة اسماه الدر المنظم في مولد النبي المعظم .

ولم تلبث هذه العادة ان انتقلت بعد ذلك الى بلاطات فاس وغرناطة وتلمسان وتونس حيث شاركت حكومات هذه الدول في الاحتفال بالمولـد النبوي بما يليق بمقامه العظيم ولازالت هذه العادة متبعة في المغرب حيث اختصت مدينة سلا بجوار مدينة الرباط باعداد موكب كبير يعرف بموكب الشموع يخرج منها في مساء هذا اليوم (12 ربيع الاول) ويسيـر فـي مقدمته نائب السلطان .

هذه لمحة عن الحياة في غرناطة ، حياة جهادية ملؤها الجهاد والبـذل والتضحية والفداء من ناحية ، وحياة دنيوية مرحة صاخبة من ناحية اخرى، وحياة دينية صوفية ورعة من ناحية ثالثة ،، صور متعددة متناقضـــة تجعلنا نشبه هذا الفصل الختامي للاندلس بالثمالة الاخيرة او العصـرة الاخيرة لليمونة فهي حلوة ومرة في ان واحد .

دور الفكر في عملية "التكيف"

الدكتور محمد الهاشمي
- جامعة بغداد -

اجتاحت العالم ، خلال القرن الماضي ، موجة من يقظة الفكر . كان من آثارها ان برزت الى الوجود أمم لم يكن لها شأن يذكر في العالمين : القديم والوسيط ، فاحتلت الواجهة الامامية في العلم والمال والجاه ، وصارت قوة فعالة في ميدان الحضارة ، وفي الشؤون الدولية . لها الامر والنهي ، وفي يدها الاخذ والعطاء ، وقد كان هذا في جملة مادفع بالامم الاخرى ، لاسيما تلك التي لها جذور تاريخية عريقة ، كالامة العربية ، الى التفكير الجدي في اسباب تخلفها في العصر الحاضر ، والعمل من اجل دفع تلك الاسباب للنهوض بحياتها ، وقادها هذا التفكير الى اعادة النظر في اسس حياتها الحاضرة : نظمها وتقاليدها ومناهج تعليمها ، وما الى ذلك مما يتصل بكيانها الحالي ، بصورة مباشرة وغير مباشرة ، وقد ظهر هذا الاندفاع الفكري في لونين مختلفين : عنف ، يبغي الاصلاح بطريق هدم القديم ، واحلال الجديد محله ، وتبصر يهدف الى تحقيق هذا الغرض نفسه بطريق الحفاظ على الصالح من القديم ، وتكييفه ليكون على وفاق مع الجديد والاول هو الثورة الحامية التي تنطلق بشدة ، والثاني هو التحرك الهادىء البطيء .

ومرد هذا الاختلاف الى ان الامم المتخلفة تتفاوت تفاوتا كليا في خصائصها العرقية المكتسبة ، وماضيها الحضاري ، ونضجها السياسي ، وانتشار التعليم بين ابنائها ، ومدى تأثير الرواسب القديمة فيها . هذا الى العوامل الخارجية المؤثرة في حياتها . فهذه الامور ، مجتمعة ، هي التي تدفع بالامم الى اختيار احد هذين السبيلين .

والذي يحدث ، في العادة الجارية ، ان الذين يصرون على القيم القديمة ، ايمانا منهم بانها خير وسيلة لضمان مصالحهم ، اذا تشددوا في مواقفهم وقاوموا حركة التطوير والتغيير ، واستخدموا العنف والقسر في الابقاء على الرواسب القديمة ، وافتعلوا الحيل والاباطيل لابقاء ماكان

على ماكان، فان ذلك يؤدي بطبيعته، الى الانفجار والثورة، أما اذا لانوا وفتحوا آذانهم لخصومهم، وآثروا الحوار والجدال، فانهم يستطيعون بذلك عزل العناصر اللامسؤولة من الثورة، وبهذا تأخذ الامور مجراها الطبيعي الهادئ».

لنترك العنف في مجالاته الوعرة الملتوية المحفوفة بالمخاطر والمشاكل والنجاح والاخفاق، ولنبحث في الوجه البادي، السليم الذي يقصد «التكيف» وفق متطلبات الحياة، وأول مايواجهنا في هذا الصدد ان دعاة التكيف، في بعض اقطار بلاد العرب، اندفعوا بتأثير سحر الماكنة، وقوة العلم المعاصر، وسلطانه على الطبيعة، الى الارتماء في احضان الجديد، والاخذ به، أخذا مطلقا، بدون تفريق او تفصيل، وحجتهم في ذلك ان الحضارة المعاصرة وحدة كاملة ملتحمة برهنت على تفوقها في مجالات الحياة كافة، وهي غير قابلة للتبعيض، ثم ان الفجوة الواسعة التي تفصل ما بيننا وبينها لا يمكن ان تملأ الا بهذا الاخذ الشامل السريع. وخطر هذا الرأي أن عملية «التكيف» لا تعدو أن تكون تغييرا في تركيب «القديم» وفي أداء وظيفته ليكون ملائما للظرف «الجديد» والاخذ الشامل السريع يخرج هذه العملية عن طبيعتها المزدوجة، فيقضي على القديم كلية، ويأتي بشيء جديد، مستورد، لا علاقة له بشخصية الامة، ورسالتها الحضارية التي كانت مصدر خير للبشرية جمعاء، من أجل هذا كله كان من الضروري أن يبدأ «التكيف» من الداخل، في نطاق جزئي يجمع بين القديم والجديد، وأن يأخذ طريق السير البطيء.

ويأتي بعد هذا تحديد الاطار الذي يتفاعل فيه القديم والجديد، سواء من حيث تركيبه، أو من حيث صياغته. أينظر اليه من الزاوية الضيقة التي نشأ فيها، وتبلور، اول مرة، حين واجه ظروفا خاصا، ذات تحديات معينة. تلك فرضت عليه استجابة خاصة، تمخضت عن صورة محددة، طبعت الحياة بطابع معين، او ينظر اليه نظرة أخرى، ومن زاوية تختلف عن تلك ؟.

لاشك أن أيّ تركيب او صياغة انما هو ثمرة تفاعل الانسان وبيئته، وهذه الثمرة لا تصلح، وهي في صورتها الاصلية، الا لتلك البيئة التي نشأت فيها، ولهذا كان من الضروري وضع القديم والجديد في اطار يحافظ على جوهرهما، مع ابعاد الخصائص المحلية المميزة لهما، والا تعذرت عملية التكيف. ولنذكر، على سبيل المثال، مسعى بعض المجددين من

الجيل الماضي اعتماد النظم القديمة ، على اختلاف منابعها ، اساسا لحل مشاكل العصر الحاضر ، والاخذ بالحلول التي نبعت من تلك النظم ، في حين أن تلك النظم ، والحلول التي تمخضت عنها انما تصلح لظروف تباعدت عنا كثيرا ، وقد آل الامر بها أن «تحجرت» وصار في وضع لا يلائم عصرنا الحاضر ، ونظير هذا ما يدعو اليه بعض المفكرين المعاصرين اليوم من الاخذ بالنظم الحديثة ، والحلول التي تمت في ضوئها ، اعتقادا منهم أنها ، في الصورة التي تبلورت فيها ، كفيلة بحل مشكلاتنا الآنية المستعصية ، يقال في هذا ما قيل في ذاك ، وهو أن الالتزام بقوانين خاصة واعتماد «الابجدية المحددة» يناقض طبيعة الحياة التي تقوم على التغيير والتطوير هذا الى «الرؤية الضيقة» تنافي «التطور» .

نعم يمكن اعتماد جوهر بعض القوانين القديمة والحديثة التي ظهرت في مجتمعات أخرى ، واتخاذها منطلقا لحل مشكلاتنا في العصر الحديث ، شريطة انتقاء الاصول العامة فيها ، كمبدأ «العدالة الاجتماعية» و «حق العمل» وغيرهما من الاصول المشتركة بين جميع الامم في جميع العصور ، وهناك أمران تجدر الاشارة اليهما في هذا الصدد ، وهما : المادة التي تغذى المجتمع في دور التكيف ، والقاعدة التي ينطلق منها . أما الاول فيكمن في التجربة والممارسة الفعلية ، ذلك أن فيها واقعية وقوة ، فالنظم الراقية ، واساليب المعيشة المتفوقة ، والمنجزات الكبرى التي تقوم عليها الحضارات ، ويكتب بها الخلود للامم انما هي ثمرة التجربة التي تندفع فيها الغريزة اندفاعا قويا ، ويطغى الطموح الشخصي طغيانا ظاهرا ، يدفع بالانسان الى ان يزج بنفسه في ميدان المنافسة ، فيخوض المعركة ، اذا اقتضى الحال ذلك ، ومن هنا نشأت الحاجة الى «التعقل» ليحد من هذا الاندفاع والطغيان والاستسلام الى الانانية «اللاواعية» التي تقود الناس الى الفوضى ، وتهيؤهم لتقبل أي بديل للنظام القائم ، مهما كان لونه ، ودور «الفكر» هنا واضح . ذلك أنه ، بالاضافة الى الحد من الغريزة ، يستطيع أن يسمو بالانسان الى مستوى أرقى من الغريزة ، والطموح الفردي ، الى حيث يشعر أنه جزء من عالم واسع ، واذ ذاك يندفع الى انجاز الاعمال التي تعود بالخير على «البشرية» كافة .

واما القاعدة التي ينطلق منها هذا التكيف ، أهي القلة المستنيرة ، ذات القدرة والكفاية ، أم هي الكثرة الغالبة ؟ والسبب في هذا التساؤل أن العلاقة بين طبقات المجتمع تعرضت ، منذ القرن الماضي ، الى تغيير جذري . فقد كانت المنجزات الكبرى في العصور الماضية تنطلق من

القلة المستنيرة ، وكانت القاعدة التي تستند اليها تلك المنجزات هي تلك القلة التي تسوق الطبقات الاخرى الى العمل وتدفعها اليه ، بوعي وبلاوعي . ومنذ القرن الماضي انتقل مركز الثقل الاجتماعي ، في كثير من الامور ، والى حدما ، من القلة الى الكثرة ، وصار رأي هذه الكثرة ذا شأن كبير فيالحركات والاعمال ، من أجل هذا كان لابد في عملية «التكيف» من ان يراعي جانب الكثرة ، وان يتعرف على نواياها ، وطموحها ويعتمد اسهامها الحقيقي في المشروعات الكبرى التي لها علاقة بالمجتمع وهذا هو السر في أن الضمان الاجتماعي و«العدل» و «الرفاه العام» صار في صلب المناهج والخطط التي يراد تنفيذها في كل أمة ، وصار مبدأ «تدخل الدولة» في كل صغيرة وكبيرة من الامور المألوفة ، ذلك ان الدولة ، بما لديها من قوة وامكانات ، تستطيع تنظيم جهود الافراد ، وتنسيقها ، وجعلها أداة استمرار بقاء هذا الهدف في وجه التحديات المستمرة . وبهذا يظهر ان «الفكر الجماعي ، ذو أهمية عظمى في هذا العصر ، عصر الاشاعة والشمول ، لا عصر الاحتكار والقلة .

ومن الضروري هنا الاستعانة بالتاريخ لتوضيح «دور الفكر» في «عملية التكيف» ذلك أن التاريخ ميدان التجربة الحقيقي ، والمحك الذي يكشف جوانب الضعف ، وجوانب القوة في كل نظرية . ثم انه اداة ثقافة ، ينمي المعرفة ، ويكثف حجم الادراك والوعي . هذا الى أنه يجعل الباحث في مأمن من الارتباك والتعثر ، ولولا هذه الامور لما كانت هناك فائدة من دراسته . وكان الاجدر حذف هذه المادة من مناهج التعليم .

فاذا أخذنا بهذا المبدأ نجد ان العرب تعرضوا ، خلال القرن السابع للميلاد ، ليقظة فكرية حادة ، كان من آثارها انتصار الاسلام الذي دفع بهم الى الانصراف عن القيم «القبلية» الضيقة ، والاستعاضة عنها بالقيم «الانسانية» الواسعة . وقد اصطدم هذا الفكر الواعي الجديد بالفكر المتحجر القديم ، ونشأت عنه حروب داخلية ، تبددت فيها طاقات كثيرة في المال والانفس . والذي أفاد منها هو انتصار الفكر الجديد ، واندحار القديم وقد كان هذا احد العوامل التي مكنت العرب من الاندفاع في تيار الهجرة ، والخروج من الجزيرة ، ومواجهة العالم المتحضر انذاك . ولما استقر العرب في الاقطار التي اندفعوا اليها ، ورأوا فيها لونا جديدا من الحياة لم يكن مألوفا لهم من قبل ، اخذوا به ، وكيفوا ، بدافع من الفكر الواعي ، أنفسهم لمتطلباته . وكانت اولى بوادر هذا التكيف انهم تركوا ادارة البلاد المفتوحة في يد ابنائها ممن توسموا فيهم الكفاية والمقدرة ،

لتسير الامور سيرها الطبيعي ، وصاروا ، وهم سادة ، يتقبلون كل تغيير يقوم به رعاياهم ، واذا ما ايقنوا ان ذلك في صالح الدولة والمجتمع ، وصالح الحضارة .

وقد شمل هذا التغيير كل شأن من شؤون الحياة ، سواء في ميدان السياسية أو المال او العلم ، وبهذا ضمنوا استمرار الحضارة على الوجه الذي تقضيه ظروف ذلك العصر ، وكان ذلك من أهم الاسباب في انعاش التراث القديم ، وانمائه ، ودفعه دفعا قويا ، وجعله مادة لحياة جديدة قوامها : العربية والدين والعلم والفنون الاخرى .

وحين تعرض المجتمع لظاهرة الانتكاس ، ووقفت عملية التكييف ، بتأثير الرواسب المتحجرة ، وبدأ الصراع بين القديم والجديد ، في صورة عنيفة ، اختلت فيها الموازنة ، مال الفكر الى الركود ، وصارت شؤون الحياة والدولة تخضع لمؤثرات ضيقة خاصة ، لاتمت الى الفكر والتعقل بصلة ، واذ ذاك وقف فعل الثقافة والعلم ، وحلت بالمجتمع العربي الكارثة ، تلك هي بعض ما يجب ان نتعلم من دروس التاريخ ، ولا يسعني وأنا في ختام هذا البحث ، الا ان أعيد ما قاله ارسطو ، قبل اكثر من ثلثمائة والفي عام : «وعلة بقاء طول عمر الانسان من قبل اعتدال مزاجه ، ومشاكلته الجزء المحيط به» .

طريقة تدريس الطب عند الرازي

الدكتور خالد ناجي أستاذ الجراحة السريرية بكلية الطب جامعة بغداد

كانت مناسبة سارة ان يبلغني صديقي الفاضل الدكتور حسين أمين الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب ( ) دعوتي لحضور ندوة جامعة عين شمس التي ستقام احياءا لذكرى الحكيم ابو بكر محمد بن زكريا الرازي (2) مما يتوجب علي ان أقدم كلمة في هذا المقام .

واذ اجد نفسي وسط موضوع يخص كبار حملة الاقلام واساتذة الادب ولست املك من هذه الصفة غير كوني استاذ الجراحة السريرية في كلية طب ببغداد ونصيبي من الحياة العناية بالنواحي العلمية الحديثة لهذا العلم في حضارة العصر المزدهرة بدلا من عنايتي بنشأة تلك الحضارة وتاريخها والكتابة عنها مستقلا . تجارب من سبقني في هذا المجال الواسع . وكيف بي وقد سلخت ثلث قرن من عمري ورفيقي المفضل المبضع لا القلم .

انني ضد تمجيد التراث بدافع الاعجاب لان ذلك يؤدي الى الشعور ازاءه بالضعف والعجز .. ولكني مع الذين يبتغون دراسته للاطلاع عليه وفهمه بالطرق العلمية مبتعدين جهد الامكان عن طريق المعرفة القديمة واساليبها لان غايتنا الابداع والتجديد لا النقل والتقليد .

العلم غال جدا ولا يثمن رغم ان العالم المحترف الماهر قد ينال قسطا كبيرا من العطاء الخارجي الزائل كالمال والمنصب . ولا اراني مغاليا عندما أقول – مع «الاسف» ان اغلب العلماء عندما يشتغلون كمحترفين يصبحون علماء خبثاء .

اما العالم الذي يعمل لفنه وللعلم فان سعادته ابقى واكثر رسوخا .

---

(1) كتاب اتحاد المؤرخين العرب رقم 400 بتاريخ 29–6–1976

(2) كتاب . عبد الحافظ حلمي مقرر اللجنة كلية العلوم جامعة عين شمس

ان الجنس البشري لا يستطيع ان يتقدم او حتى ان يقف على قدميه في هذا الوجود من دون العلم وهو متأكد من ضعفه ويعرف ما يحيط به من شرة الجهل الذي يسير مختالا نحو هاوية الحروب المدمرة باسم العلم . (3)

لقد اخترت طريقة تدريس الرازي للتركيز على النقاط التالية :

1 ـ اصالة طريقة تدريسه للطب رغم انها حصيلة التأثر مع التراث القديم لاسيما التراث اليوناني والهندي وحتى الفارسي (4) تلك الطريقة التي ارساها الرازي على اسس فكرية ومنطقية كانت وما تزال تشكل الحجر الاساسي للطب السريري . (5)

التواضع الذي كان يبديه في مناقشته للاعراض المرضية لزملائه ولطلابه مما يعطي فكرة عدم الاستبداد في الطب والسير قدما في سبيل تقدم العلم لا لمنفعته الشخصية (6) .

3 ـ الحنان والعطف الذي يمنحه لمرضاه ومساعدتهم من ماله الخاص اضافة الى ما يقدم لهم من جهد ومعرفة (7) .

4 ـ نزعته العلمية التي لا تنفصل عن شخصيته الطبية اذ لم يكن الرازي طبيبا فحسب بل كان عالما (8) .

نبذة عن الطب في العراق في عهد الرازي :

نقل الطب اليوناني الى العراق النساطرة اتباع نسطورس الذي كان بطريركا للقسطنطينية عام 428 م اي في زمن اختلاف المذاهب بين الطوائف المسيحية (9) وكانت الممارسات الطبية عند العرب في الجاهلية لاتتجاوز ثلاثة اشياء الادعية ،، العسل ،، والكي (10) .. وعند

---

(3) ان ـ ارجيفون العلم مراقب بالانجليزية

(4) ابن ابي اصيبعة 473 .

(5) كامبل الطب العربي ج 1 ص 65 الانجليزية .

(6) العربي العدد 86 د . احمد زكي .

(7) ابن اصيبعة ج 1 ص 11 3 .

(8) الموسوعة البريطانية ج 9 ص 19 بالانجليزية .

(9)هاشم الوتري تاريخ الطب في العراق ص 12 .

(10) ا ، براون الطب العربي ترجمة د . داود سلمان علي .

ظهور الاسلام اهتم النبي محمد بالصحة اهتماما بالغا . وكان من المعاصرين للنبي الكريم الحارث بن كلدة (11) ـ وهو من تلامذة جند يسابور وتدل سلسلة ابن ابي اصبيعة على ان الاطباء العرب ظهروا باستمرار حتى بزوغ الطب العلمي زمن العباسيين (12) حيث دخل الطب العربي مرحلة جديدة من التقدم في عهد الخليفة العباسي ابي جعفر المنصور فقد اخذ بيد اطباء جند يسابور ورعاهم رعاية مكنتهم من ادخال الترجمة اليونانية الامر الذي جعل من بغداد قبلة انظار اساتذة الطب من جند يسابور وغيرها . وكان أول هؤلاء الطبيب جورجيس رئيس اطباء جند يسابور الذي استقدمه المنصور لمعالجته (13) حيث انزله منزلة كبيرة واكرمه وامر بأن يجاب الى كل ما يطلب وبفضل ذلك استطاع جورجيس ان يشكل مع الوافدين من الاطباء الى بغداد نواة علم الطب العربي . حيث انتقل مركز العلم من جند يسابور الى بغداد . وعندما تولى الهادي الحكم جلب جورجيس ابنه جبرائيل بن بختيشوع (14) ووصل هذا الى هارون الرشيد وجعله رئيس اطباء بغداد .

وبقي في خدمته وخدمة زوجته السيدة زبيدة والمتربين من الحاشية حتى بلغ ما جمع من مال قرابة ثمنمائة وثمانين الف درهم اي ما يعادل ثلاثة ملايين ونصف مليون باون في زمنه (15) وحظي بمنزلة رفيعة في نفس الخليفة هارون الرشيد الى درجة انه قال :

«من كانت له الي حاجة فليخاطبني بها جبريل بن بختيشوع لاني افعل كل ما يسألني ويطلب مني (16) مما ادى الى تنافس بعض الاطباء على الامتيازات والتقرب من رجال الحكم . واستأثرت اسرة بختيشوع بخيرات الخلفاء (17) وكان منهم يوحنا بن ماسوية الذي ترعرع في كنف الرشيد

---

(11) هاشم الوترى تاريخ الطب في العراق .

(12) القفطي تاريخ الحكماء 158 .

(13) هاشم الوترى تاريخ الطب في العراق 16

(14) ابن ابي اصبيعة الى 133 .

(15) تاريخ الطب في العراق ، هاشم الوتري ص 17 .

16) براون الطب العربي ترجمة د ، داود سلمان علي

17) القفطي ، تاريخ الحكماء 158

ونبغ في الترجمة حيث ولاه الخليفة امانة الترجمه (18) وامتدت خدماته الى خلافة الامين والمأمون حتى زمن المتوكل وكانت الامتيازات التي حصل عليها سببا في اماد ذمته فأخذ يتدخل في الامور السياسية التي حد أنه تواطأ مع المعتصم (19) على الفتك بالمأمون نفسه وقد تمكن من تحقيق ذلك عندما اصيب المامون في رقبته وهو في طرسوس فقد أمر يوحنا احد تلامذته بأن يفتح الخراج في رقبة المامون قبل نضوجها ورغم تمنع التلميذ قال له

«امض وافتحها كما اقول ولا تراجعني» وهكذا ادت العملية بهذا الشكل الى وفاة المأمون (20) أن المال والحظوة مسخا ابن ماسويه وجعلا منه انسانا عديم المروءة والدين فقد خان الامانة (21) ولم يدانه بذلك عاقل او يركن اليه حازم .

حتى ان الناس اخذت تقول ان هؤلاء القوم من جند يسابور اخذوا يعتقدون انهم وحدهم أهل لهذا العلم ويعملون على ان لايتسرب الى غير ابنائهم وذويهم وقد تعصبوا كثيرا لابناء جنسهم (22) حتى انه عندما قدم حنين بن اسحق من الحيرة لدراسة الطب ببغداد (وهو معاصر للرازي) سعى يوحنا الى مضايقته واغلاق ابواب التحصيل بوجهه . وحدث ان سأل حنين يوحنا عن بعض ما يقرأ وكان حنين شديد الانتباه كثير المطالعة فشعر يوحنا ببعض الاحراج فأمر باخراجه ومنعه من حضور مجلسه وهو يقول: «ما لاهل الحيرة من دراية بأمور الطب وصناعته» فخرج حنين مكروبا ورحل بعدها الى بلاد الروم لطلب العلم (23) ولما عاد وله المام كبير في الطب ابعد الى البصرة حيث اشتهر هناك .

ان صيرورة الطب نوع من التجارة وخضوعه للاهواء السياسية قد أثار بلبلة واسعة في هذا الوسط حيث تصدى للمعالجة والتحصيل والترجمة اشخاص ليسوا مؤهلين وهم اقرب الى الاحتراف منهم الى العلم ولم تكن للطب قواعد معينة تحكم تحصيله وممارسته ولم يكن هناك امتحان للاطباء يجيز لهم ممارسة المهنة حتى زمن الخليفة المقتدر (24)

---

18) هاشم الوتري . تاريخ الطب في العراق

19) عيون الانباء ـ ابن ابي اصيبعه ج ا ص 182

20) تاريخ الحكماء للقفطي (182) ج 1

21) تاريخ الحكماء للقفطي 158

22) تاريخ الحكماء للقفطي ص 191 ج 1

23) الطب العربي ـ براون ـ ترجمة د . داود سليمان علي

24) اليعقوبي ص 46

استميح القارئ الكريم عذرا لانني كحال الذي يدخل ابواب التاريخ يجد نفسه منجرا الى ذكر حوادث واخبار قد تكون بعيدة عن صلب الموضوع، فابتعدت عن تناول طرق تدريس الطب عند الرازي لاطلع حضراتكم على الحالة التي كانت سائدة انذاك .

«نبذة عن حياة الرازي وتحصيله»

ولد ابوبكر محمد بن زكريا بن يحيى (25) الرازي (26) في مدينة الري سنة 865 م اي بعد قرن من ولادة الرشيد فيها في عهد الدولة العباسية الثاني وقد مات فيها عام 933 م (27) . اشتغل اول ايامه بالصيرفية حتى ان اول كتبه كان يحمل اسم محمد بن زكريا الصيرفي بخط يده ( ) وقد درس الفلسفة على يد ابن زيد البلخي (28) واهتم بالفلسفة الافلاطونية وقراءة كتبها كما درس نظرية ديمقراطس الذرية وايدها حيث خالف رأي ارسطو طاليس فيها (30) ثم اشتغل في صناعة الكيمياء (31) حتى رمدت عيناه من ابخرتها فاستهوته صناعة الطب عند مباشرته بمعالجة رمده ( )

(ابو الحسن علي بن سهيل بن ربن الطبري)

وفي ذلك الوقت كان في الري ابو الحسن علي بن سهيل بن ربن الطبري من أسرة العلماء بمدينة (مرو) حيث اشتهر بتدريسه الفلسفة والطب وبالاستقامة وعزوفه عن جمع المال فيعينه المازيار امينا للخزانة في طبرستان في بلاد فارس ولما خرج المازيار على المعتصم هرب الطبري الى مدينة الري حيث عكف بداره على تأليف كتابه (الجامع في الطب)

---

25) كتاب الاسرار وسر الاسرار ، تحقيق محمد تقي الدين دانشي بردة ـ طهران ـ 64 لابي بكر الرازي

26) الرازي نسبة الى الري حيث كانت تدعى راز نسبة للملك راز الذي شيدها مع أخيه

27) الموسوعة البريطانية 9 ص 1019

28) عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ج 1 ص 420

29) ابن النديم الفهرست ص 299

30) ابن ابي اصيبعة)412) عيون الانباء

31) ابن ابي اصيبعة (42) عيون الانباء

32) تاريخ الحكماء للقفطي

ليكون مرجعا لمن يتخذ الطب مهنة له غير ان ظروفه لم تسعفه لاتمام كتابه هذا خاصة بعد ان استدعاه الخليفة المتوكل ودخل بغداد حيث اسلم ، فانخرط في خدمة الخليفة وفي هذه الفترة انجز كتابه الفريد (فردوس الحكمة) ، وكان يعرف اليونانيه والسريانية (33) .

وفي المدة التي كان فيها الطبري لاجئا في الري كان الرازي مبتدءا في دراسة الطب ولتقارب الصفات الشخصية وحب العلم ازدادت الالفة بين الاستاذ وتلميذه لاسيما وان الرازي كان ملما بعلوم الفلسفة والفيزياء والكيمياء والادب اضافة الى مواهبه الفنية الاخرى كالشعر والموسيقى والغناء (34) فاستحسن الطبري في تلميذه هذه المواهب وخاصة الموسيقى التي كان يعشقها (35) ولسهولة تدريس الرازي اصبحت بينهما رابطة قوية مكنت الرازي من الاستفادة من علوم استاذه الغزيرة (36) والوقوف على منابع العلم دون الرجوع الى التراجم والوقوع باخطائها وربماكانت لهذه الالفة الفضل في تأليف كتابه (الحاوي) اسوة باستاذه الطبري في اخراج كتابه (فردوس الحكمة) . وقد اخذ منه ان الفضيلة تربي وتزرع وكان الرازي لا يؤمن بوجود الفضيلة غريزيا تمسكا بآراء افلاطون (37) ولكنه يعلم انها تمرس وتنمو كالعلم ينمو مع الزمن .

مكث الرازي في الري بعد مغادرة استاذه لها واستمر في جمع مشاهداته الخاصة في المستشفيات والدراسة على طريقة التثقيف الذاتي (38) ثم رحل الى بغداد ودرس على يد بن ماسوية (39) وكان حينذاك وصل الى مرحلة متقدمة من الثقافة الطبية (40) وكان يقضي كل اوقاته في المستشفيات لتسجيل ملاحظاته ومشاهداته عن المرضى اذ لم يكن يكفي روحه العلمية بناء طبه على تشريح بسيط وفلسفة عقيمة وباثولوجيا

33) عيون الانباء لابن ابي اصبيعة ج 1 ص 314

34) عيون الانباء ، لابن ابي اصبيعة ج 1 ص 314

35) تاريخ الحكماء للقفطي وعيون الانباء لابن ابي اصبيعة ج 1 ص 414

36) الدين والدولة تحقيق عادل نهيض ص (2) وص (253) محمد علي كشرد و (9) الدكتور سامي حداد ومنه

37) الموسوعة البريطانية ج 3 ص 644 بالانجليزية

38) وفيات الاعيان لابن خلكاني 175

39) تعليق مصطفى جواد على كتاب الحوادث الجامعة لابن الفوطي البغدادي ص 1

40) الموسوعة البريطانية ج 3 ص 644 بالانجليزية

خيالية (41) لانه يرى ان العلم الناقص هو اخطر من الجهل الكامل فكان يقرأ بكثرة ويعلق على الكتاب ويضيف اليه مشاهداته (42) وكان الرازي عفيف النفس محبا للفقراء الذين لقوا منه العناية الكثيرة حتى انه يمكن القول ان رجال السلطة لم يستفيدوا من طبه قدر استفادة الشعب منه وهذه تتمثل في بعض الكتب التي الفها للشعب ككتابه (من لايحضره الطبيب) الذي عرض فيه العلاجات التي يمكن للفرد ان يجريها بنفسه في حالة غياب الطبيب وللرازي كتاب آخر في نفس الغرض سماه (برء للساعة) يحتوي على علاجات سريعة يمكن استخدامها في بعض الحالات (وان كنت أسك في بعض الفقرات التي احتواها هذا الكتاب لما فيها من مجازفات ومبالغات لاتتناسب مع منهجه العلمي وقد تكون مقحمة على الكتاب) .

وهكذا خلق وعيا صحيا بين عامة الناس وعندما اشتهر الرازي استدعاه الخليفة المعتضد بالله ليتولى الاشراف على المستشفيات في بغداد حتى صار كبير اطباء المدينة للمدة 908 ـ 912 (43) عاد بعدها الى مدينة الري حيث تطبب عليه صغار الملوك السامانيين (44) الذين اشتهروا بالعدل ورعايتهم للعلوم .

وقبل وفاته بعامين اصيب بالعمى ولم يمنعه من مزاولة هوايته اذ سخر من يقرأ له ويكتب مايملي عليه (45) .
ولدينا مايشير الى ان الرازي عرف اللغتين السريانية واليونانية (46)

انتهت حياة الرازي بعد عمر تجاوز الثمانين (47) عاما ترك خلالها

---

41) براون ـ الطب العربي ـ ترجمة د . داود سلمان علي
42) عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ص 419
43) كتاب الاعلام ـ خير الدين الزركلي
44) الموسوعة البريطانية ج 9 ص 1019 بالانجليزية ، وابن ابي اصيبعة ص 419

45) وفيات الاعيان لابن خلكان ج 4 ص 246

46) ابن ابي اصيبعة 419
«كما جاء في كتابه الحاوي ان المنطق باللغة اليونانية ان ننطق الجيم غينا وكافا اذ يقال في جالينوس ـ غالينوس وكالينوس وقد تجعل الالف واللام لاما مشددة ـ فيكون ذلك اصلح في اليونانية .
47) ابن ابي اصيبعة عن ابن جلجل 420

246 كتابا ومقالة صنفت تصنيفا علميا (48) وتداول الاطباء تعاليمه وكتبه لفترات طويله (49) من الزمن فقد درس بن سينا علوم التشريح على طريقته وكذلك الزعراوي في كتابه التصريف (5o) .

بدأت ترجمة كتب الرازي الى اللاتينية عام 1228 من قبل David Jew واخذت تدرس في كافة جامعات اوربا وتعتبر كمرجع للتشريح (52) وكان النصيب الاوفر لكتابه المنصوري خلال القرن السابع عشر حيث طبع عدة مرات في كل من ميلانو - وفينيسيا وباسل وليون وبادوا (51) وقد استمرت جامعات اوربا تعتمد على طريقة الرازي السريرية في التدريس بمستشفياتها (53) .

اشهر كتبه الطبية هو الحاوي الذي يقع في عشرين مجلدا ويعود الفضل في اخراجه الى حيز الوجود الى ابن العميد (54) الذي سعى للوقوف على مخلفات الرازي بعد وفاته فطلب الى شقيقه ابى بكر عرض ماليديه من مسودات ومخطوطات وقد بذل لها مالا كثيرا في سبيل كسر تمنعها وعندما تم له ذلك جمع تلامذة الرازي الذين كانوا يلازمونه بالري وعملوا جميعا على ترتيب الكتاب بشكل لم يخل من الاضطراب (55) وتمت ترجمته الى لغات عديدة وقد قدم لنا كرين هل طبعة ممتازة عام 1848 من هذا الكتاب الذي جمع فيه مايستطيع الطب وصفه في عصره فكان اميبا

---

48) ابو بكر الرازي : د . فائق فرات

49) د . امين خير السليه ص 107

5o) كاميل - الطب العربي ج 1 ص 81 بالانجليزية

51) كاميل - الطب العربي ج 2 ص 5 بالانجليزية

52) كاميل - الطب العربي ج 1 ص 175

53) مجلة الاخبار الطبية امريكية ج 22 عدد (5) مارس 76 ص (104)

54) د . امين خير السليه ص 107

55) ابن ابي اصبيعة ص 413

على تدوين المعلومات ومصادرها واسماء الاطباء ( ) الذين نقل عنهم رغم علمه بوجود اشياء لااظن انه يعتقد بصحتها وقد تكون من المحرمات ولكنه ربما ذكرها مع مصادرها حفظا للامانة ( ) .

طريقة تدريسه :

تأتي طريقة تدريسه للطب من أقواله التي جاء فيها : «من لم يعن بالامور الطبيعية والعلوم الفلسفية المنطقية يكون مشكوكا في علمه لاسيما صناعة الطب» هذا بالاضافة الى ايمانه المطلق ان المجتمع بما فيه علم الطب كائن حي(58) في نمو مستمر وأن الانسان في قرارة نفسه

---

56) هذه بعض اسماء الاطباء الذين ذكروا في الحاوي :

ببوطراط ـ ارسطوطاليس ـ ابن ماسوية ـ روفس ـ جساليتوس اركاغانيس ـ هوادس ـ اراس طراطس ـ ابوجريج ـ كناش ـ اشليمن قليقوريون ـ قسطا ـ دنقوريدس ـ ابن سرافيون ـ تذكرة عبدوس أينما الطبري ـ مسيح ـ ارجيمانوس اليهودي ـ أهرن الدوار ـ بولس الاسكندر ـ شمعون ـ الخوز ـ ومجهول ـ يوقلس ـ الرضي انفسهم الافروديس ـ ابيلوس ـ أغلوق ـ اسحق بيد القوى ـ ارجيجاني طيماوس ـ جورجيس ـ بختيشوع ـ اريبلوس ـ ثيماذون ـ اركاغانيس قلطيطريون ـ بوكالس ـ فاطوطس ـ قرانيطس ـ قادس البيرعس .

57) وصف الغرغرة لمريض (الغائط المعسل)

بول الانسان المعتق لمنع سيلان القيح من الاذن (ج 513) الحاوي بعض قشور الرمان المنحوتة بالبول لاخراج الدودة من الاذن

لعاب الصائم يقطر في الاذن ـ استعمال دماء الحيوانات ـ استعمال الخمرة الصرف للصداع حاوي ج 3 ص 237

للخناق الكائن من رطوبة شديدة : يطلى داخل الحلق بخرة كلب ومرارة ثور او بغائط انسان مر العسف .

استعمال رائب البقر في الفواق ج 1 ـ 271 الحاوي

58) عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ص 420 .

مرآة ماضيه يضاف اليه ذلك النزر اليسير الذي يذهبه قرنا بعد قرن . هكذا يدعو الى الاستمرار بالتعليم لا يهمه ماذا يتعلم طالما يتعلمه باتقان (59) واضعا نصب عينه الطريق قبل الغاية (60) مستغلا جميع علومه للتعليلات الفكرية والمنطقية للاعراض المرضية التي يطلع عليها خلال مشاهداته الطبية (61) .

كان عامل الوقت في مهنة الطب عنده مهما جدا ، اذ يقول : ان الاطباء يحرزون مهارة عظيمة اذا قرنوا منذ الحداثة بدرس الطب ومعالجة عدد وافر من شمر الحوادث المرضيه واختبروا في اشخاصهم كل انواع المرض (62) فاختيار الطالب منذ حداثة السن يفسح المجال أمامه لمشاهدة الوقعات وتعويده على المثابرة في المستشفيات وقد حرص على ان يغرس الفضيلة في نفوس طلابه ليدفعهم بذلك الى التعلم والتعليم بعيدا عن الانانية . وكان يشجعهم على هواية كالموسيقى والغناء لقتل النزعات (63) التي تعانيها النفس والتمسك بالصبر والاخلاق الفاضلة .

اما تدريسه فيأتي على نوعين :

التدريس النظري : يتم هذا باسلوب نقاش علمي يجمع الطلبة على ثلاث حلقات (64) اقربهم اليه انضجهم علما وخبرة ويليه الصف الثاني ممن هم أقل خبرة ثم الصف الاخير الذي يضم المستجدين فيقرأ عليهم ويفسر لهم ويناقشهم ويصغى الى حوارهم مجيبا على اسئلتهم وكلما تقدم نباهة باحدهم تدمه الى حلقة أقرب اليه . (65) وكان يهدف في الوقت ذاته الى تعويدهم الاعتماد على النفس وذلك يترك الصف المتقدم يقرأ ويشرح للصفوف الاخرى من كتب الاستاذ وغيره وبهذه يجعلهم يفهمون الموضوع فهما وافيا .

وانا ارجح ان الطالب كان يبقى يتعلم معه على هذه الحالة مدة ثلاث سنوات اي انه يمضي سنة في كل حلقة .

---

59) الموسوعة البريطانية ج 9 ص 1019 وحاوى ج 3 ص 230 .
60) كاميل الطب العربي ج 1 ص 5 .
61) الحاوى ج 1 ص 164
62) نظرية لوك .
63) 166 عيون الانباء لابن ابي اصيبعة ج 1 ص 214 .
64) الاعلام خير الله الزروكلي .
65) الحاوى ج 10 ص 154 .

وكانت الدروس النظرية تشمل :

- علم التشريح : وهو يوليه اهمية كبيرة حيث يقول : لا تستطيع أن تفهم أفة عضو ما لم تعرف طبقاته (66) ورغم ما يعترض هذا الدرس من عقبات دينية تحرم (67) تشريح الجثة في ذلك العهد فقد حاول ابن ماسويه تشريح جثة ولده الذي اصيب بالبلادة منذ حداثته ليقف على اسبابها مثلما كان يفعل جالينوس في تشريح من تستوجب حالته المرضية لكنه كان يخشى بطش الخليفة (68) بمخالفته لاحكام الدين . لذا اعتمد الرازي على التشريح المحدود لجالينوس واضاف اليه من خبرته في تشريح الحيوانات (69) ومشاهداته في حياته العملية ومما وثق الصلة بين الطب والتشريح عنده يجسد ذلك قوله (اذا حدثت افة في حس اللسان وذوقه فهو من الزوج الثالث من ازواج العصب واذا كانت الافة في حركته ففي السابع) (70) .

وقوله عن الثرب :

«اما الحجاب الباطن الذي هو الثرب فلا يمكن ان ينصب تحته الماء دون ان يحدث فيه ضربا من التآكل وذلك لان الغشاء منفصل في جميع نواحيه لا جوف فيه ولا ثقب ولا يمكن ان يدخل فيه شيء من عضو من الاعضاء سوى المعدة والقولون والطحال (71) وهل هناك حاليا ابدع من هذا التحرى والوصف . وله في هذا الموضوع كتب متعددة (72) اضافة الى كتبه المطولة كالمنصوري والحاوي التي يتكلم فيها عن تشريح كل عضو عند بحثه ذلك العضو .

الفزيولوجي او خصائص الاعضاء : وقد اهتم الرازي بها وطورها فمثلا عندما يتكلم عن العصب يقول : «ينبغي ان تكون عالما بالعصب الذي يأتي الى كل واحد من الاعضاء منها عصب الحس ومنها عصب الحركة فالعصب

---

66) كامـيـل ج 10 ص 154 .

67) تاريخ الحكماء القفطي 158 .

68) تاريخ الطب في العراق هاشم الوتري ص 23 .

69) الحاوي ج 3 ص 215 .

70) الحاوي ج 10

71) طبقات المفاصل والاوتار والعضلات .

72) الحاوي الكبير ج 7 ص 176 .

الذي ينبت في الجلد يحس والذي يكون منه الوتر يحرك ، ويعمل العصب يبطل اما ببترة في العرض او مرضه او شده او لورم يحدث فيه او لبرد شديد يصيبه الا ان الورم والمدة والبرد قد يمكن ان يرتقي [illegible] اذا ارتفعت علته وان حدث وتقطع العصب عرضا [illegible] الاعضاء التي في تلك الناحية وان شق العصب بالطول لم يذل الاعضاء التي في تلك الناحية ضرر البتة فاقصد ابداء عند بطلان حس عضو او حركته الى اصل العصب الجائي اليها فاذا كان قد برد فاسخنه بالاضمدة وان كان قد ورم فاعمل عليه المحللة وان كان قد قطع فلا حيلة له ( ) .

طبقات الاذن .
طبقات الخصية .
طبقات العين .
طبقات الكبد .
طبقات القلب .
الحاوى الكبير 10 ص 3 .
من تلك الكتب .

منافع ومضار الحمام — حاسة اللمس
منافع الاعضاء . الى الفواكه الافضل اولا واخيرا في المعالجة
قوانين النظر .
العطش . — النوم
رد كتاب جالينوس النبض . — الذوق
العادة .
الجماع كثرته والاعمار .
تبعات الجماع .
— الحدس
التغذية .
الحليب .
النظر .
لماذا تتقلص الحدقة في الضوء وتنبسط في الظلام .
منافع الاجفان .
تفضيل العين على الاعضاء الاخرى .
منافع الغذاء والوقاية من مضاره .
الرياضة .

وله مباحثات عديدة في هذا الموضوع لكل عضو بصورة خاصة والجسم بصورة عامة (74) .

الباثولوجيا : رغم انه اسماها خيالية (75) اذا ماقسمناها بنظريات ابيقراط وجالينوس ولكنه تمكن من صبها في قالب فكري ومنطقي بعد التتبع والاستقصاء من مشاهداته حتى غدت له الاساس في الطب فهو يوجب معرفتها قبل البدء بالمعالجة لانه يدعو الى تفسير الاعراض المرضية بالتغييرات العضوية والوقوف على اسبابها ، مثلا تعليلة

لليرقان : «اليرقان هو احمرار البول وعدم ذهاب الصفراء التي الامعاء ولكنها تبقى في الدم وتفرز عن طريق البول» .

كان الرازي شديد الملاحظة لا تفوته ظاهرة دون أن يقرنها بخبرته سواء في الحيوان او الانسان (76) فهو يقول مثلا في ملاحظاته في النفاخات المائية :

«انه قد يحدث نفاخات ماء في ظاهر الكبد اكثر من حدوثه في سائر الاعضاء» .

ويستطرد فيقول : «نرى في كثير مما نذبح من الحيوانات نفاخات في اعلى الكبد مملوءة من ذلك الماء فان اتفق في بعض الاوقات ان تتفجر هذه النفاخات فان ذلك الماء ينصب فيسير في الفضاء الذي في جوف الغشاء الممتد على البطن في الموضع الذي يجمع فيه المستسقين الماء» . وفي البحث نفسه يقول :

«من انخرقت كبده ادى الى وجع مع حكة مستديمة في فمه ومؤخرة رأسه وابهامي رجليه وظهر في قفاه بثر شبيه بالباقلاء ومات في اليوم الخامس من طلوع الشمس ، ومن اعراض هذا الوجع اعتراء المريض حالة من عسر البول والتقطير» وهو خير وصف لانفجار الاكياس الهايداتيكية وتوقف عمل الكلي (77) .

---

74) لماذا السمك الطري يؤدي العطش .

75) براون الطب العربي ترجمة د . داود سلمان علي .

76) الحاوي الكبير ج 7 ص 147 .

77) د . فائق فرات ـ الرازي .

وفي رسالة عنوانها : لماذا الثلج يحرق ويقرح (78) درس للتاثيرات الفيزياوية على حياة الانسجة وتقلص الشرايين .

وفي دراسته للامراض وقف على ما هي ورائها (79) وما تحدث منها من : خارج الجسم والتي مصدرها معدى حيث كان يحوم حول اسبابها وربما كان يفكر في شيء اشبه بالبكتريا التي نعرفها ونصنفها اليوم موعزا بان الاعراض ظاهرة لمرض مسبب خفي .

فحين يصف الحصبة والجدري يقول : انهما فوران الدم اشبيه بفوران الخمر عند تخمره (80) .
وفي كتابه الامراض التي تحدث في الخريف وتشفى وتزول في الربيع (81) يتحدث الرازي عن الرطوبة والجفاف كسبب للامراض وعلاجها . وله كتاب في صفات المستشفيات وطريقة اختيار مواقعها في المدينه وضرورة بعدها عن المناطق الرطبة التي تسبب الكثير من الامراض (82) وتساعد عليها .

وله رسالة في الفرق بين الماء بالثلج والماء المغلي اولا ثم المبرد على الثلج (83) يعطي فيها الدليل المقنع على طريقة التعقيم للماء .
وكذلك عندما يتكلم عن الاوبئة وصحه المسافر (84) يمثل كيفية انتشار مثل هذه الامراض . وهكذا نجد الرازي خلال مناقشته للطلاب ورده على اسئلتهم يتعمق للوصول الى الاسباب المرضية التي تصيب كل عضو من الاعضاء . وبهذه يجعل من اسئلة الطالب خير معين ومدرس للاستاذ نفسه .

اما الكيمياء والعقاقير : فقد اهتم الرازي اهتماما كبيرا بهما في تدريس الطب حيث يقول : من لم يكن له المام واسع بالكيمياء لا يستطيع ان يكون فيلسوفا (85) ورغم انه اول من استعمل المادة الكيمياويـــة

---

78) قصص وحكايات ـ الدكتور محمود نجم ابادي .
79) الاقلام العدد الاول سنة 65 فيصل دبدوب .
80) د . امين خير الله ص 107
81) د . فائق فرات .
82) د . امين خير الله 197 ص .
83) د . فائق فرات 130 ص .
84) عيون الانباء لابن ابي اصبيعة .
85) الطب العربي كامبل ج 1 ص 66 .

للمعالجة عند كان يعرف خطورة تلك العقاقير على الجسم على مستقبل المريض الصحي حتى بعد الشفاء . لذلك نجده يقول «متى قدرت ان تعالج بالاغذية فلا تعالج بالادوية (86) ويقول ايضا العمر يقصر عن الوقوف على فعل كل نبات في الارض فعليك بالاشهر ممن اجمع عليه ودع الشاذ واقتصر على ما جربت وذلك الاستكثار من قراءة كتب الحكماء والاشراف على اسرارهم (87) متداركا الاخطاء ومستفيدا من خبرة الاخرين ومن هنا يبدو انه كان يريد ايقاف اندفاع الطلاب التجريبي وعدم استخدام الانسان كحقل تجارب .

ونراه افرد في كتابه الحاوي فصلا لذكر انواع النباتات والاغذية التي يمكن استعمالها في علاج مرض معين مع رأي كل عالم في ذلك النبات مشفوعا بتوصيته الشخصية كان يقول «لي» ماء البحر نافع للاستسقاء (88) بعد ان ذكر انواعا من الادوية لعدد من الاطباء وهو دائما يرشد طلابه باستعمال دواء واحد معين هو اصلح للمرض اذا استطاع الطبيب تشخيص ذلك المرض لذا نراه يقول :

«مهما قدرت ان تعالج بدواء مفرد فلا تعالج بدواء مركب» (89) .

وعند عدم معرفة التشخيص يقول «اذا كانت الدلائل مختلفة فاجعل الدواء كثير التركيب مختلطا فان امثال هؤلاء ينتفعون بهذه الادوية وانتقل في مثل هذه العلة من دواء الى دواء ما لم ترد الاول ينجح فانه أخرى ان يوافق النافع ومن علاج الى علاج مخالف او مضاد ولابد من علاج علاج واحد لاسيما اذا لم ير العليل في ذلك منفعة منه فانه كثيرا ما ينفع الدواء عضو واحد ولاينفع عضوا اخر به تلك العلة بعينها واعجب من ذلك انه ربما نفع الدواء العضو الواحد مرات كثيرة ثم يضر قليل ويلهب به وربما جارا (90) من هذا الوصف تبين كيفية انتخاب الادوية او الداء المفصل والتشخيص بالمعالجة وملاحظة تأثير الادوية على قسم من الاعضاء دون الاخرى والادمان وحساسية الجسم لتلك الادوية .

---

86) وفيات الاعيان لابن خلكان 158 .

87) ابن ابي اصيبعة 159 .

88) حاوي الكبيرج 7

89) وفيات الاعيان لابن خلكان

90) الحاوي الكبيرج 11 ص 136

ولم يغفل الرازي الاستفادة من التجارب على الحيوانات (90) قبل تجربتها على البشر للوقوف على مضار تجاربه وتأثير جسم الانسان بالادوية الكيماوية ومدى تحمله لها فكان اول من اجرى تجربة استعمال (السليماني) الزئبق على القرود فوصف طريقة التسمم به بأحلى وصف للموت (91) وهكذا توصل الى استعمال الزئبق على شكل مراهم في معالجة كثير من الامراض الجلدية وغيرها .

أما الدروس العلمية فكانت مثل جلساته النظرية تقم على شكل حلقات من طلابه حول سرير المرض في المستشفيات شارحا لهم الحالات النادرة واحدة بعد اخرى (92) وهو في ذات الوقت يعلمهم طريقة التثقيف الذاتي والاعتماد على النفس حتى بالنسبة للطلاب الجدد الذين كان يكلفهم بفحص الحالات البسيطة ويدعوهم الى وصف العلاج اللازم (93) وعرضه على من هو أقدم منهم من زملائهم وفي حالة الخلاف حول تحديد المرض يراجع الاستاذ لتحديد الحالة امامهم فبهذه الطريقة يمهد الرازي لطلابه التعمق والاستقصاء واللجوء الى ذوي الخبرة والاستفادة من علومهم وخبرتهم فتراه يؤكد على قوله «ينبغي لطالب هذه الصناعة ان يكون ملازما للبيمارستانات ومواضع المرضى كثير المداولة بأمورهم واحوالهم مع الحذاق من الاطباء كثير التفقد ويتخلق بالاخلاق ولايتهانون بها ( ) ان استشارة من هو اكثر خبرة والتتبع الحقيقي لصالح المريض هي الاخلاق السامية للعلم وهو يرى من تطبب عند كثير من الاطباء يوشك ان يقع في خطأ كل احد منهم (95) فاستشارة الطبيب لزميله بنفسه يمنع زميله من السقوط بذات الغلط وربما تعاونا في الكشف عن سر المرض وبهذه الطريقة يستفيد كل واحد من علم زميله مع كسب ثقة المريض (96) وقد حذر من الجهل ونقص الخبرة فقال : «الاطباء الاميون المقلدون والاحداث

---

90) ابن خلكان وفيات الاعيان

91) د ، أمين خير الله 107 بالانجليزية

92) ابن ابي اصيبيعة 420

93) الاعلام ـ خير الدين الزركلي

94) ابن ابي اصيبيعة 420

95) د ، أمين خير الله

96) أمين خير الله 106

الذين لاتجربة لهم ومن قلت عنايته وكثرت شهواته قتالون (97) .

لذلك دعا الرازي الى تنمية الخبرة العلمية الحقيقية والابتعاد عن الشهوات المادية والعمل على الابداع والتجديد فكان قدوة لطلابه في هذا المجال اذ انه اعطى لفنه ولطلابه كل شيء (98) وعني عناية فائقة بالفقراء وانفق عليهم من أمواله الخاصة ، كانت عيادته غاصة بالمرضى والطلاب (99) وكان ايضا يدعو الى اطاعة الطبيب والتقيد بتعليماته حيث يقول «اذا كان الطبيب عالما والمريض مطيعا فما أقل لبث العلة (1oo) فكيف يكون عالما من لم يتتبع ويستشر وكيف لايكون المريض مطيعا متى ماشاهد ان طبيبه مهتم بصحته وتتبع مرضه واستشارة زملائه اكثر من اهتمام ذويه»

وكان الرازي يدون مشاهداته ويعطي خبرته بطريقته السريرية الخاصة وان معظم كتبه تحمل طابعه العلمي الذي اتخذ من المريض خير كتاب يستنسخه عن استجواباته وفحصه ومعالجته مسجلا جميع مشاهداته وخبرته الخاصة في خدمة الطب (101) مثال ذلك : حدث ان شاهد اثناء عودته من بغداد الى الري مرعى فيه بركة ماء وفيها من العلق الشيء الكثير واثناء ترحاله إستدعي لفحص شاب في كامل صحته الا انه يتقيأ دما بغزارة حتى كاد ان يهلك فسأل الرازي ذلك الشاب قائلا « هل كنت ترتوي من بركة ماء المرعى القريب ؟ أجاب نعم وقد شربت منها فأمر بان يطعم الشاب من الطحالب بكميات كبيرة حتى بدأ يتقيأ الطحالب ومعها العلق من معدته (102) .

ومما يقوله الرازي لطلابه مهما عمر الانسان فانه لايستطيع تحقيق جميع ماشوهد بتعاقب الازمنة في مختلف بقاع الدنيا فلابد له ان يقوي بصيرته بعلم الاخرين «ومن هذا المنطلق وصفه كامبل» بانه ابداع كاتب عربي ذي اصالة كبيرة ابدع في تصوير الامراض على سرير المريض وطور الطب بتتبعه السريري الى الاستنتاج الفكري والمنطقي فاضاف اليه الشيء الكثير من خبرته السريرية حيث كون الحجر الاساسي لما يسمى الان بالطب

---

97) ابن ابي اصيبعة
98) الطب العربي ـ كامبل ج 661
99) حاوي ج 1 ص 311 وابن ابي اصيبعة
1oo) ابن ابي اصيبعة 420
101) د . فايق فرات
102) د . امين خير الله 107

البيمارستاني (103)
وكان الاطباء والمؤرخون يصفون الرازي بالبيمارستاني (104) لكثرة تعلقه بالمستشفيات وقضائه الوقت الكبير الى جانب المرضى اخذا بنظر الاعتبار ان المريض هو المعلم الاساسي للطالب وللطبيب على حد سواء .

وجاعلا للطالب المحاسب والمحذر للخطأ والفشل مبتعدا عن الدجل والشعوذة غارسا الفضائل في نفوس طلابه وكيف يمارس الدجل من كان حوله طلابه يسألونه الصغيرة والكبيرة ؟

وعند فحصه للحالة : التي تعرض عليه من قبل طلابه كان يشرحها عليهم بالطريقة الاتية مسجلا جميع اسئلته ومشاهداته في صفحة خاصة مبتدئا باستجواب المريض (105) والطلاب من حوله سائلا عن اسمه وعمره وبلده وعما الم به واليوم الذي شعر فيه بالمرض وموضع الالم والاعراض التي رافقته بالترتيب والتسلسل الزمني لها مؤكدا على ان المريض خير راوية لشرح ابعاد المرض الذي يعانيه شخصيا كما كان يسأل عن عائلته وافرادها وهل انهم شعروا بنفس الادوار التي يكابدها هو . وبهذه الطريقة توصل الرازي الى اثر الوراثة (106) في العديد من الاصابات المرضية حيث قال عند فحصه لمريض لم يعلم بسر مرضه ، وقد كان كثير التبول يقوي ظني بالخراج في الكلي وكنت لااحكم ان اباه ايضا ضعيف المثانة يعتريه هذا الداء فينبغي ان الا تغفل بعد ذلك غاية التفقص انشاء الله (107)

ويقول في حالة حمى مثلا :

لنضع ان حمى حدثت ونريد معرفتها من اي جنس فاقول ان اول مايحتاج ان ننظر اليه هل كان لها سبب باد ام لا ؟ وهل ابتدأت بنافض وكيف صوره نفضه وكيف مزاج ذلك البدن (108) الامر الذي يدفعه الى التأكد من الاعراض للوصول الى مسببات تلك الحمى .

---

103) الطب العربي ـ كامبل ج 1 ص 66
104) الطب العربي ـ براون ـ ترجمة د . سلمان داود علي
105) ابن ابى اصيبعة 420
106) حاوي كبيرج 16 ص 189
107) قصص وحكايات المرض ـ الرازي ـ د . محمد نجم ايادي
108) ج ك ج 14 ص 189

وهو يبدأ بفحص المريض معتمدا على ان جسم المريض ككل واحد يجب فحصه كاملا وتشمل هذه الطريقة على :

1) الفحص العام (2) الفحص الخاص .

وعند تطبيقه مرحلة الفحص الشامل يقول : ابدأ بدراسة حالات المريض وتأثير المرض عليه وهل انه يستطيع السير منفردا ام مستندا وعلى اية جهة يستند ووضع يديه اثناء السير وهل هما على اعلى البطن ام اسفلها ام على الرأس ام على الصدر وتكلم معه لمعرفة هل هو مالك لقواه العقلية ام في حالة خمول وهل حالته تنذر بالخطر ام لا بمجرد القاء نظرة عامة على المريض (109) كل هذه تسجل في صفحة المريض .

ويقول مثلا في حالة حمى : يجب ان نعرف الحالات المصاحبة للحمى من النبض والتنفس ويشرح التنفس هل هو سريع ام بطيء عظيم ام صغير متفاوت ام متواتر وفي الاخير يستعمل للتفريق بين تسمم الدم بالبولة او كسور الجمجمة (110) . ويستطرد يسأل عن النفس والعرق وكيفية الحرارة ومقدار النوائب وكيف تنوب والعطش وحالة الاحشاء والقيء والبراز والحالات اللاصقة كالسهر والصداع والتشنج (111) وفحص العين لليرقان وتفريقها بالغائط (112) .

بهذا الشرح المسهب يجلب انتباه طلابه ويدفعهم للتنقيب والتعليل على كل مايشاهدونه بأسئلتهم المتبادلة .

وانا اعتقد ان الرازي كان يتفاهم مع طلابه امام مرضاه باللغة السريانية محبذا عدم التكلم امام المريض باللغة التي يفهمها حفظا على صحته مما يعتريه من حالات نفسية من جراء وقوفه على حالته المرضية التي قد تكون خطيرة عند سماعه النقاش لذا نراه يقول :

ينبغي على الطبيب ان يوهم المريض ابدا بالصحة ويرجيه بها وان كان غير واثق بذلك فمزاج الجسم تابع لاخلاق النفس (113) .

---

109) د . فائق فرات ـ ابوبكر الرازي ص 37

110) الحاوي ج 3 ص 286

111) الحاوي ج 14 ص 123

112) الحاوي ج 7 ص 143

113) ابن ابي اصيبعة 420

ومن الاطباء الذين درسوا على يد الرازي ابوبكر بن قارن ، ويوسف بن يعقوب وابو زكريا يحي بن عدي (114) ومحمد بن يونس (115) وعليا بن زبن (116) وكلهم يتكلمون السريانية .

الفحص الخاص :

يبدأه بالجس فيقول مثلا في حالة تقيوء دموي «انظر اولا في الدم هل الكبد والطحال عليلان» (117) ويقول ايضا كان طبيب به وجع في كبده فدخلت اليه فرأيته مرابت مع علامته طستا فيه براز صديدي كأنه ماء اللحم المذبوح وهي علامة صحيحة على ضعف الكبد غاية الصحة فلم التفت الى ذلك وتغافلت كأن لم أره ثم ضربت بيدي على عرق العليل ليظهر هل به ورم في كبده ام انما ذلك لضعف فقط (118) .

واستعمل القرع : للتحري ففي الاستسقاء مثلا حيث صنفه الزقي والطبلي واللحمي (119) ويقول « اذا شككت في الاستسقاء واي نوع هو فاقرع البطن . وتفقد الصوت فان الزقي واللحمى لاصوت لهما والطبلي له صوت وللزقي اذا قلبت العليل من جنب الى جنب واذا خصصته بيسدك بشدة (120) اما اللحمي فيعرف هذا بغرس الاصبع ويبقى اثره فيه ويكون في جميع انحاء البدن .

واستعمل الاصغاء : ففي حالة انسداد الامعاء يقول ان الالم مع المغص وتردي القيء وكثرة الاصوات في البطن (121) .

ثم يأخذ بفحص جميع مايمكن جمعها من مواد مرضية او طبيعية كالبول (122) والخروج والقيح وغيرها من السوائل الخارجة من الجسم .

---

114) المسعودي القاهرة 1938 ص 106
115) الاسرار وسر الاسرار محمد تقي دانش ص 1 وص 118
116) المستشرق هابر بريستال
117) الحاوي ج 5 ص 28
118) الحاوي ك 7 ص 121
119)الحاوي ج 7 ص 188
120) الحاوي ج 7 ص 268
121)د ، فائق فرات ـ الرازي
122) الحاوي ج 7 .

بعدها يبدأ بالتعليل : لجميع هذه الاعراض لمعرفة التشخيص ورغم ذلك يبقى مشاهدا اسير المرض اليومي ويسجل على ورقة المريض جميع التغيرات التي تحدث على المريض حتى اثناء المعالجة لمعرفة الانذارات التي قد تحدث وكذلك لمعرفة البحران (123) .

فيقول في وصف الجدري : «سرعة بثور الجدري الصغار المتقاربة خطر والكبار المبددة سليم (124) .

لايستطيع المرء ان يكتب هذه المشاهدات ومعرفتها مالم تكن مقرونة بمراقبة المريض اليومية مراقبة دقيقة لكي تبدو هذه الاعراض بصورة واضحة . وكان تشخيصه دقيقا جدا وقصته المشهورة التي حدثت لعبد الله ابن سوادة (125) خير دليل على اهتماماته بسير المرض ومن رأيه ان يشخص الطبيب اولا ماهو عام يتئد في تشخيص الحالات الشاذة الا بعد درس وتمحيص .

وفي حالة المعالجة يجب ان يكون حذرا فانه يوصي باستعمال الادوية الشائعة والمجربة وعدم التسرع في وصف الادوية المعقدة الا بعد خبرة طويلة فيها وهكذا نراه يردد بعد خبرته الطويلة بالسرطانات :

اذا كان السرطان خفيا اي غير متقرح او نازف فمن الافضل تركه وعدم التدخل به اذ كلما كثرت المداخلات الطبية اسرعت في انتشاره ونموه (126) (127) .

اما الطرق الجراحية : فكان متريثا في تدريسه لها حيث يقول «عالج في أول العلة بما لا تسقط به القوة (128) .

وهو اول من استعمل الاحزمه لمعالجة الفتق» (129) مبعدا

---

123) الحاوي ج 17 ص 3
124) الحاوي ج 17 ص 3
125) الحاوي ج 19 ص 3
126) الحاوي ج 12 ص 251
127) هارفيلد القول الى سلس سرطان الثدي 1962 بالانجليزية
128) وفيات الاعيان لابن خلكان 158 .
129) د . امين خير الله ص 107 (بالانجليزية) .

الادوات الحديدية في تدريسه للطلاب حيث يقول : «اما العلاج بالقطاطر فلست احتاج الى ان اقول انه لن يستطيع احد ان يعالج بها علاجا جيــدا دون ان يكون عارفا بموضع المثانة وخلقتها معرفة جيدة (130) ويقــول : متى كان اقتصار الطبيب على التجارب دون القياس والقــراءة للكتــب خذل (131) وكان متريثا في استعمال السكين فيقول :

«فان كان الخراج حادثا في غشاء الكبد فانه اذا انفتح يتصبب ما بين الحجاب والامعاء في الوضع الذي فيه يجتمع الماء في المستسقى فافتح الى جانب الاربية اليمنى فاذا سالت المدة فواضب على الخروج (132) .

وما طريقته بفتح الاحليل من العجال الا وسيلة جيدة لمعالجة تضيــق الاحليل (133) ولا يغفل عن مراقبة تغذية المريض اثناء المرض وفي ادوار نقاهته خوفا من الانتكاسات (134) وكذلك استعمل الموسيقى كمعالجــة نفسية خاصة لمن كان مصابا بالملونخوليا او الهستريا (135) ورغــم كل ذلك يردد ويقول بتواضع :

ان كل ما اعرفه انما مدين فيه فقط لمثابرتي في قراءة الكتب القديمة ولرغبتي في فهمها ولتناسبها لهذا العلم ومن ثم اضيف مساعداتي وخبرته التي لمستها في حياتي اجمعها (136) .

وكان اذاقال رايا فقيل له ولكن من قبلك راوا ذلك فيجيب هؤلاء رجال ونحن رجال .

130) حاوي ج 10 ص 154 .
131) ابن ابي اصيبعة ص 420 .
132) حــاوي ج 7 ص 140 .
133)هارتن جراحة التجميل للعجان ص 19 (بالانجليزية) .
134) حاوي كبير ج 11 ص 136 .
135) حاوي1 ص 67 .
136) الحاوي في قوله (لي)

التكامل في شواهد تاريخ اليمن القديم

الدكتور يوسف عبدالله - اليمن -

نستقي شواهد التاريخ اليمني القديم من مصادر ثلاثة . نسميه وهي التي خلفها لنا في فترة تمتد الف عام قبل الميلاد وبعده بالتساوي تقريبا أجدادنا اليمنيون من سبئيين ومعينيين وقتبانيين وحضارم وغيرهم ، وهي نقوش رسمت بمنتهى الدقة والعناية بلغة يطلق عليها اصطلاحا اللغة العربية الجنوبية القديمة وهي ذات لهجات مختلفة تحمل كل منهما اسم قبيلتها او دولتها . وميزة هذه النقوش انها تحتفظ بشكلها الذي حفرت به على الحجر اذا هي وصلتنا سالمة بخلاف الشواهد الكتابية وهي المصدر الثاني التي وصلتنا في الكتب التي دونت بعد الاسلام على شكل أساطير وقصص وتاريخ. سجلت ما نقله الناس من روايات شفهية عن امجاد اسلافنا قبل الاسلام . بعضها كان مازال قائما في عصر المؤلف . وربما كانت تلك الاستمرارية التاريخية حافزا على تأليف بعض هذه الكتب . ولاتزال هناك شواهد تاريخية حية تنبيء باستمرارية التاريخ اليمني القديم . في مجالات عدة من اليمن اليوم شعبا وارضا ولغة وهذه هي المصدر الثالث .

على ان هذه الشواهد التاريخية تكمل بعضها بعضا تكميلا بينا ، وهذا مايمكن تدارسه تدارسا تصيرا وقاصرا .

وربما كان خيرطريق يسلكهو ضرب المثل . وسأختار أمثلة من كتاب الاكليل لابي محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني المتوفى في حوالي أواسط القرن الرابع الهجري في الاعلام واسماء البطون والقبائل والامكنة اليمنية واضعا نظائرها في ما وصلنا من نقوش كثيرة مارا ببعض ما يدل على ذلك من اثار اليمن الحاضر .

وبذلك نستدل على ان كتبنا التاريخيه ليست كلها أساطير وانما فيها من الحقيقة شيء كثير .

1 ـ ان حكاما يمنيين مشهورين مثل ابي كرب أسعد وابنه حسان بن أسعد وشمر يهرعش وياسر ينعم ويوسف ذو نواس كلها شخصيات

تاريخية كبيرة ظل ذكرها في اليمن عالقا في أذهان الناس الى اليوم كما نسجت المصادر المكتوبة كثيرا من القصص حولها . وقد اثبتت المصادر المنقوشة أن هذه الشخصيات قد عاشت في اليمن قبل الاسلام وربما كان ما نسب اليها ليس بعيدا عن الحقيقة .

2 ـ يحدثنا الاكليل عن المثامنة وهي ثمانية أبيات كانت ملوكا وأقوالا في حمير تساعد في الحكم وترث الملك اذا خلا العرش . وقد أكد ذكرها نشوان في شرح القصيدة الحميرية حيث يقول لا يصلح الملك لمن ملك من ملوك حمير الابهم حتى يقيمه هؤلاء الثمانية وان اجتمعوا على عزله عزلوه . والمثامنة هم ذو خليل وذو سحر وذو جدن وذو حزفر وذو ثعلبان ، وذو عثكلان وذو مقار وذو صرواح ، وربما حلت ذو قيفان وذو مناخ في محل حزفر وذو صرواح وذو خليل وذو حزفر وذو سحر وذو عثكلان وذو مقار .

ويورد الهمداني في كتابه مرارا صيغة جمع تكسير لا ترد في صيغة جمع التكسير العربية وهي صيغة الافعول كقوله الاحلول ، الاحمـوس ، الاحنوش ، الاسروع الاسلوم . الاعبول . الاشبوم ، والاودوع وهي جموع لحليل ، واحمس ، وحنش ، وسارع ، وسالم ، وذي عابل وشايم ووداع ولما كانت هذه الاعلام قد اصبحت اسماء بطون وربما قبائل فان جمعها على وزن الافعول يفصل بوضوح بين العلم واسم القبيلة . وهذه الظاهرة وردت في النقوش ايضا . فهناك وزن أفعولن في النقوش حيث تنوب النون عن ال التعريف مثل أريومن أي الاريوم ، أزأونن اي الايزون افيوشن اي الافيوش ، أيدوعن اي الايدوع ، ابكولن اي الابكول ، ارحوبن اي الارحوب . الخ . وهذه جموع تكسير لكل من ريام ، وذويزن ، وذو فائش ، ويداع وبكيل ، وذو مرحب ، او اوحب .

واثبات الهمداني لهذه الظاهرة في كتابه جعل ممكنا ضبط نطق هذه اللفظة التي ترد ألفا وفاء وعينا ولا ما ونونا ، دون حركات ، وكانت تقرأ خطأ مثل قولهم افعلان . ويؤكد ما أثبته الهمداني كتابة استعمال هذه الصيغة في اليمن الى اليوم فنحن نسمع بالاخمور ، والاعروق ، والاقدوس والاحكوم والاعبوس ،، الخ وهذا دليل على التكامل بين شواهد اليمن التاريخية الثلاثة ، النقوش والكتب التاريخية واليمن اليوم . كما أنه شاهد على استمرارية التاريخ اليمني وبقائه صامدا عبر الاجيال .

وقد تساعدنا الشواهد النقشية احيانا على تصحيح الشواهد الكتابية فكثيرا ما اعتاد القرئ التاريخ اليمني المكتوب ومن يؤلف فيه ان يضبطوا خطأ اعلاما يمنية قديمة فنسمع معد يكرب وصحيحه معدي كرب ونسمع ملكيكرب وصحيحه ملكي كرب ، ونسمع السميفع والسميدع وصحيحهما سم يفع وسم يدع اي اسم يفع واسم يدع وهي صيغة حميرية مركبة معروفة ونقرأ في كتبنا التاريخية لهيعة ولختيعة ولحيفة ، وخيعة ، ولحيئة وكلها تصحيفات للعلم الحميري المعروف لحي عث وعث اختصار لـلاله اليمني القديم أله الزهرة عثتار او نقرأ نبت عم وصحيحه في النقوش نبط عم غير ان نبط عم هي المقابل في العربية لنبت او تأران ينعم والصحيح تأران ينعم وهكذا . قد تنبهنا النقوش لبعض هفوات مؤرخينا القدامى فتألب ريام عند الهمداني شخص ولذا فقد الحته بسلسلة نسب طويلة بينما يرد تالب ريام في النقوش اسم اله معروف .

ويعتبر الهمداني ان الاسماء التي تسبقها ذو (الاذواء) هي اسماء أشخاص على وجه العموم فيفرد بابا في اكليله لمن غلبت عليه الاذنية من حمير . وعنده ذو تعني كما هي بالعربية صاحب فيقول ومعنى ذوبيح نظره هو ذوخيرة القوم وشرفهم وذو بيح عنده هو ابن ذو قيفان .

والهمداني كغيره من المؤرخين القدامى يلتبس عليه الامر فيكون الاذواء حينا اشخاصا وحينا بطونا ، وكثير من أذواء الهمداني مثبتة في النقوش ، فهناك ذو اصبح ذو أقيان ، ذو اوسان ، ذو جدن ، ذو غيمان ذو معاهر وغيرهم ولكنهم بخلاف مانص عليهم الهمداني يردون في النقوش اسماء بطون وقبائل ، فذو في النقوش تقابل في العربية الشمالية آل وأهل وبذو ، ذو معاهر مثلا هم آل معاهر والقيل ذو معاهر ينبغي ان يكون القيل من آل معاهر . والملك ذو ثات يجب ان يكون احد الملوك الذي سقط اسمه الاول وينتمي الى آل ثات وهكذا . على ان الاكليل قد يصحح بعض النقوش المنشورة ايضا . فخولان الاجدود اي خولان أجدودن نشرهاأحد علماء النقوش خولان آل دودن اذا التبس عليه اللام والجيم وهما متقاربان في الشكل في الحميرية وبدون الاكليل ربما صعب تلافي غلطة كهذه . ومثل ذلك ذو هل والصحيح ذهل او ربيعة ذوايل ثور ملك كندة والصحيح ربيعة ذو آل ثور ملك كندة ، آل ثورهم كندة في الموروث اليمني والعربي .

ومن ناحية اخرى فان الهمداني قد ينقل العلم الينا صحيحا ولكنه

يفهمه ويفسره تفسيرا خاطئا فمثلا عليان نهفان عنده علم على شخصين وليس شخص ويوجد لذلك تخريجا لطيفا ، فيقول فلما لم يمكن ان يقول العلهانان كماتقول العرب العمران في ابي بكر وعمر والبصرتان في البصرة والكوفة قال علهان نهفان بينما اثبتت النقوش ان عليان نهفان كان ملكا من ملوك سبأ وهو شخص وليس شخصين .

على ان اليمن اليوم تؤكد اسماء بعض القبائل التي وردت في النقوش وفي كتاب الاكليل تأكيدا لا يدع مجالا للشك ، فقبائل خولان ، وهمدان ، وسيبان وردمان ، ومراد مثلا مازالت موجودة وربما في امكانها القديمة نفسها ، كما يؤكد يمن اليوم اسماء اماكن كثيرة ذكرتها النقوش وهي لازالت تحمل الاسماء نفسها الى اليوم مثل سيئون ، تريم ، شبوه رداع ونجران .

وهكذا نجد سلفا في النقوش السبائية من مئات اسماء الاماكن والقبائل والعشائر التي عرفها العصر الاسلامي ومازالت قائمة حتى اليوم ومن هذه الامثلة البسيطة نستدل على ان دراسة تاريخ اليمن القديم ترتكز على دعائم ثلاث شواهد النقوش والشواهد المكتوبة وشواهد التاريخ الحية الى اليوم وان هذه المصادر تكمل بعضها بعضا .

وكثير من علماء النقوش اهملوا المصدرين الاخرين كما ان محققي الكتب التاريخية اليمنية قد اهملوا اعتماد النقوش وان كان بعضهم قد اعتمد بعض الشيء على اليمن اليوم فكان ذلك فضله .

ان استمرارية التاريخ اليمني ليس لها مثيل آخر في بلدان الشرق الادنى بأسره وما ذكرناه مثال على ذلك ان خير مثال حي على استمرارية حضارة هذا الوطن هو ان الشعب اليمني الذي بنى السدودفابدع واحترف التجارة فلم يجاره احد وبنى البنايات العالية فكان مثلا يحتذى ، ومن السرائح فكان اليمني خير من قضى هذا الشعب الذي نقش على اديم ارضه مجده وكفاح شعبه هو الشعب نفسه الذي استطاع ان يطارد المستعمر ويزيل اثار الظلم وفي بضع سنوات استطاع ان يبني يمنا جديدا شامخا . انه الشعب نفسه هو الذي حطم في فترة قصيرة أحدث فكر انتجه الانسان وطبقه بجرأة وصبر وحزم واباء .

الإمبراطورية الرومانية : العصر الأخير 284-602 م

تأليف : أ.هـ.م. جونز

عرض وتحليل د. مصطفى العبادي
أستاذ الدراسات اليونانية والرومانية
- جامعة الاسكندرية

عرض وتحليل د . مصطفى العبادي

استاذ الدراسات اليونانية والرومانية (جامعة الاسكندرية)

مؤلف الكتاب وأعماله :

مؤلف هذا الكتاب A. H. M. Jones أو هيوجو جونز ، كما عرف بين زملائه وتلاميذه ـ من مؤرخي القرن العشرين ، وممن احتلوا مركز الصدارة العالمية في دراسة التاريخ القديم ، خلال الخمسة والعشرين سنة الماضية ، اي منذ نهاية الحرب العالمية الثانية الى وفاته فجأة فيابريلسنة1970 وهو في السادسة والستين .

وما من شك ان المكانة الرفيعة التي احتلها هيوجو جونز بين الدارسين للتاريخ القديم ، لا ترجع الى أنه أحدث ثورة في فن كتابة التاريخ ، أو أنه استحدث فلسفة جديدة لتفسير التاريخ ، بل لعل القيمة الحقيقية لكتاباته ، هو انه استطاع ان ينضج مناهج البحث التاريخي بأساسيه العلمي والعملي ، وان يمارسه على أرقى قدر من الكفاءة عرفتها كتابة التاريخ فيالقرن العشرين . ولعل فضله الاكبر على كتابة التاريخ أنه فصل بينه وبين النظريات الفلسفية نهائيا ، الا في مجال واحد وهو علم المنطق ومناهج بحثه الدقيقة . ولقد اتاحت لي الفرص معرفة ذلك عن قرب ، تلميذا له أولا وزميلا في حقل العمل العلميبعد ذلك . فكان اذا وجد رأيا او عبارة تاريخية غير واضحة المدلول مباشرة يحولها الى قضية منطقية ، ليرىان كانتتصحاو لاتصح . أما بالنسبة لاسلوب كتابة التاريخ ، فقد استخدم الاسلوب العلمي الذي اصبح الان اكثر تشبعا في بمبدأ سلامة العبارة ووضوحها ، مضحيا في غير تردد برشاقة الاسلوب الكتابة التاريخية الراقية . ففصل بينه وبين الاسلوب الادبي ، والتزم

وزنين الكلمة . وليس غريبا اذن ان شاع في اسلوبه شيء من الجفاف العلمي . فاذا كان الجدل قد احتدم بين المؤرخين في نهاية القرن التاسع عشر وبداية العشرين حول حقيقة التاريخ - هل هو علم أو فن. فسان جونز - دون أن يخوض في الجدل - مارس التاريخ على أساس أنه علم ، ولا مجال للتاريخ غير ذلك ، وأن مقياس العلم هو ممارسة المنهج العلمي . وكما سبق أن ذكرنا ليس في ذلك ثورة ، فقد عرفت دراسة التاريخ - والتاريخ القديم بالذات - المنهج العلمي منذ أكثر من قرنين من الزمان . فنحن نعرف ان من أسرار عظمة المؤرخ الكبير جيبون ، صاحب الكتاب الخالد عن «اضمحلال وسقوط روما» ، ترجع الى قدرته العقلية الفذة على استخدام المنهج العلمي بامكانيات عصره في القرن الثامن عشر ، ولكن جيبون ظل واقعا تحت تأثير فلسفة العصر اللادينية ، كما اهتم بالاسلوب الادبي في الكتابة اهتماما كبيرا .

ومن بعده جاء مريفيل Merivale في منتصف القرن التاسع عشر ، ومارس المنهج العلمي في كتابه عن «الامبراطورية الرومانية» ولكن لم يكن له نفاذ بصيرة جيبون ، كما أنه شغل بالقضايا السياسية والدينية في المجتمع اكثر من اهتمامه بجوانب الحياة الاخرى الاجتماعية والاقتصادية والقانونية .

وما من شك ان المؤرخ الالماني مومسن Mommsen يمثل أعلى قمة وصلت اليها دراسة التاريخ القديم في القرن التاسع عشر ، فارتفع بدراسة المصادر ونقدها ارتفاعا لم نعرفه من قبل . ظهر ذلك في اشرافه على نشر موسوعة النقوش اللاتينية ، واهتم بالنظم القانونية اهتماما كبيرا في كتابه عن «نظم القانون الروماني» الذي كتب له الخلود بين عظماء المؤرخين . وما من شك أنه أنضج منهج البحث التاريخي الى درجة رفيعة ، لولا بقية من فلسفة رومانتيكية تظهر في «كتابة تاريخ روما» كما ان مومسن ظل بعيدا عن دراسة المشاكل الاقتصادية بصفة خاصة في التاريخ القديم .

حتى اذ اكان القرن العشرين ظهر المؤرخ الروسي العملاق روستفتزف Rostovtzeff الذي يمكن ان يقال أنه أحدث ثورة في كتابة التاريخ القديم بكتابيه «التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للامبراطورية الرومانية» ، الذي أفاد فيه من جهود سابقيه وأضاف اليها مادة جديدة وهي استخدامه للمصادر البردية والفنون والآثار بمهارة هائلة ، وبمعرفة

واسعة للمصادر ومنهج علمي دقيق ، وأسلوب في الكتابة سهل ، استطاع روستفتزف أن ينقل كتابة التاريخ نقلة كبيرة ، هي النقلة التي نلحظها في الفارق بين مؤرخي القرن التاسع عشر ومؤرخي القرن العشرين . واذا كان كتاب روستفتزف عن الامبراطورية الرومانية قد تأثر بعض الشيء بسبب تجربته السياسية بين الاتجاهات العامة التي حدثت في الربع الاول من القرن العشرين واصطدامه بالثورة البلشفية في الروسيا ، فانه استطاع ان يخلص نفسه من هذا العيب في كتابه الآخر عن «التاريخ الاجتماعي والاقتصادي للعصر الهلليني » الذي يعتبر ارقى ما كتب الى الآن في مجال الدراسات الاجتماعية والاقتصادية لهذه الفترة .

واذا كان جونز لم يلتق ولم يتتلمذ على روستفتزف ، فانه كان يقول أنهيعتبر نفسه التلميذ الروحي لروستفتزف . وفي ذلك وفاء كبير لقيمة كتابات روستفتزف التاريخية .

يتضح من هذه الامثلة القليلة ان جونز حين تصدى لدراسة التاريخ القديم كان يقف على أكتاف عمالقة ، وتسلم دراسة التاريخ في أرقى مراحلها . ويبدو أنه منذ بداية حياته العلمية قد حدد موقفه ومجاله الدراسي اما موقفه فهو ان يفيد من جهود سابقيه جميعا وان يزيد دراسة التاريخ كما وجدها عمقا وقوة في الاتجاه العلمي المحض ، اما مجاله الدراسي الذي اختاره لنفسه فهو العصر الاخير من الامبراطورية الرومانية ، وهي فترة لم تلق معالجة شاملة كبرى منذ ان كتب جيبون «اضمحلال وسقوط روما» . ولكن مجال الدراسة التاريخية متشعب شديد التعقيد . فهناك جوانب التاريخ السياسي والعسكري والديني والاقتصادي والاجتماعي والاداري والفكري وما الى ذلك . ويبدو ان جونز حدد لنفسه أيضا منذ البداية مجال تخصصه من هذه الجوانب جميعا ، وهو مجال «النظم» . فهو مؤرخ للنظم قبل كل شيء ، ادراكا منه أن النظم أخطر دلالة على طبيعة الفترة التاريخية . ولم يقصر نفسه على جانب من النظم دون الآخر ، ولكن اهتمامه الاكبر انصب على النظم الاجتماعية والاقتصادية والادارية بفروعها المختلفة .

وما ينبغي ان يتبادر الى الذهن أن جونز كان من المؤرخين المحدودين في مجال تخصصاتهم الضيقة ، فهو من اكثر المؤرخين المتخصصين تنوعا ووفرة انتاج . فأول كتبه صدر سنة 1935 عن تاريخ اثيوبيا ، وهو كتاب مبسط ، بمثابة مدخل لدراسة تاريخ اثيوبيا . ويقال أنه كتبه في ستة اسابيع فقط ، ومع ذلك لم يوجد كتاب آخر يحل محله حتى الآن ، وظل يعاد طبعه حتى سنة 1966 .

اما جهوده الاكبر ، خلال الخمسة عشرة سنة الاولى من حياته العلمية (قبل الحرب العالمية الثانية) ، فقد اتجه لدراسة نظام المدن فـــي القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية (من الاسكندر الاكبر الـــى جستنيان) . وظهرت نتائج هذه الدراسة في كتابين لازالا عماد الدراســات في هذا المجال حتى الآن . الاول وهو «مدن الولايات الرومانية الشرقية» سنة 1937 (واعيد طبعه بعد تنقيحه سنة 1971) . والكتاب الثاني هــو (المدينة اليونانية) من الاسكندر الاكبر الى جستنيان . ونلحظ في الكتابين ان شخصية جونز المؤرخ قد نضجت واكتملت معالمها ، فرغم ان الفتــرة الـــتــي يعالجها ممتدة بين العصرين الهلينيتي والرومانــي كامليــــــــن وتتناول ثلاث عشرة ولاية ، الا ان تمكنه من المصادرجميعها واضح تماما ، بأنواعها المختلفة الادبية والوثائقية من نقوش وبردى وعملة ، يتناولها جميعا في سهولة وألفة ، ومنهج علمي مكتمل ، ولجونز من المصادر موقف معروف ، ظهر في هذين الكتابين والتزم به طيلة حياته العلمية . فهو يهتم بالمصادر القديمة اهتماما كبيرا جدا ، عارضا ومحللا وناقدا ثم مستنتجـا بعد ذلك مايراه من رأي وهو من غلوائه في هــذا الاتجاه وحرصــه عليه ، كثيرا ماضحي بالاشارة الى الكتابات العلمية الحديثة ومناقشتها ، وكثيرا أيضا ما تعرض للنقد بسبب ذلك . وكان رده دائما هو أن الدراســات الحديثة منها ما هو جيد وأنه قد أفاد من جودته ، وأثبت ذلك . ولكــن منها ماضل سواء السبيل ، ولو أنه شغل بتصويب أو معارضة أخطائها لما استطاع ان يكمل ما أخذ نفسه به . ولذلك فهو عادة يثبت رأيـــه دون ان يحفل بآراء معارضيه .

ومن كتابات هذه الفترة الاولى ، كتاب صغير آخر عن «حكم آل هيرود فـــي فلسطين» ، وفيه يتناول تاريخ فلسطين من 80 ق . م . الى 70 ميلادية ، أي في الفترة التي ظهرت فيها الحركة المسيحية ، وهو في مقدمة الكتــاب يقول عن اهمية هذه الفترة ، أنه حدث اثناءها الصراع بين أفكار اليهــــود الدينية وبين الاتجاهات العلمانية المتأثرة بالثقافة الهللينية ، وان هذا الصراع بلغ ذروته آنذاك وادى الى اندلاع نار ثورة اليهود اليائسة ضــد الرومان ، «وفيها هلكت دولة اليهود القومية ، ربما الى الابد» . وهـــي عبارة يضيق بها اليهود اليوم ، الذين يحرصون على ان يسبغوا ان لفلسطين طابعا يهوديا دائما . ومما يدل على ان جونز يقصد مدلول هذه العبــارة باعتباره رأيا تاريخيا يلتزم به ، وليس جملة عفوية تناسب الاحـوال في سنة 1938فقط ، هو انه احتفظ بها حين اعاد طبع كتابه سنة 1967 ، بعد قيام دولة اسرائيل وما أعقبه من احداث .

ومنذ سنة 1940 تبدأ المرحلة الثانية ، وشملت الثلاثين سنة الاخيرة من حياة جونز العلمية والتي كان محورها الاساسي دراسة العصر الاخير من الامبراطورية الرومانية واهتمامه بالجوانب الاجتماعية والاقتصادية بصفة خاصة . ولكن تنوع انتاجه وتعدد جوانبه ظل واضحا أيضا في هذه الفترة . فنجده يخرج عدة دراسات عن مدينة أثينا ونظمها جمعها فيما بعد في كتابه «الديمقراطية الاثينية» الذي ظهر سنة 1957 ، وأعقب ذلك بكتاب عن «اسبرطه» سنة 1967 . ولعل هذا الكتاب الاخير عن اسبرطه هو اضعف كتب جونز جميعا ، ويبدو انه كتبه في فترة كان يعاني منها صحيا ، نتيجة لشدة الارهاق الذي اصابه أثناء توفره على كتابة الكتاب الكبيرعن العصر الاخير من ا لامبراطورية الرومانية . وقد حذره كثير من اصدقائه من نشر كتاب اسبرطه ، ولكنه دفع به الى المطبعة ، معتذرا فيمقدمة الكتاب عن بعض عيوبه ، بأنه كتبه اثناء وجوده في مصر شتاء 1964 ـ 1965 . وانه لم يكن في متناول يده كثير من الكتب والدراسات . ولكن هذا اعتذار مردود ، لان عيوب الكتاب الحقيقية هو أنه أقام بعض مواقفه وآرائه في النظم الاسبرطية على دليل غير مقنع ، كما هو الحال بالنسبة لقضية تقسيم الارض في اسبرطة .

اما في مجال الدراسات الرومانية فقد اخرج في سنة 1949 بالاشتراك مع فكتوراهرنبيرج «مجموعة من الوثائق توضح عصر اغسطس وتيبريوس» وكلها مستمدة من النقوش ووثائق البردى اليونانية واللاتينية . كما انه أعد قبل وفاته كتابا عن الامبراطور اغسطس وهو لازال تحت الطبع .

ومن كتب الثقافة التاريخية العامة كتابه عن «قسطنطين وتحول اوروبا للمسيحية» . وهو من كتب السير الممتازة ، الذي يمتاز بسهولة الاسلوب وبساطة العرض مع الدقة العلمية .

وبعد تحليل دقيق لشخصية قسطنطين وحكمه وعصره ، ينتهي الى القول «بأن قسطنطين لا يستحق لقب العظيم» الذي خلعته عليه الاجيال المتعاقبة بعد ، سواء من حيث شخصيته او من حيث قدراته ومواهبه» .

وفي مجال الكتب الدراسية التي تصلح لطلبة الجامعات أخرج في سنة 1968 كتابا آخر من كتب الوثائق وهو «تاريخ روما حتى القرن الخامس» .ويقع في جزئين : الاول للعصر الملكي والجمهورية والثاني

للامبراطورية . وهو عبارة عن مجموعة من الوثائق استمدها من كتابات المؤرخين القدماء ومن النقوش والبردى والقوانين ، ورغم أن الكتاب يتكون أساسا من نصوص الوثائق الاصلية ، الا ان شخصية جونز واضحة تماما في كل أجزائه . «فهو كتاب في النظم وليس عن احداث التاريخ» . ويظهر في هذا الكتاب ولع المؤلف الشديد وتمكنه من القانون الروماني في شتى مراحله وأبوابه . ولا غرو فقد كان يستظهر كثيرا من نصوص القانون الروماني وقد نشر ، فعلا ، عددا من الدراسات في الدستور والقانون الروماني في عدد من المجلات العلمية ، ثم جمعها في كتابه (دراسات في نظم الحكم والقانون الروماني) «1960» . وبعد وفاته نشر له كتاب عن نظم المحاكم الرومانية

The Criminal Courts of the Roma Republic and principale «1971»

وكلا هذين الكتابين يدل على علو كعبه في مجال الدراسات القانونية الرومانية . وبعد أن نشر جونز كتابه الكبير عن العصر الاخير من الامبراطورية الرومانية ، تبين للجميع أنه فوق مستوى القاريء العام المثقف او حتى طلبة الجامعات ، ولذلك استجاب لمن طلبوا منه ان يخرج كتابا مختصرا مبسطا عن هذه الفترة ، فكتب الكتاب الذي يحمل عنوان «اضمحلال العالم القديم» (1968) . ورغم أن هذا الكتاب الاخير يعتبر مختصرا للكتاب الكبير ، الا انه اكتسب اهمية مستقلة بمجرد ظهوره . وذلك لان جونز من الافراد الذين لا يعيدون أنفسهم ، ويكرهون ذلك أشد الكره . فما ان هم بكتابة الكتاب المبسط المختصر . حتى أقبل عليه بحماسه المألوف ، وكأنه أمام عمل جديد . واذا بالاسلوب يزداد سهولة ويكاد يختفي منه الجفاف العلمي الصارم ، ولكن أهم من ذلك اذا ببعض آرائه واتجاهاته تزداد وضوحا وبلورة وكأن كل نقطة تعرض لها قد عاناها عقله من جديد .

هذا مجمل لاهم مؤلفات مؤرخنا الكبير ، ولكن هذه المؤلفات ترتكز

على عدد كبير ، يبلغ المئات ، من المقالات والدراسات العلمية المنشورة في شتى الدوريات العلمية في أرجاء العالم ، هذا عدا بعض الفصول التي أسهم بها في بعض المؤلفات مثل فصله عن «مصر الرومانية» في كتاب تراث مصر ، وفصل عن أثينا واسبرطه في كتاب «العالم الاغريقي» نشر H. Loyd - Jones (في سلسلة Penguin) وفصل «معالم الحضارة الاغريقية في سوريا وفلسطين» في كتاب «بوتقة المسيحية» .

أشرف على نشره المؤرخ ارنولد توينبي ، وفصلين عن قسطنطين

وجستميان في دائرة المعارف اليابانية .

أما عن حياة المؤلف فهي مثل سير كثير من العلماء ، تكاد تكـــون خالية من عوامل الاثارة والاحداث الهامة . وانما هي حياة علم وبحث ، فكما أن العالم يعمل في معمله أو مختبره ، كذلك كان جونز يعمل فــــي مكتبته ، يبغض الحياة العامة ويعزف عنها . ولد سنة 1904 وامضـــى السنـــوات الخمســـة الاولى مـــن حياتـــه في الهنـــد حيث كان أبـــوه يعمل بالصحافة . ثم عاد الى انجلترا في سن الخامسة ليلتحق بالمدارس ، وتخرج من جامعة اكسفورد متخصصا في الدراسات القديمة . وفي سنة 1926 عين لتفوقه زميلا في كلية All Souls التي تقتصر عضويتهـــا على الباحثين الذين يتفرغون للبحث العلمـــي دون التدريـــس والقـــاء المحاضرات . وفي هذه المرحلة شارك في اجراء بعض الحفائر الاثريـــة في جرش بالاردن وفي القسطنطينية مع Talbot Rice ولكنه أدرك أن الآثار وحفائرها ليست المجال الذي هيىء له . فقد كان «يضيق بساعات وأيام الانتظار التي تنقضي في ازاحة الرمال» رغم أنه ظل طيلة حياتـــه مهتما بالآثار دراسة وزيارة لاحفرا وتنقيبا ، وكان يفاخر دائما بأنـــه زار معظم مواقع الآثار الرومانية في العالم . ويبدو انه في هذه المرحلة قرر أن يتجه الى دراسة الامبراطورية الرومانية ، فحضر الى مصر وعمل أستاذا مساعدا في التاريخ القديم في جامعة القاهرة من سنة 1928 الـــى 1933 . وكثيرا من كبار أساتذة التاريخ المصريين تتلمذوا عليه في هذه الفترة ، ويروون الكثير من النوادر عن تشدده وانخفاض درجاتـــه فـــي الامتحانات ، وهي حقيقة عرف بها طيلة حياته كأستاذ في شتى الجامعات التي عمل بها . ولكنهم يتحدثون أيضا عن روحه الانسانية وعطفه الـــذي شمل به كل من عرفه . وظل بعد ذلك يذكر تلك الفترة التي قضاها في مصر بكل حب واعزاز وفي سنة 1934 عاد الى أكسفورد ليقوم بتدريس التاريخ القديم ، وبدأ في اخراج كتب الفترة الاولى التي سبقت الاشارة اليها .

وأهمها كتابا المدن . حتى اذا كانت سنة 1939 نشبت الحـــرب العالمية الثانية ، فألحق بالعمل في وزارة العمل البريطانية ، مع بيفيـــن الذي أصبح وزير خارجية حكومة العمال بعد الحرب . ولابد أنه أفـــاد كثيرا من العمل في وزارة العمل ، فان تحوله للاهتمـــام بالدراســـات الاجتماعية والاقتصادية حدث في ذلك الوقت . ورغم بغضه الشديد للاعمال الادارية ويراها مملة ومضيعة للوقت . الا ان لعمله الاداري في فترة الحرب

منزلة خاصة عنده ، يذكرها ويضرب منها أمثلة مختلفة . فمن ذلك أنه عهد اليه بتدبير الاعداد الكافية من عمال مناجم الفحم (ولعل انتسابه الى اقليم ويلز الفني بمناجم الفحم كان سببا في ذلك) وكانت المشكلة التي واجهته هي تناقص أعدادهم بسبب من التحقوا بالجيش في الحرب . فكان يقارن بين تلك الحال ومشكلة نقص الايدي العاملة في نهاية الامبراطورية الرومانية .

وعندما وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارهااختير سنة 1946 أستاذا لكرسي التاريخ القديم في جامعة لندن ثم تركها في سنة 1951 لتولى كرسي التاريخ القديم في جامعة كمبردج الذي ظل يشغله حتى توفي سنة 1970 .

وتعتبر هذه الفترة الاخيرة أخصب فترات حياته انتاجا ، فأخرج مجموعة مؤلفات الفترة الثانية أي ما بعد الحرب .

وفي هذه الاثناء دعى لالقاء المحاضرات كأستاذ زائر في كثير من الجامعات الكبرى في شرق اوروبا وغربها وأمريكا . كما حضر الى مصر استاذا زائرا لجامعتي الاسكندرية والقاهرة في شتاء 1964 ـ 1965 فجدد صلاته بأصدقائه وتلاميذه القدماء وتتلمذ عليه جيل جديد لم يكن يعرفه .

وكان جونز محبا للحركة والرحلات الاثرية ، لا يدع فرصة تفوته في هذا المجال . فأثناء زيارته الاخيرة لمصر زار بعض المواقع التي لم يكن قد زارها من قبل مثل معبد ابي سمبل ودير سانت كاترين وكان يطمع في ان يزور واحة سيوه ولكن الظروف لم تمكنه . وذات يوم طلب مني أن أزور معه موقعا به آثار رومانية قرب الاسكندرية ، هو كوم تروجه فأخبرته بمشقة الوصول اليه لبعده عن العمران في داخل الصحراء ، وأن هذه الرحلة تستلزم سيرا على الاقدام مسافة سبعة كيلومترات ذهابا ومثلها ايابا من أقرب مكان يعمر بالسكان . وكنت أقول له هذا مشفقا عليه وهو في سن الستين . ولكن تحذيري لم يجد معه ، وكان رده أنه يسير عشرين كيلو مترا .

اما عن شخصيته وموقفه من الحياة العامة ، فقد اتسم بالصفة الانسانية البعيدة عن التحيز القومي او الديني . وقصده التلاميذ من شتى البلاد . كما أنه تميز بالتواضع الشديد وانكار الذات ، وتشدد في الرأي للموقف الذي يتخذه . كما كان ميالا للوحدة ، قليل الكلام ، ينأى عن

الحياة العامة والصخب . اما عن موقفه من الحياة العامة ، فهو مثل غيره من اليساريين المثقفين ، يغلب عليه طابع التحرر والاعتدال . حيث أنه حين اعتدت بريطانيا على مصر في سنة 1956 كان من بين الاساتذة الذين وقعوا عريضة احتجاج واعتراض على عمل حكومة المحافظين آنذاك . وهو من المؤمنين بالديمقراطية أشد الايمان . فحين عرضت عليه بعض الجامعات الامريكية أن تعينه أستاذا بها رفض قائلا انني لا أترك انجلترا الا اذا قامت الدكتاتورية .

الامبراطورية الرومانية العصر الاخير (284ـ602 م) : دراسة اجتماعية واقتصادية وادارية .

A.M.M. Jones, The Later Roman Empire (284-602) A Social, Economic and Administrative Survey, 3 vols., Black well, Oxford, 1964)

للامبراطورية الرومانية منزلة خاصة في التاريخ يختلف عن منزلة غيرها من الدول والامبراطوريات . ولا ترجع اهمية هذه الامبراطورية تاريخيا الى أتساع رقعتها ، اذ أنها امتدت من بريطانيا غربا الى الهند شرقا ومن نهر الراين في المانيا شمالي الى السودان جنوبا ، ولاترجع لطول امتدادها التاريخي ، اذ ابتدأت في القرن الثالث ق.م. واستمرت الى القرن الخامس في الغرب والى القرن السابع في الشرق ، ولا ترجع ايضا الى انها حققت قمة حضارية في تاريخ الانسانية تفوق ما حققته الدول والامبراطوريات الاخرى . فما من شك ان مصر القديمة والعراق القديم واليونان ، حققوا جميعا انجازات حضارية تفوق انجازات الامبراطورية الرومانية في اكثر من وجه . وانما السبب الحقيقي لاهميتها هو انها تجربة فريدة في التاريخ لم تحدث من قبل في التاريخ القديم ولم تتكرر بعد ذلك في العصور الوسطى او الحديثة الى الآن . وذلك لانها حققت الى حد بعيد فكرة الدولة العالمية ، وهي فكرة طالما راودت عقول المفكرين ولعبت برؤوس القواد ، ولكنها لم تتحقق الا في الامبراطورية الرومانية ، وقد نتج عن ذلك ان احتوت الامبراطورية جميع الحضارات القديمة السابقة عليها باستثناء الهند والصين . ونظرا لوقوع الامبراطورية الرومانية تاريخيا في نهاية العصور القديمة ، فقد اعتبرت ممثلة للعالم القديم وحضارته أيضا . ومن ثم كان سقوطها يعني نهاية العالم القديم بأسره . وبعده جاءت العصور الوسطى بمعالم سياسية وحضارية مختلفة أشد الاختلاف عما عرف في العصور القديمة جميعا .

واذا كان الاوروبيون قد اهتموا بدراسة الاغريق والرومان منذ

بداية عصر النهضة الاوروبية ، لقيمتها الذاتية ولانهما يمثلان الاساس الحضاري القديم لاوروبا ، الا انه مع نضج النظرة العلمية للدراسة التاريخية في اوربا ، وجدنا الامبراطورية الرومانية بالذات تحتل منزلة فريدة تفوق غيرها من الدراسات التاريخية الاخرى . فمع نضج النظرة العلمية للتاريخ ، أدرك المؤرخون أن الحلقات الكبرى في التاريخ هي حلقات حضارية شاملة ، وليست لدول وشعوب محدودة . ومنذ أن اتضحت هذه الفكرة ، أصاب المؤرخين الاوروبيين قلق حول مستقبل حضارتهم الحديثة التي لا يريدون لها الاضمحلال والسقوط . ولعل هذا هو الدافع الذي حفز عددا من أفذاذ المؤرخين الاوروبيين للتوفر على دراسة الامبراطورية الرومانية وأسباب اضمحلالها وسقوطها ، باعتبارها ممثلة لحضارة العالم القديم لعلهم يتعرفون من وراء ذلك على بعض العوامل التي تعمل في المجتمعات الانسانية قوة وضعفا ، فيفيدون من عوامل القوة ويتخلصون من عوامل الضعف في مجتمعهم الحديث .

وأول من فطن لهذا المعنى المتمثل في العصر الاخير للامبراطورية الرومانية هو مؤرخ القرن الثامن عشر جيبون في كتابه الخالد «اضمحلال وسقوط الامبراطورية الرومانية» E. Gibbon, The Decline and Fall of Roman Empire

حتى اذا كانت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين تصدى المؤرخ الالماني سيك للفترة ذاتها :
O. Seeck, G. eschichte des Un Tergangs der Antiken welt (1897 ـ 1921) . وأعقبه بيوري (1923) J.B. Bury, A History E. Stein : His

ومن بعده بكفاءة أعلى شتاين (1949 ـ 1959) وفي الوقت نفسه نشر لو كتابه (1951) E. Stein : Mis Torve du Bas - Empire F. Lot, La Fin du Monde Antique ولكن رغم هذه الدراسات التاريخية الراقية ومثيلاتها ، ظلت هناك فجوة في دراسات العصر الاخير من الامبراطورية الرومانية . فهذه الدراسات جميعا رغم جودتها تكاد تكون قاصرة على التاريخ السياسي والعسكري والديني ، ومنها ما يتعرض لقضايا الادارة والنظم او يلم الماما سريعة ببعض المظاهر الاقتصادية والاجتماعية . وبعبارة أخرى ظلت النظم الاجتماعية والاقتصادية والادارية بمشاكلها وتعقيداتها ، وتأثيرها في الحياة العامة والسياسية والحكم والحرب والدين في حاجة لمعالجة شاملة كبرى .

وهذه هي المهمة التي تصدى لها مؤرخنا هيوجو جونز .

بعد هذا التقديم بحالة الدراسات للعصر الاخير للامبراطورية الرومانية ، لعل أحسن وسيلة لتقديم الكتاب الجديد هو أن ندع المؤلف يتحدث بنفسه ، حيث يقول في المقدمة :

«ليس هذا الكتاب تاريخا للعصر الاخير من الامبراطورية الرومانية انه عرض تحليلي واقتصادي واداري للامبراطورية ، معالجا تاريخيا . ولذلك سأتحدث قليلا عن الحروب ، ولكن كثيرا عن نظام ومصادر التجنيد وأحوال الخدمة في الجيش . ولا أشغل نفسي كثيرا بالسياسة ، ولكني أبحث في تكوين الطبقة الحاكمة ، والجهاز الاداري وبناء طائفة موظفي الحكومة . وكذلك سأتحدث قليلا عن الانقسامات المذهبية المسيحية ، ولكن كثيرا عن نمو كهنوت الكنيسة . واني لاهمل اكبر الانجازات العقلية لهذا العصر وهما الفقه والقانون ، ولكني ابحث نظم الكنيسه وماليتها ، ونظم اقامة العدالة ، والحالة الاجتماعية لرجال الكنيسة ورجال القانون . وبالمثل لا يشتمل الكتاب الا على القليل من الادب والتعليم والفن والعمارة ، ولكنه يشتمل على الحديث عن الجامعات والمدارس والمهندسين والفنانين وصناعة البناء» .

يتضح من هذه الافتتاحية اي نوع من الكتب هذا الكتاب الجديد ، ذو الثلاثة أجزاء وجزء رابع خاص بالخرائط . فهو كتاب للنظم بشتى أنواعها قبل كل شيء . ولكن دراسة النظم ليست غيرها من الدراسات ، كما ان طريقة تنظيمها تختلف عن طريقة تنظيم تواريخ الدول السياسية والحروب . ويحدثنا المؤلف مرة ثانية عن كيفية معالجته لهذه المشكلة . فيقول : (المقدمة) «لقد وجدت مشقة كبرى في عرض وتقديم ما لدى من مادة . من الناحية المثالية يجب ان يكتب العمل التاريخي على اساس التسلسل الزمني ، الذي لا يقتصر فقط على اظهار التطور الذي طرأ في وقت معين على كل عنصر في البناء العام بل كذلك التداخل والتفاعل بينها . ولقد ثبت في مجال دراستي هذه استحالة تحقيق ذلك . ففي كثير من مجالات الحياة كادت الاحوال ان تكون غير متغيرة — أو لعلها تبدو كذلك لنقص الادلة التفصيلية . وفي اكثر الحالات كانت الحركة من البطء بحيث ان خيط الاستمرار في كل منها لايكاد يتضح ، اذا أنا قمت بدراسة الموضوع برمته في كل عقد او حكم او حتى قرن من الزمان . ولهذا قمت بتنظيم مالدى من مادةحسب الموضوعات ، معالجا كل موضوع حسب التسلسل الزمني قدر المستطاع . ولكني شعرت ان القاريء الذي ليست لديه ألفة بالعصر ، قد تغمض عليه معالم التطور العامة ، فرأيت أن أسلك

طريقا وسطا ، بأن يسبق القسم الخاص بالفصول التحليلية للنظم ، قسم يشتمل على سلسلة من الفصول القصيرة للسرد التاريخي . في هذا القسم قمت بعرض للتاريخ السياسي والحربي والديني ، مع تأكيد العاملين الاجتماعي والاقتصادي» .

على أن العقبة الكبرى بالنسبة للدراسات الاجتماعية والاقتصادية في التاريخ هي الحصول على المعلومات الاساسية الصالحة لمثل هذه الدراسات . وهي وان كانت ممكنة بالنسبة للدراسات الحديثة ، فذلك راجع الى وجود الاحصاءات والاسعار والمعلومات اللازمة لتفسير الظواهر الاجتماعية والاقتصادية . ومع ذلك فكثيرا ما لاتتوفر هذه المعلومات حتى بالنسبة للعصور الحديثة ، وكثيرا ايضا ما تكون هذه المعلومات حتى بالنسبة للعصور الحديثة ضعيفة، فيسهل الزلل ويقع الخطأ، فاذا حاولنا تطبيق هذه الدراسات بالنسبة للتاريخ القديم ، اصبح الامر اكثر مشقة والخطأ أكثر احتمالا . ونحن نعرف أن المؤرخين القدماء قلما اهتموا بالموضوعات الاجتماعية والاقتصادية ، وما لديهم من معلومات من هذا القبيل ، فهي ترد عرضا دون ان تقصد لذاتها . ونتيجة لذلك كانت المعلومات ذات القيمة الاجتماعية والاقتصادية مبعثرة في المصادر وقد نعثر عليها حيث لا نتوقع وجودها . ولذلك كان لزاما على الدارس الحديث ان يستقصي المصادر القديمة بعناية شديدة ، وعليه ان ينقد ما يجد من معلومات وارقام نقدا صحيحا حتى يتيقن من قيمتها .

وكان على مؤرخنا ان يفعل هذا بالنسبة لمصادر عصره . وليس ذلك بالامر الهين ، فهي من الوفرة بحيث «ان حياة بأسرها لا تكفي لقراءتها جميعا» . وهو قول لا مبالغة فيه ، فان سير الاباء المسيحيين فقط تكاد تتعدى المئات من المجلدات ولذلك يخبرنا المؤلف انه استبعد من كتابات العصر كتب الفقه المسيحي وشروح التوراة ، باستثناء ماله قيمة تاريخية منها . عدا ذلك قرأ جميع كتب التاريخ سواء اليونانية أو اللاتينية او السريانية (الاخيرة مترجمة) ، وكذلك جميع الخطب والرسائل وقصائد وخطب المدح ، وكل البردى الذي تم نشره وبعض ما لم ينشر ، وكذلك النقوش الكتابية على الحجر ، أما المجموعات والمنشورات القانونية ، فيقول أنه قرأها واعاد قراءتها مرات عديدة . وبالنسبة للعملة استقصى كل مانشر منها وافاد من علماء العملة الذين استشارهم ، أما بالنسبة للاثار فانه زار المواقع الاثرية في 94 ولاية من مجموع الولايات الرومانية البالغ

عددها 119 ولاية . بل لعل حرصه على زيارة اكبر عدد ممكن من المواقع الاثرية للامبراطورية كان من اسباب تأخر صدور الكتاب . وحتى الاماكن التي لم يتمكن من زيارتها ، فقد كان ذلك راجعا لظروف خارجة عن ارادته . بسبب الاضطرابات السياسية او الحربية ، أو لان بعضها يقع في مناطق عسكرية . .

من هذه المقدمة يتضح لنا أولا سعة احاطة المؤلف بمصادر عصره ، حتى لقد قيل انه لم يوجد شخص اخر اكثر منه دراية وعلما بأحوال الامبراطورية الرومانية . ويتضح لنا ثانية مقدار استعداده العقلي لمعالجة موضوعات الاجتماع والاقتصاد والادارة بصفة خاصة . أما من حيث التنفيذ العلمي لمشروعه ، فقد قسم كتابه الى قسمين ، كما جاء في المقدمة ، قسم للعرض التاريخي (ص 3 الى 318) وقسم للوصف التحليلي للنظم (ص 321 الى 1068) .

وهو يبدأ القسم الاول بفصل تمهيدي عن الامبراطورية قبل دقلد يانوس ، اي في القرون الثلاثة الاولى . وفي هذا الفصل يحدد مراكز القوة . في بناء الامبراطورية ، وهما مجلس السناتو (مجلس الشيوخ) والجيش . كان السناتو لايزال ايطاليا في اكثرية اعضائه ، وعدد قليل من الولايات اللاتينية الغربية ، وعدد أقل من الولايات اليونانية الشرقية . وكان يمثل الطبقة الارستقراطية الاكثر ثراء في الامبراطورية . لذلك لم يكن غريبا أن تعلقوا بالمبادىء الجمهورية الرومانية ــ رغم تقادم العهد عليها ، ومن ثم كانوا يميلون الى الاخذ بمبدأ اختيار الامبراطورية ويقاومون الاخذ بمبدأ الوراثة فيمن يلي العرش (ص 3 و 21) .

أما الجيش فكان يمثل المواطنين العاديين في انحاء الامبراطورية ولا يحفل كثيرا بالمبادىء والقواعد الدستورية ، وكان ولاؤهم لشخص الامبراطور واسرته . ونظرا لان اكثرهم لم ير ان له مصلحة شخصية مباشرة في الحياة السياسية لذلك كانوا يفضلون الاخذ بمبدأ شرعية الامبراطور عن طريق الوراثة . ويتضح هذا الاختلاف بين موقفي السناتو والجيش في عدة مناسبات مثلما حدث عندما قتل الامبراطور كاليجولا ، أعد السناتو الخطة لاستعادة الجمهورية ، بينما أفسد عليهم الجيش خططهم باعلان كلوديوس امبراطورا ، لا لصفة يتميز بها غير انه من اسرة الامبراطور . ولكن موقف الجيش هذا وتعلقه بالاشخاص اكثر من حرصه على الدستور او النظم ، احيانا ما كان يفوز به قائد ماهر ، فيكتسب

ولاءهم في فترات الاضطراب ، كما حدث للقائد تسيبسيان الذي نال ولاء جنوده واعلن نفسه امبراطورا . وبعد ذلك بقي الجيش على ولائه لابنائه (ص 3 ــ 4ــ) . لذلك لم يكن غريبا ان مال الاباطره الي جانب الجيش واغدقوا عليه الهبات ، بينما ناصبوا السناتو العداء ، وحاولوا الاضعاف من نفوذ اعضائه : ضمن ذلك استبعاد تعيين القواد العسكريين من بين صفوف السناتو ، وتفضيل الطبقة المتوسطة في ذلك (وهي الطبقة التي عرفت اصطلاحا باسم طبقة الفرسان) (ص 24) .

أما من حيث الظروف الاقتصادية التي سادت الامبراطورية ، فما من شك ان القرن الثاني الميلادي كان اكثر عصور الامبراطورية سلاما ورخاء وازدهارا .ولكن ما أن اقترب القرن الثاني من نهايته حتي بدأت تنتاب الامبراطوريه هزات عنيفه ، هجمات المتبربرين بعنف على الحدود الاوروبية ، وتصدع النظاما لاداري في الولايات ، وزيادة في الضرائب للانفاق على الحروب . وتتابعت الازمات في القرن الثالث ، حين انقسم ولاء الجند بين ادعياء العرش ، مما ادى آخر الامر الى تعاقب الحروب الاهلية . وقد أطلق على هذه الفترة اسم المحنة الكبرى للامبراطورية فانهار الوضع الاقتصادي للامبراطورية وكان من اكبر ، مظاهره حدوث التضخم المالي في القرن الثالث وارتفعت الاسعار بشكل لم يؤلف من قبل . وهو يستشهد على هذه الحالة ــ بوثيقة بردية ، نادرة المثال ، عثر عليها في البهنا بصعيد مصر . وفيها يطالب النساجون في تلك البلدة بزيادة الاسعار لانتاجهم بسبب زيادة اسعار المواد الخام ، وزيادة اجور العمال » (ص 28) . ونتيجة للتضخم المالي وانخفاض سعر العملة هجرت الدولة الاقتصاد المالي الذي كانت العملة اساس التعامل فيه ، الى الاقتصاد العيني الي حد بعيد ، بحيث اصبحت كثير من الضرائب تجمع عينا من السلع والمحاصيل ، وكذلك جزء كبير من الرواتب كان يدفع في صورة مواد تموينية وثياب (28 ــ 31) .

ومما زاد الامر اضطرابا تفجر موجات الاضطهاد والتنكيل ضد المسيجيين ، الذين كانوا لايزالون أقلية دينية ، رغم زيادة انتشارهم . وكان موقف الحكومة الرسمي هو ان اسباب الكوارث وان العناية الالهية (Pax deorum) قد تخلت عن الامبراطورية لانها سمحت بوجود المسيحيين الذين لا يتعبدون لالهة الامبراطورية . ومن ثم كان لابد من القضاء على الحركة المسيحية ، وقد تمثل هذا الموقف في اضطهاد الامبراطور ديكيوس ضد المسيحيين (33 ــ 34) .

بعد هذا التحليل لفترة المحنة الكبرى في القرن الثالث ، يعقد المؤلف فصلا عن دقلد يانوس فقد استطاع من بين صفوف الجند ان يكتسب ولاءهم وان يعلن نفسه امبراطورا . ويعتبر جونز حكم دقلد يانوس بداية العصر الاخير للامبراطورية نظرا لما استحدثه من نظم سارت عليها الامبراطورية بعده حتى عصر جستنيان . ولعل أعظم انجازات دقلد يانوس – في نظر جونز – هي انه حكم احدى وعشرين سنة واعتزل الحكم باختياره وقضى باقي ايامه في سلام (40) . وقد يبدو عند الوهلة الاولى ان في هذا القول شيئا من المبالغة . ولكن هذا الرأي يصبح اكثر اقناعا بالنظر الى الفترة السابقة عليه ، حين بدا ان تحقيق الاستقرار السياسي امر مستحيل : الامبراطور جالبينوس فشل في القضاء على حركات التمرد والعصيان ، والامبراطور اوريليان قتل بعد خمس سنوات من الحكم ، والامبراطور تاكيتوس حكم ستة اشهر فقط ، وأخوه غير الشقيق فلوريان هزم بعد ثلاثة أشهر فقط امام مدعي آخر للعرش وهو بروبوس . ودام حكم بروبوس ست سنوات واجه فيها أربع ثورات ، ثم مات مقتولا بواسطة وزيره كاروس . وكاروس بدوره مات في ظروف غامضة بعد أقل من سنة واحدة ، ولحق به ابنه على يدي وزيره أبير . وأخيرا قتل أبير بواسطة دقلد يانوس الذي اعلنه الجند امبراطورا .

ودقلد يانوس من كبار المصلحين الذين عرفتهم الامبراطورية الرومانية ولكنه مصلح من النوع المحافظ ، أي انه كان يريد ان يعيد الامبراطورية الرومانية الى سابق شأنها ، ولذلك لم يكن غريبا أن تحمس للالهة القديمة ألتي رعت الامبراطورية من قديم ، وشن اكبر وآخر اضطهاد عرفه المسيحيون . ولكن أعماله الاخرى كانت اجدى على الامبراطورية وأبقى .

في علاجه لعصر دقلد يانوس يتبع المؤلف منهجه التقليدي الذي التزم به في فصوله الاخرى ، فهو يبدأ بعرض وتقييم مصادره ، منبها القارئ لمواطن القوة والضعف في كل منها . فرغم أن أخبار دقلد يانوس قد وصلتنا عن طريق عدد من المصادر القديمة ، الا اننا لازلنا نفتقر لمؤرخ سياسي معاصر لدقلد يانوس في حين أن المؤرخين المعاصرين او الذين كتبوا بعد عصره مباشرة ووصلتنا كتاباتهم وهم من مؤرخي الكنيسة الذين يجب أخذ كلامهم عن دقلديانوس بحذرشديد . وذلك مثل تواريخ يوسيبيوس ولكتانتيوس Lactantius فكلاهما يكتب من وجهة نظر مسيحية محضة ويجعل الاضطهاد الديني الذي تعرض له المسيحيون هدفا أساسيا لكتاباتهما ومع ذلك فقيمة كتاباتهما الحقيقية فيما تضمنه من أخبار

معاصرة تلقى ضوءا كثيرا على الظروف والحياة العامة للعصر . وكذلك الحال بالنسبة لكتب « الشهداء » ، التي وصلنا عدد منها . ثم هناك الكتابات المتأخرة ـ غير المعاصرة ـ وهي أقل قيمة ولكنها لا تخلو من فائدة بطبيعة الحال . ولكن هذا الضعف بالنسبة للمصادر الادبية تعوضه المصادر القانونية بعض الشيء . فقد اشتمل العمل القانوني الذي قام به جستنيان والمسمى «المنتخب» (Degest) على نحو ثلاثمائة
قام به جستنيان والمسمى «بالمنتخب» (Digest) على نحو ثلاثمائة
المجموعة من القوانين ذات قيمة محدودة بالنسبة للمؤرخ ، لانها جميعها تنتمي الى العقد الاول من حكم دقلد يانوس . غير أن هذا النقص في المصادر القانونية يلقى تعويضا لابأس به في الوفرة من النقوش والبردي التي عثر عليها من عصر دقلد يانوس ، ويضاف اليها اخيرا كتاب :

Notitia Dignitatum «اي سجل المناصب الكبرى في الامبراطورية» .

وهكذا بعد أن يطلعنا المؤلف على أحوال مصادره ، يبدأ في العرض لعصر دقلد يانوس ، موجزا الاحداث والحروب اولا الى اقل حيز مستطاع . وهنا يشعر القاريء كأن المؤلف مضطر الى ذلك اضطرارا ، ولهذا تتسم فقرات الحروب بطابع السرد ، وهو لايكاد يحفل بالجوانب الحربية أو العسكرية المحضة ، استراتيجية أو تكتيكية ، ولكنه لايغفل أبدا تكوين الحمله الاجتماعية وأعوادها وأسماء قوادها وطبقاتهم وجنسياتهم ، ثم تكاليف الحملة ومصادر الانفاق عليها ، كلما توفرت لديه مثل هذه المعلومات . ولكن حيوية المؤلف الذهنية تتألق وتكتسب كتابته أسلوب التحليل العلمي الدقيق حين يتجه الى تحليل الشخصية التاريخية ودوره التاريخي بالنسبة للنظم بصفة خاصة . فبالنسبة لشخصية دقلد يانوس يقول :

«وتظهر قصة احداث هذه السنوات أيضا أن الاجهاد من الحرب ليس ضمانا كافيا ضد الحروب الاهلية ، وأن فريق الاباطرة (الذين أشركوا في الحكم) لم يكن بالضرورة متناسقا . في الواقع انها تظهر بقوة أن شخصية دقلد يانوس المسيطرة هي التي منحت الامبراطورية عشرين سنة من السلام النسبي . وان العمل الذي أنجزه ليبدو اكثر روعة ، نظرا لان دقلد يانوس ـ مع كونه جنديا قديرا ـ لم يكن قائدا عظيما ، وعهد بحكمه الى زملائه في الحكم بقيادة الحملات الكبرى . أما عبقريته فتتجلى في مواهبه التنظيمية ، وأثناء سني حكمه العشرين أقام بناء اداريا محكما منح الامبراطورية فرصة جديدة للحياة» .

وتظهر جهود دقلد يانوس التنظيمية في مجالات ثلاثـــــة : الادارة والجيش والمال . وكانت أعظم انجازاته في مجال الادارة ، بعد أن رأى النظام السابق قد تعرض للتفكك والانهيار . ورأى أن من العسير أن تدار أمور الامبراطورية على اتساعها عن طريق ادارة مركزية واحدة . فاتخـذ الخطوة الاولى نحو تقسيم الامبراطورية الى قسميها الاساسيين الشرقي والغربي . وبدلا من أن يستأثر بالسلطة العليا في القسمين ، أقام زميـلا له ومكافئا له في السلطة في القســـم الغربـي وهـــو مكسيميـــان (Maximianus) ومنحـــه اللقـب الامبراطــوري «أغسطس» (Augustus) واقتصرت مسؤولية دقلد يانوس على القســـم الشرقي ، واقتصر تميزه على زميله باعتباره (Sinior Augutus) ولكن العلاقة بينهما تتمثل بصورة أوضح في الاسماء المقدسة التـــي اتخذها كل منهما ، وهما جوفيوس Jovius هرقلويـس Herculuis فدقلد يانوس هو الممثل على الارض لجوبيتـر (Jupiter Optimus Maximus) رب الالهة والناس ، ومكسيميـان هو الممثل لهرقل ، رسوله البطل لنزع الشرور التي اصابت العالم . وبعد ذلك ألحـق بكـل امبراطور «اوغسطس» وكيـل مساعـد يلقب «قيصـر» (Caesar) (ص 38) وهكذا يمكن ان يقال أنه وجد أربعة حكام للامبراطورية .

ثم انه استبعد أعضاء السناتو من التعيين لمنصب حكام الولايات ، واعتمد على الطبقات الاقل . وفي الولايات التي بها حاميات عسكرية فصل بين السلطتين المدنية والعسكرية . ومن أجل أحكام العمل الاداري وعملا بمبدأ اللامركزية ، قسم كلا من قسمي الامبراطورية في الشرق والغـرب دوقياس Dioeceses تشتمل كل منها على عدد من الولايات .

هذه هي المعالم الرئيسية لاصلاحات دقلد يانوس الادارية في أبسط خطوطها وما من شك أنها حققت قدرا كبيرا من الكفاءة الادارية ، ولكنها حققت ذلك بقدر أكبر من التكاليف ، لان سياسة تفتيت المناصب الكبرى وانشاء ادارات جديدة لاقسام الامبراطورية الجديدة ، أضافت عبئا ماليا جديدا على المالية . ويقدر المؤلف تكاليف هذا الاصلاح الاداري بما يعادل تكاليف خمس فرق من الجيش تقريبا . وهو يعتبر ذلك عبئا ثقيلا علـى امبراطورية منهكة (ص 43 ــ 51) .

أما بالنسبةلاصلاح الجيش فيبدأ المؤلف حديثه باقتباس فقـرة معروفة للمؤرخ زوسيموس (Zosimus) يقارن فيها بين موقف كل من دقلد يانوس والامبراطور قسطنطين من الجيش ، حيث يقول :

«بفضل نظرة دقلد يانوس الثاقبة ، حشدت حدود الامبراطورية في كل مكان بالمدن والحصون والقلاع ، كما سبق أن ذكرت (الفقرة مفقودة) ، واقيم الجيش بأسره عندها ، بحيث كان من المستحيل على المتبربريـن اقتحامها ، لان قوات الدفاع صدت المعتدين في كل مكان . أما قسطنطين ، فدمر هذا النظام الدفاعي ، لانه سحب معظم الجنود من الحدود ، وأقامهم في المدن التي لم تكن في حاجة الى الحماية» . ولكن المؤلف لا يقبل مثل هذه التعميمات في لغة المصادر ، ويضيف انه وجدت في عصر دقلد يانوس وكذلك من قبله ـ في الاعم الاغلب ـ قوة متحركة تحت قيادة الامبراطور مباشرة ، وكانت تصاحبه في كل تنقلاته ، ومن ثم سميت «قوة المعيـة» (Comitatus) ولا ثبات وجود هذه القوة تحت دقلد يانـوس ، يستشهد الملف بثلاثة نقوش لاتينية وبوثيقة برديـة ويكتب أعمـال الشهداء المسيحيين . أما بالنسبة لوجودها قبل دقلد يانوس فيستنتجـه المؤلف من سجلات محاكمات الشهداء في شمال افريقيا على النحـو التالي :

يسأل الموظف المختص بالمحاكمة المتهم المسيحي ، واسـم فكتور ، عن حاله وعمله . ويرد فكتور بقوله انا استاذ للادب والنحـو اللاتيني .. وكان والدي عضو المجلس في مدينة قسطنطينة ، وكان جدي جنديا وكان قد خدم في قوة المعية (Comitatus) لان اسرتي مـن بربر شمال أفريقيا «ولما كان فكتور أستاذا للنحو وقارئا في الكنيسـة في سنة 303 ، عام الاضطهاد الاكبر ، فلابد أن جده خدم في قوة العمية قبل عصر دقلد يانوس ومما يزيد في اهمية هذا النص انه يطلعنا على جانـب من تكوين قوة المعية اجتماعيا ، وأنها اشتملت على وحدات من بربـر شمال أفريقيا .

هذا مثال من طريقة المؤلف في نقد المصادر ومناقشتها . وبعد ذلك يستمر في تحليل تكوين «قوة المعية» وطرق تدعيمها عند الحاجة لتوجيـه بسرعة الى منطقة مضطربة . ويضيف اليها قوة الحرس الامبراطـوري Scholae التي يعتقد ان دقلد يانوس هو مؤسسها ، رغم أنهـا تظهر في المصادر الاولى في نهاية عصر قسطنطين ، مستخدما المنهج ذاته .

وأخيرا يعود المؤلف الى عبارة زوسيموس السابقة ويقول أنها ـ بعد النقد السابق ـ صحيحة في أساسها ، وإن اهتمام دقلد يانوس الاكبر اتجه الى تحصين حدود الامبراطورية ، يؤكد ذلك النقوش والدليل الاثري الذي يوضح جهوده في بناء الطرق العسكرية والحصون . في شمال افريقيا وسوريا وحدود شبه الجزيرة العربية وعلى الراين والدانوب (55 ـ 56) .

بعد ذلك يدخل المؤلف في دراسة تفصيلية محاولا معرفة حجم الجيش على عصر دقلد يانوس ، مستخدما المصادر بشتى انواعها الادبية والوثائقية من نقوش وبردى وكذلك النصوص القانونية . وينتهي الى ان الجيش زاد حجمه الى الضعف على عهد دقلد يانوس . ولكن اذا كانت هذه الزيادة قد حققت السلام على الحدود والامن في الداخل ، فان المؤلف ينبهنا الى أن هذه الزيادة كان لها نتيجتان اخريتان بالنسبة لمستقبل الامبراطورية . والنتيجة الاولى أن الزيادة التي استحدثها دقلد يانوس ألقت عبئا كبيرا على القدرة البشرية للامبراطورية . وعلى سبيل التخفيف على الامبراطورية ، لجأ الى التوسع في استخدام المتبربرين من وراء حدود الامبراطورية ، من الفرنجة والالمان والسكسون والوندال والقوط وغيرهم . وخصص لاستيطانهم مساحات من الارض في ايطاليا والغالة ، بشرط ان يصبحوا هم وأبناؤهم ملزمين بالخدمة العسكرية . ولكن أعداد المتبربرين الذين استطاع استخدامهم في الجيش لم تكف ، وظل العدد الاكبر من المجندين يجمع قسرا من بين أهالي الامبراطورية .

أما النتيجة الثانية لزيادة حجم الجيش فهي العبء الاقتصادي والمالي .

ويوضح المؤلف هذا الموقف بجملة ذات دلالة للمؤرخ لكتانتيوس Lactantuis
«أن اعدادمن تسلموا رواتب واجورا بدأ يفوق اعداد دافعي الضرائب انفسهم (ص 61) .

وبعد ذلك ينتقل المؤلف الى الحديث عن محاولة دقلد يانوس في اصلاح نظام العملة . وهو يجمل رأيه في هذه المحاولة على هذا النحو «بذل دقلد يانوس جهودا صادقة في سبيل اقامة نظام سليم للعملة ، لعله يتحكم بذلك في الاسعار . فأصدر عملة جديدة من الذهب والفضة ، معلمة بأوزانها ، وكذلك اصدر كمية كبيرة من العملة البرنزية المطلية بالفضة . وما من شك أنه كان يقصد الى ايجاد نظام موحد للعملة من الذهب والفضة

والبرنز ، مثل ذلك الذي وجد قبل فترة التضخم . وما من شك أنه فشل . لان ما أصدره من الذهب والفضة كان قليلا قطعا . بينما استمر في اصدار عملته البرنزية بكميات كبيرة . ومن ثم استمرت الاسعار في الارتفاع ، واكتسبت العملات الذهبية والفضية قيمة أعلى من قيمتها الاسمية» .

وفي سنة 301 حاول دقلد يانوس وقف هذا التيار ببيانه المشهور عن الاسعار (Edictum de Pretiis) الذي حدد فيه حدا أعلى للاسعار والاجور بكل تفصيل ، وأنذر بالاعدام كل من يتعداها أو يخبىء سلعته من السوق . ورغم تنفيذ احكام الاعدام بقسوة . فان هذا العمل - كما يقول لكتانتيوس - فشل تماما : فاختفت السلع وسرعان ما اصبح البيان مجرد حبر على ورق» .

رغم هذه المحاولات الفاشلة ، سارع دقلد يانوس الى حماية مصالح الدولة المالية عن طريق اصلاح نظام الضرائب . فقام بمسح شامل لكل ما تقع عليه الضريبة من أرض ودواب وسكان ، وأعاد تقييم الضرائب حسب مساحة الارض وما عليها ، وتوسع في نظام الضرائب النوعية ، حتى لا تتأثر قيمة الضرائب بالتضخم وانخفاض سرعة العملة . ولكن كان من النتائج الخطيرة لهذا الاصلاح - التي ستظهر فيما بعد - هو الاتجاه الى ربط الافراد الذين تستحق عنهم الضريبة بالارض التي يسجل عليها (ص 68) .

حاولت في هذا العرض أن أبين منهاج المؤلف في معالجة عصر دقلد يانوس ، وسوف يلتزم بهذا المنهاج في العصور التالية أيضا ، التي سوف لا اتعرض لها ، كما فعلت بالنسبة لفصل دقلد يانوس . ولقد التزمت في ذلك بالاختصار الشديد الذي يتناسب مع طبيعة هذا العرض والتحليل . ولابد للقارىء أن يرجع الى الكتاب الاصلي ، لان التفصيلات التي يوردها المؤلف وطريقة عرضه لها وتحليلها ونقدها ثم الخروج بنتائجه هي التي تمنح الكتاب قيمته الحقيقية . فالمؤلف لا يحيد عن موضوع مهما بلغت صعوبته ، ويستهويه بصفة خاصة تناول الموضوعات غير المطروقة ، واذا بها في يديه تكتسب أهمية تاريخية لم يلتفت اليها احد من قبل .

قسطنطين هو موضوع الفصل الثالث من الكتاب . وهو فصل له طرافته نظرا لاهمية قسطنطين بالنسبة لتاريخ الكنيسة ، وجونز ليس من مؤرخي الكنيسة بحال . والكنيسة التي يتحدث عنها في فصول كتابه لا تعدو ان تكون مؤسسة اجتماعية اقتصادية ، اما كونها مؤسسة دينية ،

فان ذلك لا يستهويه كثيرا . ومن ثم لا يعتبر دور قسطنطين المسيحي من الاعمال العظيمة . وليس سبب ذلك الموقف أنه يشك في صدق عقيدة قسطنطين اوانه اصطنع المسيحية لاهداف سياسية ، بل يعتقد ان قسطنطين كان صادقا حين اعلن المسيحية . ولكن المؤلف يقيم موقفه من قسطنطين على اساس أنه شخصية تاريخية قبل كل شيء ، وعلى هذا الاساس يصف شخصيته بهذه العبارة : «ان شخصية قسطنطين كما يتضح من أعماله وأقواله تدل على رجل سريع الانفعال ، حاد الطبع ، شديد التدين بأسلوب ساذج ، ولكنه فوق كل شيء طموح للسلطة وشديد الثقة في حسن طالعه» .

ولكن اذا كان مؤلفنا يسلم بصدق عقيدة قسطنطين الدينية ، فهو غير مستعد للتسليم بكل تفاصيل تجربة الامبراطور الدينية . فمن ذلك ماارواه قسطنطين نفسه ، أنه رأى ـ وهو في طريقه الى الحرب سنة 311 ـ علامة في السماء على هيئة صليب من الضوء يعترض قرص الشمس . ويعقب المؤلف على ذلك بأن ليس هناك ما يدعو الى الشك في قوله ، لان الصليب ، رغم كونه ظاهرةنادرة الحدوث ، هو احدى أشكال «ظاهرة الهالة» ، واعتبره وعدا بالنصر . أما قوله انه رأى الكلمات اللاتينية Moc Signo vince (بهذه العلامة انتصر) مكتوبة بالنجوم حول الصليب ، فهو من نسج خياله دون ريب .

على أي حال يعتقد المؤلف ان اعتناق قسطنطين للمسيحية كان حاسما بالنسبة لمستقبل الدين الجديد ، ويرى أنه «لولا اعتناق قسطنطين للمسيحية بمحض الصدفة ، ربما استمرت المسيحية دين أقلية ، كما حدث في الامبراطورية الفارسية حيث لم يعتنق أي ملك المسيحية .. »

أما جهود قسطنطين في مجالات الدولة ، فكانت ذات طابع محافظ وعملي فبالنسبة للجيش كان قسطنطين قائدا قديرا ، وتجربته الشخصية جعلته يعتقد أن الفتن الداخلية أكثر خطرا على الحكم من الغزوات الخارجية . وهو موقف يختلف كما رأينا عن موقف دقلد يانوس الذي كان أبعد نظرا وربما أكثر ثقة بنفسه . لذلك اتجه قسطنطين الى زيادة «جيش المعية» تلك القوة الضاربة المركزية التي كانت تتحرك مع الامبراطور حيث تدعو الحاجة . في حين أنه لم يهتم بحاميات الحدود ، وما ينبغي أن نصدق عبارة المؤرخ الوثنى زوسموس مهاجما قسطنطين باعتباره مسؤولا عن أضعاف دفاع الحدود . فلعل هذا الضعف كان نتيجة لسياسة قسطنطين دون أن يقصد الى اضعافها أو سحب الجنود من الحدود (97 وما بعده) .

على أن أهم اصلاحات قسطنطين الداخلية هي اصدار عملة ذهبية جديدة تسمى الصوليدوس Solidus ، والتي حافظت على وزنها ونقائها الى القرن الحادي عشر (107) . أما عن مصادر الذهب لعملته الجديدة فكانت عن طريق جمع الضرائب بالذهب ، أو شراء الذهب من الاسواق ، ولكن اهم مصدر من غير شك هو ما صادره من أملاك المعابد التي توسع فيها بصورة مضطردة . ونحن نعرف مقدار ثراء المعابد القديمة .ولكن مهما تكن اهمية العملة الذهبية الجديدة لاقتصاد الامبراطورية على المدى الطويل ، فنتائجها المباشرة كانت محدودة . ولعل السبب في عدم تحقيق فائدة مباشرة منها هو جنوح قسطنطين الى البذخ والاسراف . وكان يسره أن يتملقه المادحون بالكرم . وهكذا لم يكفه ماكان مدخرا في خزائن الدولة ، وانفق كل ما صادره من المعابد في غير طائل اقتصادي . فكثير منها تحول من المعابد القديمة الى الكنائس الجديدة . وحين استنفد كل ما تجمع لهمن الذهب فرض ضريبتين جديدتين تجمعان من الذهب (109 ـ 110) .

لذلك لم يكن غريبا انصاغ مؤلفنا حكمه على قسطنطين بهذه العبارة : «لقسطنطين انجازات عظيمة كثيرة . فهو الذي اقام دعائم المسيحية باعتبارها دينا للامبراطورية . كما أنه أنشأ عاصمة جديدة (القسطنطينية) التي قدر لها ان تستمر الف سنة بعد سقوط روما . ونظم جيشا متحركا قويا ، وأرسى قواعد نظام الذهب للعملة . ولكنه من ناحية أخرى ضرب بسلوكه مثلا للاسراف في النفقات والاستهتار المالي ، مما زعزع استقرار الامبراطورية اقتصاديا » . (ص 111) .

وحتى بعد قسطنطين ، خلال القرن الرابع استمرت سياسة الاسراف الحكومي ، وكانت نتائجها شديدة الخطر . فكلما وجدت الدولة نفسها في حاجة الى المال ، اتجهت الى فرض مزيد من الضرائب على سكان الامبراطورية الى درجة مرهقة كل الارهاق بدافعي الضرائب (ص 130) .

ويمكننا ان ننتقل الان الى موقف المؤلف من سقوط روما في القرن الخامس . كان المتوقع ان يرجع مؤلفنا ، الذي يهتم في المحل الاول بالجوانب الاقتصادية والاجتماعية من التاريخ ، سقوط روما الى أسباب اقتصادية واجتماعية أيضا . ولكن يبدو أن موقفه النهائي غير ذلك ـ فرغم ادراكه وتحليله لمظاهر الفساد التي اصابت الامبراطورية اداريا واقتصاديا واجتماعيا ، فيعتقد أنها وحدها لم تكن كافية لسقوط روما . فمن الناحية

الادارية انفصل غرب الامبراطورية عن الشرق حيث اصبحت القسطنطينية مركزا للحكم الحقيقي . ولم يوجد «قسما الامبراطورية» منذ نهاية القرن الرابع الى القرن السادس على يدي جستنيان . معنى هذا أن روما فقدت مركز الصدارة السياسية ، الذي اصبح يتمثل في القسطنطينية . ثم هناك مشكلة الضرائب التي زادت زيادة كبيرة . اعجزت كثيرين من دافعي الضرائب ، فهجر كثير منهم ما يمتلكون من أرض . وعاد ذلك بالضرر على الدولة ، لانها لم تتمكن من جمع الضرائب المطلوبة ، فلجأت الى وسائل تعسفية أخرى وهناك التضخم المالي ، حتى ان الدولة وجدت أن الضرائب المالية فقدت قيمتها ، فلجأت الى الضرائب العينية ، وهو حل مكن الدولة من ان تحصل على القيمة الحقيقية لما تريد من الضريبة ، ولكنه شكل قيدا علــى الحياة الاقتصادية ، كما زادت من ضعف المزارع ، وخاصة المزارع الصغير . وأخيرا هناك استنزاف أعداد القادرين على الخدمة العسكرية بسبب كثرة الحروب ، سواء الحروب الاهلية او الخارجية . كما أن الاصرار على تجنيد أعداد كبيرة بصورة مستمرة من السكان ، معناه استنزاف الايدي العاملة اللازمة للزراعة بصفة خاصة . وحتى لا تتورط الدولة في هذه الكارثــة ، اعتمدت بصورة متزايدة على تجنيد افراد القبائل المتبربرة ، واستيطانهم في الاراضي المهجورة على الحدود او في بعض أقاليم الداخل ويعتقــد مؤلفنا أن هذه السياسة كانت مجدية على صيانة قــوة الامبراطوريــة العسكرية الى حد ما .

هذه العوامل مجتمعة أثرت من غير شك على قدرة الامبراطوريــة ، ولكنها ، منفردة او مجتمعة ، لم تشكل العامل الحاسم في سقوط رومــا والامبراطورية الرومانية في الغرب في القرن الخامس في أيدي القبائل المتبربرة . اما العامل الحاسم في رأيه هو تكاثر هجمات المتبربرين على القسم الغربي من الامبراطورية في أثناء القرن الخامس على نحو لم يسبق له نظير . فاستطاع الاريك ملك القوط الغربيين من احتلال روما سنــة 410 ، واستطاع جيزريك ملك الوندال من احتلال شمال افريقيــا بيــن سنتي 435 ـ 442 ، وكذلك هاجم اتيلا ملك الهون الامبراطورية الشرقيــة بنجاح بين 441 ـ 449 ، الى درجة أنه طالب بنصف الامبراطورية ، وحين رفض طلبه تحول الى مهاجمة ايطاليا . يتضح من ذلك مقــدار العــبء العسكري الذي وقع على ايطاليا والغرب عامة ، في الوقت الذي لم تسلــم فيه الامبراطورية الشرقية من هجمات المتبربرين ومن الحروب ضد الفرس في شرق الامبراطورية . ولاثبات وجهة نظره في مدى الخطر العسكري الذي

تمثل في غزوات المتبربرين ، يورد لنا تقديرات لقوة جيوشهم مستمدة من المصادر . ومؤلفنا يعرف مدى المبالغة التي قد يجنح اليها بعض الكتاب القدماء في تقدير الارقام . وبعد تحليل دقيق للارقام ، يخرج بأن متوسط جيوش القبائل المتبربرة يتراوح بين 20000 و 25000 وفي ظروف أحسن قد يصل الى 40,000 للجيش الواحد . ولكن الامبراطورية كانت مواجهة بعدد كبير من هذه الجيوش الصغيرة نسبيا في وقت واحد وفي جبهات متعددة ، وأحيانا استطاع كبار قواد المتبربرين من ضم عدد من القبائل الاخرى تحت قيادته ، كما فعل أتيلا وبذلك اصبح لديه جيش كبير فعلا . ولكن بعد تقدير قوة الغزاة المتبربرين لابد من معرفة قدرة الجيوش الرومانية ذاتها . ويقدم لنا المؤلف تقديرا لها معتمدا على القوائم الواردة في كتاب (Notitia Dignitatum) فمن هذه القوائم الرسمية يمكننا أن نعرف أن الجيش في الامبراطورية الغربية سنة 425 اشتمل على 375 وحدة أي أقل من 250,000 رجل . وقد يبدو لنا عند النظرة الاولى ـ كما يقول المؤلف ـ أن هذا الرقم كفيل بمقاومة قبائل المتبربرين ، غير أن جزءا صغيرا من هذه القوات كان يمكن تجميعه وتوجيهه لاي حملة . فأولا أكثر من نصف هذه الوحدات (195 وحدة أو نحو من 135,000 رجل) كانوا يكونون حاميات الحدود ، ولا يمكن سحبهم من مواقعهم دون تعرض الحدود للخطر . وهذه الحدود نائية مترامية من الدانوب الى شمال البلقان فايطاليا فالراين والغالة وبريطانيا وشمال افريقيا . أما الجيش الميداني ويشتمل على نحو 180 وحدة أو 115,000 رجل فكانوا ايضا موزعين في الولايات الغربية كلها ، وكثير منها كان مرهقا بالحروب الاهلية والقضاء على الفتن . يتضح من ذلك انه لم يمكن في واقع الامر تجميع جيش كبير في مكان معين بسرعة ، الا على حساب الاقاليم الذي تسحب منه الجنود . وفعلا يستشهد المؤلف بمثال من سنة 405 أن الجيش الروماني الذي واجه احدى غزوات المتبربرين كان يتكون من 30 وحدة أي حوالي 23,000 رجل . وهو عدد مماثل لمتوسط جيش قبيلة واحدة أو أقل . فاذا حدث أن تعددت هجمات القبائل في أماكن متعددة في وقت واحد ـ كما وقع في القرن الخامس ـ أو كانت جيوشهم من الحجم الكبير ، اصبح التفوق العسكري في جانب التبربرين (ص 183 ـ 186) . ومثل هذه الظروف هي التي مكنت الاريك ملك القوط الغربيين من الاستيلاء على روما سنة 410 ، وبعده استطاع أذيتوس ملك الغاليين ـ ان يغزو روما سنة 455 ومن بعده ريكيمر سنة 456 ، ثم اودوكر سنة 476 ثم تيودريك ـ ملك القوط الشرقيين سنة 493 (ص 240) .

من أمتع فصول الكتاب قراءة الفصل التاسع الذي يتحدث فيه المؤلف عن جستنيان . ويتضح ذلك بمقارنته بالفصل الخاص بقسطنطين حيث يبدو المؤلف غير مقتنع بكمال شخصية قسطنطين التاريخية . أما بالنسبة لجستنيان فيعتقد المؤلف انه من اكثر شخصيات التاريخ نضجا واكتمال شخصية . ومن حسن الحظ ان مصادر عصر جستنيان من اكثر عصور الامبراطورية الاخيرة وفرة وارتفاع قيمة (ص 266 ـ 267) مما مكن المؤلف من النفاذ الى شتى حقائق عصره مهما دقت . وهو يفتتح دراسته هذه بقوله :

«مهما يكن الحكم على سياسته وأعماله ، فلا شك أن جستنيان كان شخصية فذة ومن أشد الناس احساسا بمسؤولية الحكم ، كما كان موفقا فيمن عاونه من القواد والوزراء الاكفاء ، ولكن يرجع اليه الفضل على الاقل في أنه أحسن اختيارهم ، ورفعهم في كثير من الحالات من وظائف شديدة التواضع ، ووجه سياستهم ، وطالبهم بالولاء التام . ربما لم تكن مواهبه الشخصية من الطراز الاول ، ولكنه سخرها الى أقصى مدى لصالح الامبراطورية . وكان ذا قدرة هائلة على العمل ، يعمل الى ساعة متأخرة من الليل بصورة منتظمة ، وتشريعاته تظهر أنه اهتم بجميع أقسام الحكومة ، وأنه كان على علم تام بكل دقائق الحكم ومشاكله . كما تدل قوانينه على أنه كان شديد الاهتمام بمصالح رعاياه . واجتهد في أن يمنحهم حكام شرفاء ، يحمونهم من الابتزاز المالي ، ويضمنون لهم عدالة غير فاسدة» (ص 269) .

كان لجستنيان عاطفتان أساسيتان ترتفعان على كل اعتبار آخر . عاطفة سياسية جعلته يعتقد ان رسالته هي ان يعيد الامبراطورية الى سابق عهدها باستعادة الولايات الغربية التي كان قد اغتصبها المتبربرون ، وأن ينقذ روما ذاتها من رق مشين . وعاطفة دينية ، اذ كان مسيحيا مخلصا ، ولذلك شعر ان واجبه ان يسحق الهرطقة والوثنية وأن يفرض العقيدة الصحيحة على جميع رعاياه .

وقبل أن ينتقل الى أحداث العصر ، نجده يحرص على أن يطلعنا على جانب رومانتيكي من شخصية جستنيان ، وهي علاقته بزوجته ثيودورا . وليس هدفه في ذلك تسلية القارئ أو الترويح عنه بقصة غرامية ، بل أنها جزء أساسي من دراسته لموضوعه ـ ولذلك فهو يعرض لها بأسلوبه العلمي الهادئ ليعرف القارئ منها على نوع شخصية جستنيان او جانب منها على الاقل ، ثم ليلقي ضوءا على الجو الذي أحاط بهذا الامبراطور في

قصره .و أعتقد أن من الانسب أن اترك المؤلف يتحدث بنفسه مرة ثانية :
«قبل ان يصل جستنيان الى العرش ، كان قد وقع في حب احدى الممثلات وهي ثيودورا ، وخالف العرف السائد واتخذها زوجة شرعية له ، بعد أن أقنع عمه (الامبراطور جستينوس) سنة 522 بالغاء القانون الذي يحظر الزواج بين أعضاء السناتو والممثلات . كانت ثيودورا موضع كراهية النبلاء ، ويصورها المؤرخ بروكوبيوس في كتابه «التاريخ السري» كامرأة شريرة سيطرت على زوجها ضعيف العقل . ما من شك أن جستنيان كان مولعا بها ، وفي أحد قوانينه يعترف صراحة بنصيحة «زوجتنا النقية الورعة التي وهبها الله لنا» . ولكن من المشكوك فيه أنه كان لثيودورا من التأثير على السياسة العامة بالقدر الذي يدعيه بروكوبيوس . بطبيعة الحال كان في استطاعتها في كثير من الحالات ان ترعى مصالح اصدقائها ، وأن تلحق الضرر بخصومها ، ولكن ــ حتى في المسائل الشخصية ــ كان تأثيرها على زوجها محدودا . فرغم أنها كانت تمقت يوحنا الكبادوقي ، فانه تولى الوزارة لمدة عشر سنوات ولم تتمكن من اسقاطه آخر الامر الا عن طريق مؤامرة شديدة التعقيد ، أقنعت جستنيان بخيانته . وبالنسبة للقضية الواحدة الكبرى التي اصطدمت فيها آراء ثيودورا مع آراء جستنيان ، لم تستطع التأثير في سياسته . اذ كانت ثيودورا شديدة التمسك بمذهب الطبيعة الواحدة Monophysite ولكن جستنيان ــ رغم أنه حاول اتباع أساليب مختلفة لاستمالة المعتدلين من اصحاب هذا المذهب ــ فانه لم يضعف أبدا في تأييده لعقيدة خلقيدون والبطش بخصومها . وأقصى ما استطاعته ثيودورا هو أن تمنح حمايتها لمن تعرض للاضطهاد من أصحاب مذهب الطبيعة الواحدة . وأن تشجعهم على الصمود بالتأييد الادبي» (ص 270) .

بعد هذا التعريف لشخصية جستنيان ، يتناول المؤلف أحداث عصره ، الذي يعتبر من أكثر عصور الامبراطورية ازدحاما ونشاطا وخصبا . ففي خلال الثلاثة عشر عاما الاولى من حكمه شرع جستنيان في تحقيق مطامحه من استعادة اجزاء من المتبربرين وتأمين الحدود المهددة ، فحارب الفرس في الشرق والوندال والبربر في شمال افريقيا والقوط الشرقيين في ايطاليا ، كما شغل بالقضاء على الفتن ضده في الداخل . وفي هذه الحقبة ذاتها لم تستأثر الحروب والفتن بكل عنايته . فكان يعين لها القواد الاكفاء ، وبقي هو يباشر الاصلاح في الداخل بنفسه . واتجه أولا الى اصلاح القانون ، فعين في 13 فبراير سنة 528 لجنة لعمل مجموعة قانونية جديدة ، لتحل محل المجموعات السابقة التي كانت اشهرها مجموعة

الامبراطور ثيودوسيوس الصادرة قبل بقرن من الزمان سنة 438 ، ولتضم ما صدر بعد ذلك التاريخ من تشريعات . في المجموعة الجديدة أسقطت جميع القوانين التي بطل العمل بها ، وأما القوانين التي استمر العمل بها اختصرت اختصارا شديدا ، او عدلت عند الضرورة . وصدرت المجموعة الجديدة في 7 ابريل سنة 529 ، وفي 15 ديسمبر من السنة التالية تكونت لجنة اخرى لتجميع اعمال المشرعين القدماء كذلك حوفظ على ملخص القوانين التي كانت لاتزال صالحة ، بعد تعديلها وتنظيمها حسب موضوعاتها استغرق هذا العمل ثلاث سنوات وصدرت في 16 ديسمبر 533 المجموعة المعروفة باسم المنتخب Digest كما صدر كتاب للقانون لاستخدامه في الجامعات (Institions في الفترة ذاتها ، 21 نوفمبر سنة 533 .

بعد صدور المجموعة القانونية Codex سنة 529 ، أصدر جستنيان . عددا كبير من التشريعات ، مبسطا أو مجددا القانون القديم ،وفي 16 نوفمبر 534 صدرت النشرة الثانية لمجموعة جستنيان القانونية Codex Justinianus)وهي التي نمتلكها الان . ولكن ذلك لم يضع حدا لاعمال جستنيان التشريعية . فهو لم يكتف بتعديل القوانين السابقة او توضيح ما غمض فيه من جوانب قانونية أصدر عددا من «القوانين الحديثة» (Institiones Novellae) مدعما بها القوانين في عدة نقط ، ربما يقصد عمل تجميع شامل للقانون ليحل محل المجموعة القانونية والمنتخب معا .

كثير من تشريعات هذه الفترة كانت ذات طابع اداري لاصلاح الادارة . في انحاء الامبراطوريه المختلفه . ومن بينها اعادة تنظيم مصر في سنة 539 ـ على أكثر الاحتمالات . وفيه اعاد توحيد السلطتين المدنية والعسكرية بالنسبة للمنصب الاول في الولاية الذي اصبح من يشغله يحمل لقبي Dux et Augustalis ولا يمكننا هنا أن نتعرض لشتى التفصيلات الادارية لهذا الاصلاح ، ولكن يرى المؤلف ان الرغبة في التبسيط والاقتصاد هي التي أملت التعديل . ولكن هذا الاصلاح ـ في رأي المؤلف ـ تميز بعيب خطير ، هو انه أضعف من قدرة الادارة المحليه من المحافظة على القانون والنظام ، كما أن فصل الولايات ـ اداريا ـ بالغاء نظام دقلد يانوس الخاص بالدوقيات عمليا ـ سمح للمجرمين بالهروب من ولاية الي أخرى حيث لا يقعون تحت طائلة القانون . ويقترح المؤلف

لعله كان من الاحكم الارتقاء بمستوى الادارة عن طريق زيادة المرتبات .

أما بالنسبة لسياسته الدينية في هذه الفترة ذاتها ، فقد اتسمت بالحزم التام ضد الوثنيين واليهود والسامريين والهراطقة ، أما حيال مذهب الطبيعة الواحدة فقد كان وسطا بين الضغط والاستمالة الى عقيدة خلقيدون التي اعتبرها العقيدة الصحيحة .

ولكن القسم الثاني من حكمه (540 ـ 565) فقد شغلته سلسلة من أحداث اخرى . ففي سنة 542 انتشر وباء الطاعون ، الذي اجتاح مصر وفلسطين وسوريا ثم تفشى في الامبراطورية وفي فارس ايضا . وكان هذا الطاعون من اكبر الكوارث التي اصابت العالم في القرن السادس ، وراح ضحيته اعداد كبيرة من الناس طيلة سنتين وفي موجات لاحقة . فزاد من مشكلة قلة الايدي العاملة واضر بالقدرة الانتاجية بصفة عامة .

وبعد ذلك تلاحقت عليه الحروب في الشرق والغرب بصورة مستمرة ضد الامبراطورية الفارسية على عهد الملك ، خسرو ، وفي ايطاليا والغالة واسبانيا وافريقيا وطراقيا والليريا . وفي فارس استطاع ان يصل ـ بعد فترة من القتال ـ الى صلح مع خسرو ، على ان يدفع له جستنيان 3000 رطل من الذهب . أما في سائر الميادين الاخرى فقد استطاع أن يتفرغ لقتالها وأن يحقق انتصارات أكدت سلطانه في الغرب بصفة عامة .

وبعد أن يتعرض المؤلف لجوانب هذه الفترة الاخرى ، الادارية والمالية والدينيّة ، يحاول عمل «كشف حساب» لعصر جستنيان بأسره .

فيقول أن جستنيان استطاع زيادة رقعة الامبراطورية زيادة كبيرة ، باستعادة (المانيا وايطاليا وصقلية وسردينيا وكورسيكا وشمال افريقيا وجزر البليار ومعظم شبه الجزيرة الاسبانية . ولكنه يعلق على ذلك «بأنه من المشكوك فيه اذا كانت هذه الفتوحات كانت سببا في اضعاف الامبراطورية أكثر من تدعيمها . ويمكن تقسيم المشكلة الى نقطتين ـ أولا يمكننا أن نتساءل ، اذا كانت حروب جستنيان العدوانية في الغرب لم تنهك الامبراطورية في الشرق ماليا وبشريا ، لدرجة أضعفت من قدرتها الدفاعية في منطقة الدانوب والجبهة الشرقية . ثانيا ، يمكننا أن نتساءل أيضا اذا لم تصبح البلاد التي استردها كانت عالة على الدولة لامكسبا

لها ، لانها احتاجت الى جنود من الشرق لحمايتها ، في حين انها لم تجلب دخلا يكفي للانفاق عليها . ونظرا لعدم توفر الاحصاءات اللازمة ، فانه لا يمكن الرد ردا قاطعا على أي السؤالين . ومع ذلك فهو لا يتركنا بغير محاولة للاجابة التقريبية ، والتحليل الذي يعرضه للموقف يبين ان الضرر كان بالغا ، وخاصة من وجهة نظر الاستنزاف المالي . (ص 298 ـ 302) .

حاولت في الصفحات السابقة أن أعرض لمنهج مؤلفنا جونز في دراسة تاريخ العصر الاخير من الامبراطورية الرومانية . وهو الذي يشتمل عليه القسم الاول من كتابه . أما القسم الثاني من الكتاب فيشتمل على عرض تحليلي لنظم عصره المختلفة ، ويتكون من خمسة عشر فصيلا (الفصول من 11 الى 25) وتتناول الموضوعات التالية : الحكومة ، الادارة ، المالية ، القضاء ، اعضاء السناتو والنبلاء ، موظفو الادارة ، الجيش روما والقسطنطينية ، المدن ، الارض ، الصناعة والتجارة والنقل ، الكنيسة ، الدين والاخلاق ، التعليم والثقافة ، اضمحلال الامبراطورية . وقد يكون من العسير أن أعرض لكل هذه الفصول واحدا واحدا ـ لذلك سوف اقتصر فيما بقي من صفحات في هذا المقال على العرض باختصار لفصلين أساسيين فقط ، وهما فصلا المالية والاراضي ، لاعتقادي أنهما من اهم فصول الكتاب ، اذ أن الاقتصاد هو أهم الاسس التي تقوم عليها دراسة الكتاب بأسره . ولا أملك للقارئ المستزيد الا ان احيله على فصول الكتاب الاصلية .

أما بالنسبة لمالية الامبراطورية ، فنجد انها كانت تنقسم الى ثلاثة أقسام ادارية ، وهي ـ ادارة الاملاك الخاصة بالامبراطور (Res Privata) ، والادارة المالية العليا (Res Summae) وأصبحت تسمى فيما بعد الخزانة العامة المقدسة (Sacrae Largitiones) ورئيس الادارة الامبراطورية (Praefectus Praetor) . وكل واحدة من هذه الادارات مسؤولة مباشرة أمام الامبراطور . ولكل مصادر أموالها وخزانتها وهيئة خاصة من الموظفين .

أما الادارة الاولى وهي «الخاصة بالامبراطورية» Res Privata فكانت تتولى ادارة جميع املاك الدولة ممثلة في شخص الامبراطور من الارض والمباني ، والمطالبة وضم جميع الممتلكات التي تؤول الى الدولة . كما كان من اختصاصها بيع او منح الممتلكات العامة للافراد . ويرأس

هذه الادارة الخاصة رئيس تغيرت القابه فـي العصور المختلفة ، مثـل comes rei privatae Rationalis Magister وتتبعه هيئة مكتب من الموظفين officium ينقسم الى فروع مختلفة تختص بأعمال السكرتارية ومنح الارض والايجارات وعمل الايصـالات ودفع الاموال لمستحقيها . كما كان للخاصة موظفون في الولايات المختلفة للاشراف على أملاك الامبراطور فيها . كما كان لها جهاز خاص للنقل (212 ـ 214) .

أما عن تكوين املاك الخاصة ، فكانت نواته ضياع الاسر المتعاقبة التي تولى افرادها منصب الامبراطور ، وكثير منهم كانوا على جانب كبير من الثراء ثم اضيف الى هذه النواة الممتلكات التي ورثها الاباطرة مـن أقاربهم وأصدقائهم ومواليهم وغيرهم . اذ كان المألوف بين كبار الشخصيات او اخرين ممن ارادوا ان يظهر بمظهر الرجال المهتمين ، ان يتذكـروا الامبراطور في وصاياهم . بالاضافة الى هذه المصادر الخاصـة ، اعتاد الاباطرة منذ وقت مبكر ان يضعوا أيديهم على الامـلاك الخاصة التـي تصادرها الدولة لسبب او لاخر مثل أملاك الخونة او مـن صدرت ضدهم أحكام بالمصادرة ، او أملاك الافراد الذين يموتون دون وصية او وريث ، كما استحوزت ممتلكات الامبراطور على ماكان يتبع الدولة الرومانية من الارض العامة (Ager publicus) ونتيجة لتراكم هذه الممتلكات على مدى ثلاثة قرون على هذا النحو ، لابد ان الممتلكات الخاصة بالامبراطوريه قد شملت في نهاية القرن الثالث مساحات شاسعة منتشرة فـي شتـى الولايات . ومن العسير ان نقدر مساحة املاك الامبراطور الخاصة التـي تجمعت على هذا النحو ، ولكن المؤلف يجمع لنا بعض الاحصاءات التي تدل على مدى انتشارها . فمثلا في شمال افريقيا بلغت املاك الخاصة حوالي 18ر5 في المائة من مجموع ارضها الزراعية . ولكن يجب ان نذكر ان هـذه الارض عادة كانت من النوع الجيد وليست من ارض الجبال او الصحراء . أما في الشرق فلدينا أخبار ان أقاليم بأسرها (regiones, saltus, tractus) كانت ملكا للامبراطور . وفي القرن الثالث كان معظم ارض كبادوفيـا Cappadocia ملكا للامبراطور . نخلص من ذلـك ان مساحة املاك الامبراطور تفاوتت احجامها باختلاف الولايات ، ولكنها بصفة عامة كانت كبيرة جدا (415 ـ 416) .

وبعد ذلك يتناول المؤلف اوجه الانفاق التي كانت توجه اليها ايرادات الخاصة ويبادر الى القول ان المصادر القديمة لم تذكر اوجه الانفاق هذه .

على ان باب الانفاق الاساسي منها هو نفقات القصر الامبراطوري ، وعدا ذلك لم تكن الخاصة مسؤولة عن نفقات اخرى محددة او منتظمة . ولكن الامبراطور في بعض الاحوال كان يمول من مالية الخاصة على بعض اوجه الانفاق الرسمية التي كانت مالية الدولة مسؤولة عنها . فنجد مثلا الامبراطور فالنتينيان الثالث يفخر بانه مرارا ما انفق على حاجيات الدولة ولكن المالوف ان تتكفل ميزانيات الدولة بنفقاتها الرسمية . اما امـــــوال الخاصة فكان يدفع منها هبات الامبراطور او يصرف منها على اعماله الخيرية ولم يكن ذلك بالقليل ، لان من اهم سمات الامبراطور الصالح هو سخاء ذات اليد . وكثير من عطاء الامبراطور اتخذ عطيا منتظما ، فضلا عن انه لم يكن من اللائق ان يمنح الامبراطور سائلا ، ويجب ان يكون عطاؤه لائقا بشخصه . ويورد المؤلف قصة توضح هذا التقليد . وهي ان احد رهبـــان مذهب العقيدة الواحدة حظي بمقابلة مع جستنيان وثيودورا ، وحدث تهجم من هذا الراهب عليها بغليظ الالفاظ . ورغم ذلك فقد امرت بان يعطى منحة مالية ، ولكن الراهب قذف بها في وجه الامبراطور ، وكان دهشـــــة الحاضرين لقوة الراهب البدنية أقل من دهشتهم لثبات جنانه . فقد كانت المنحة كيسا ذا مائة رطل من الذهب . (بطبيعة الحال كانت مثل هذه المنحة الكبيرة لصالح الطائفة التي ينتمي اليها الراهب) (ص 425) .

أما الجهاز الثاني من الادارات المالية وهو الادارة المالية العليا او الخزانة المقدسة (Sacrae largitiones / res summae) فكانت مختصة بالاشراف على دار السكة ومناجم الذهب والفضة ، ومصانع الدولـــــة (للاسلحة خاصة) وجميع الضرائب المالية وضرائب الذهب والفضة وهي التي تتولى دفع الهبات الذهبية والفضية للجنود . والرواتب الماليـــة للجنود والموظفين . وكذلك تشرف على جمع وانتاج الملابس للقصر والجنود ورجال الادارة .

وبعد ذلك يدرس المؤلف تفصيلا مصادر ايرادات «الخزانة المقدســة» من الضرائب المالية على اختلافها عددا ونوعا : مثل ضرائب الجمارك التي تجمع عند الحدود وفي الموانيء ، وضريبة التاج الذهبي aurum coronarum مرة كل خمس سنوات ، وهبة السناتو للامبراطور aurum oblaticum مرة كل خمس سنوات ، وضرائب جديدة فرضها قسطنطين على السناتو Collatic glebalis كل سنة ، وضريبة Collatio follis Collatio lustralis من الذهب والفضة على المهـــ

الحرة . ولكن أعفي منها الاطباء والمعلمون والجنود وكبار رجال الادارة ، ثم ضريبة aurum tironicum بدل الجندية ، وكذلك ضريبة ماليـــة فرضت على الارض ، واخيرا ضرائب الثياب .

وفي مجال اعمال «الخزانة المقدسة» يتناول المؤلف اصدار العملة ، ويرى ان من أعظم اعمال الادارة الامبراطورية هو المحافظة على اصـدار عملة ذهبية منتظمة ، وهي المعروفة بأسم الصوليـدوس Solidus ولكن هذه العملة الذهبية اقتصر استخدامها في العمليات الكبيرة ، أما في المعاملات اليومية فكانت العملة البرنزية او المقايضة هي الوسيلة للتعامل. ومن ثم كان وقع الغلاء اشد على الفقراء ، ويحاول ان يبين ذلك بتقديـــر اسعار السلع الاساسية مثل القمح والنقل واللحوم والزيت والملابس ، وعلاقة ذلك بمستوى معيشة الجندي والعامل (445 ـ 446) .

واخيرا يتناول المؤلف الجهاز المالي الثالث وهو الادارة المالية التي يشرف عليها Praefectus Praetor الذي كان بمثابة وزير المـالية . وهذا الجهاز كان اكثراهميةمن الجهازين السابقين ، لانه كـــان يختص بالضرائب العينية التي ازدادت أهميتها كثيرا نتيجة للتضخم المالـــي . واهم الضرائب النوعية على الاطلاق هي الضريبة المعروفة باسم annona وكانت تصيب الارض الزراعية وتؤخـــذ من الحصـــول وقد اختلـــف نوع هذه الضريبة باختلاف الولايات ، حسب المحصول الذي تنتجه كـــل ولاية . فمصر مثلا كانت غنية في انتاج الغلال بصفة خاصة ، ولذلك فرض على مصر ان ترسل الى القسطنطينية سنويا ثمانية ملايين اردب سنويـــا (الاردب القديم يعادل تقريبا سدس الاردب المصري الحديث) . فاذا اضفنا لذلك ان مصر كانت تدفع ايضا مقدارا من الذهب تعادل قيمة ضـــريبة الـــ annona من الغلال . ويقدر المؤلف ضريبة مصر من الذهب فقـــط بحوالي خمس ضرائب الامبراطورية الشرقية من الفضـــة ، وربما زادت ضرائبها العينية باكثر من ذلك (ص 463) .

هذا القدر الكبير من الضرائب النقدية والعينية ارهق المزارعيـــن ارهاقا شديدا ، خاصة وان الزراعة كانـــت العماد الاساسي لاقتصـــاد الامبراطورية ومواردها . ولكن مما زاد الحالة سوءا هو ان الضريبة لـــم تصب الجميع بقدر واحد . اذ لم تكن الضريبة بصفة عامة تصاعدية ، بمعنى ان المزارع الصغير دفع النسبة ذاتها من المحصول التي كان يدفعها المالـــك

الكبير ذو الضياع الواسعة من أفراد طبقة السناتو مثلا . حقيقة ان أعضاء السناتو كانوا مثقلين بمنصب البريتورية (وكان يشترك في توليه عدد من الافراد في وقت واحد للادارة المالية والتشريع) ، وهي وان لم تكن ضريبة بالمعنى المفهوم ، فقد كانت تكلفة تفرضها الدولة على الشخص مرة واحدة في حياته ، كما ان نفقاتها الضرورية لم تكن ثقيلة بالنسبة لثراء اعضاء السناتو . كذلك كان اعضاء السناتو ملزمين بضريبة الذهب المعروفة باسم gleba التي فرضها قسطنطين وكانت تصاعدية ، ولكنها في مجموعها كانت تافهة القدر . وكذلك فرضت على أعضاء السناتو ضريبة ذهبية تجمع كل خمس سنوات هدية للامبراطور aurum oblaticium

ولم تكن لذلك محددة وتفاوتت حسب الظروف . ولكن في الشرق (بعد سقوط روما) جعل الامبراطور ماركيانوس البريتورية اختيارية ، والغى ضريبة الذهب gleba كما اختفت هدية الامبراطور Aurum oblaticium من مصادرنا . وهكذا يبدو ان أعضاء السناتو بعد عام 450 في الشرق لم يعودوا ملزمين بدفع ضرائب استثنائية او تحمل أية أعباء خاصة . ومن ذلك يتضح مقدار العبء الذي كانت ترزح تحته طبقة صغار المزارعين من الملاك . (465) في حين استمرت أجهزة الضرائب تعمل بكفاءة بالغة وكانت قادرة على جمع مقدار متزايد من الدخل ، بلغ في عصر جستنيان الى مايقرب من ثلث ماتنتجه الارض ، ما كان له اوخم العواقب (469) .

يتضح من الحديث عن المالية ان القدر الاكبر من ميزانية الدولة وايراداتها النقدية والعينية اخذ من الزراعة ، ويتبع ايضا ان الجزء الاكبر من الدخل القومي للامبراطورية اعتمد على الحياة الزراعية . وبعبارة اخرى كانت الارض هي الركيزة الاولى للاقتصاد وهو قول يصدق على جميع عصور التاريخ السابقة على عصر الثورة الصناعية في اوروبا . ولذلك تحتل دراسة الارض مكان الصدارة بين الدراسات الاجتماعية والاقتصادية للعصور السابقة . ويخصص المؤلف الفصل العشرين من كتابه لدراسة الارض في الامبراطورية الرومانية الاخيرة . وهو يحاول في هذا الفصل ان يتتبع الفئات والطبقات التي كانت تمتلك الارض ، ثم يعرض لها فئة بعد فئة . فاذا تركنا أملاك الامبراطور ــ التي سبق الحديث عنها عندما تناول املاك الخاصة الامبراطورية res privata نجد ان اكبر فئة من ملاك الارض بعد ذلك هي طبقة السناتو سواء في روما او القسطنطينية ثم طبقة أعضاء المجالس المحلية في شتى مدن الامبراطورية ، فهي حسب

تعريفها الاقتصادي طبقة ملاك الارض في الولايات . ثم هناك كثيرون من كبار رجال الادارة وصغارهم ورجال الجيش ورجال المهن الحرة من محامين واطباء وكبار رجال العلم ، فمعظم هؤلاء امتلكوا مساحات متفاوتة من الارض في شتى ارجاء الامبراطورية . ويجيء بعد ذلك ـ منذ عهد قسطنطين الكنيسة ورجال الدين المسيحي . فأملاك الكنيسة نافست املاك المعابد القديمة ، سواء عن طريق تلقي المنح المختلفة من الامبراطور او عن طريق الاوقاف التي كانت توقف على الكنائس بواسطة اثرياء الافراد الاتقياء . أما كبار رجال الكنيسة ـ وعلى رأسهم البابوات ـ سرعان ما اصبحوا أيضا من كبار الملاك . اما صغار رجال الكنيسة فقد تفاوتت املاكهم حسب أحوالهم الشخصية . ويورد المؤلف نماذج مختلفة من القرن الرابع الى القرن السادس . وبعد ذلك تأتي فئات التجار واصحاب الصناعة والنقل فكثير منهم كلما تجمع لديه مبلغ من المال اشتروا به قطعة من الارض ، فهي اثبت انواع الملكية قديما . واخيرا يذكر سكان المدن الذين عاشوا في مدنهم وامتلكوا ارضا في الريف ، ويضرب على ذلك مثالا من مدينة هرموبوليس (الاشمونين) بمصر ، التي وصلتنا منها بردية تمثل اصحاب الارض فيها . ويستنتج المؤلف من هذه البردية ان نحو الف شخص من سكان مدينة هرموبوليس (الاشمونين) في القرن الرابع يقيمون في المدينة ويمتلكون ارضا في ريف النوموس (Nomos اي المحافظة بأسرها) . وثمانية وعشرون فقط تزيد ملكية الواحد منهم على الف فدان تقريبا ، ويمتلك هؤلاء الثمانية والعشرون اكثر من نصف الارض الزراعية التي في ريف هذه المحافظة .

ويمكننا ان نستنتج من هذه الاحصائية ايضا ان هؤلاء الملاك الالف كانوا من نوع اصحاب الارض الذين لايقيمون على الارض التي يمتلكونها ولايقومون بزراعتها واستغلالها بأنفسهم ولكن عن طريق وكلاء عنهم او عن طريق تاجيرها للغير . وهناك من الادلة الاخرى مايكفي لاثبات انتشار هذه الظاهرة في اكثر ارجاء الامبراطورية ، اي ان معظم الاض كانت ملكا لاشخاص يقيمون في المدن والعواصم بعيدا عن ارضهم .

ويقوم المؤلف في هذا الفصل بعدة دراسات لظروف الزراع الاجراء كانوا يعملون في ضياع الملاك الكبار والصغار ، ويبين ان الزراعة في مصر كانت يقوم بها اجراء احرار . اما في اكثر البلاد الاخرى فكان يقوم بها العبيد . ثم ينتقل الى دراسة كيفية ادارة الضياع الكبيرة والصغيرة ، موضحا سوء حالة الملاك الصغار الذين ارهقتهم الضرائب وما قد يحل بها

من كوارث مفاجئة مثل مواسم الجفاف او تخلف فيضان الانهار ، مما ينتهي بعجزهم عن دفع الضرائب المستحقة عليهم مما يضطرهم الى رهن الارض او بيعها او التعاقد مع جار كبير تولى أمرها على ان يعمل صاحبها الصغير في الارض على اساس تقسيم المحصول ، ويتولى الجار الكبير دفع الضرائب عنها . وأحيانا اخرى يعجز المزارع الصغير عن ذلك كله فيهجر الارض ويفر منها . وقد نتج عن ذلك كله حالة خطيرة جدا ، وهي تزايد مساحة الارض المهجورة agri deserti التي اصبحت احدى مشاكل الدولة الكبرى . وهكذا أصبح من المؤكد ان الارض الزراعية انكمشت رقعتها بقدر كبير . ورغم جهود الدولة في استصلاح الارض المهجورة وردها للزراعة عن طريق تكليف الملاك بزراعتها والزامهم بضرائبها ، الا ان جهود الدولة في هذا المجال كان مصيرها الفشل . وتستمر رقعة الارض الزراعية في الانكماش . ويحاول المؤلف ايراد الاسباب المختلفة لهذه الظاهرة مثل اجهاد الارض وتعرية التربة ونقص الايدي العاملة بسبب التجنيد للجيش بصورة مستمرة والطاعون وحركة الرهبنة) ، او بسبب الضرائب الباهظة وهجرة الارض . ولكنه يهمل سببا ، ربما بدأ ظهوره في نهاية الامبراطوريةوهو انخفاض منسوب المياه الجوفية فهو ظاهرة ملحوظة في صحراء مصر الغربية بين القرن السادس والقرن التاسع حين جفت كثير من الابار الرومانية وقل منسوب بحيرة قارون في الفيوم ، ومهما يكن من امر فيعتقد المؤلف ان الضرائب الباهظة كانت اكثر العوامل جميعا في الحاق الضرر بالحياة الزراعية للامبراطورية . ولم يكن الاهالي بقادرين على دفع هذا الظلم لان القوة العسكرية كانت تساند جامعي الضرائب ، وتلجأ الى أعنف الوسائل في قهر الناس على الدفع . ويقدر المؤلف مساحة الارض التي هجرت بحوالي 20 في المائة من مجموع مساحة الارض الزراعية في الامبراطورية . ورغم انه يحاول التخفيف من خطورة هذا الرقم ، باعتبار ان هذه الارض كانت عبارة عن الاراضي الجانبية القريبة من الصحراء اي انها من النوع الفقير على اي حال ولكن محاولته هذه غير مقنعة ، فهي نذير ضعف اقتصادي عام ، كانت له نتائج مباشرة على قدرة الدولة العسكرية بصفة خاصة .

الفصل الاخير من الكتاب ـ اي الفصل الخامس والعشرين ـ هو بمثابة خاتمة ، يطلق عليه المؤلف اسم «اضمحلال الامبراطورية» ويتناول فيه مختلف النظريات التي ظهرت لتفسير اسباب سقوط الامبراطورية الرومانية ، ويرد على أهمها . ثم يستأنف حديثه ممسكا في يده بخيوط الكتاب الاساسية ، مجملا تقديره لمظاهر الحياة المختلفة في الامبراطورية

وما اشتملت عليه من قوة او ضعف : عسكريا واداريا واقتصاديا وماليا واجتماعيا . ولكنه يخلص منها جميعا الى القول «ان اكثر مظاهر الحياة كآبة ومدعاة لليأس في العصر الاخير من الامبراطورية هو ما يتضح من اختفاء روح الحرص على الصالح العام . فيبدو ان القوى المحركة اصبحت اما الارغام او الطموح الشخصي في أقبح أشكاله ، وهو الرغبة في ارتقاء السلم الاجتماعي والاثراء السريع» (ص 1048) ،،، «ودليل اخر اكثر تأكيدا لانعدام الحرص على الصالح العام هو ظاهرة عدم المبالاة بين السكان المدنيين – على اختلاف طبقاتهم – حيال الغزو الاجنبي» (1059) ويضرب مثالا على ذلك بأحد سكان المدن الذي فضل الحياة بين الغزاة والمتبربرين مبررا موقفه بمهاجمة الضرائب والظلم تحت الرومان (ص 1061) .

أما عن تأثير المسيحية على الحياة في هذا العصر ، فيعتقد المؤلف أنه بالنسبة للاكثرية الساحقة من السكان لم يكن للمسيحية تأثير كبير على حياتهم العملية . ولكن هناك قلة من الافراد أقبلوا على المسيحية بحماس فائق ، فأهملوا الحياة الدنيا ، حرصا على الفوز في الحياة الخالدة فلجأ الاف الافراد الى الصحاري وعاشوا حياة عبادة وزهد وتقشف طلبا للخلاص . واخرون اخذوا رغما لخدمة الكنيسة ، كقساوسة وأساقفة . ويعلق المؤلف على هذه الظاهرة بقوله : انه من ناحية الكم لم يترك انسحابهم من الحياة العامة اثرا ملحوظا ،،، ولكن من ناحية الكيف كانت الخسارة اكثر خطورة ، لان من انجذبوا الى الحياة الروحية كانوا رجالا ذوي احساس رفيع بالقيم الاخلاقية ، ومن ثم كان انخراطهم في سلك الحياة الدينية خسارة للعمل في الدولة .

... وهكذا ترك العمل في الدولة للانتهازيين الطموحين ، وبذلك – وكنتيجة عكسية – ادت المسيحية الى زيادة فساد الحكومة (ص 1063).

وأخيرا يقارن مؤرخنا هيوجو جونزبين‌قسمي الامبراطورية ، مبررا سقوط الامبراطورية في الغرب منذ احتلال الاريك روما سنة 410 ، بينما استمرت الامبراطورية في الشرق الى القرن السابع او بعد ذلك . فيقول ان الغرب تعرض لاستنزاف اقتصادي اشد ، كما ان تركز غزوات المتبربرين كان أعنف . أما الشرق فربما كان يتمتع باقتصاد أقوى ، كما كان في وضع اكثر حماية ضد غزوات المتبربرين . ولهذا استطاع تحمل ضغوط الحروب الخارجية قرنين اخرين على الاقل ضد الفرس في الشرق وضد الصقالبة في حوض الدانوب ، حتى استطاعت الجيوش العربية اخر الامر اجتياح الجزء الاكبر من الامبراطورية الشرقية في القرن السابع .

ورغم ان جونز يصر في اخر عبارة في كتابة الكبير على ماسبق ان قاله وهو ان مظاهر الضعف الداخلي في الامبراطورية لم تكن العامل الاكبر في اضمحلالها، الا ان التاري، لكتابه العظيم يخرج في واقع الامر بنتيجة مختلفة ، فان جميع ما اورده من تحليل لشتى مظاهر الحياة والنظم في الامبراطورية ، تدل على ان الامبراطورية الرومانية كانت قد فسدت من الداخل قبل ان تسقط ، او انها كانت قد فسدت بالقدر الذي افقد معظم سكان الولايات الحرص على بقائها . ومن ثم كان انتشار شعور عدم المبالاة بين الاهالي أمام موجات الفتوح العربية السريعة المتلاحقة .

تأسيس مدينة الكوفة

للدكتور طاهر مظفر العميد
كلية الآداب - جامعة بغداد

تتفق المراجع العربية في ان الكوفة هي ثاني المدن التي اقامها العرب المسلمون خارج الجزيرة العربية (1) ، واذ كنا نعرف ان الباعث العسكري كان المحفز لبناء البصرة ، فان الباعث نفسه يصح ان يقال بشأن تمصير مدينة الكوفة .

اذا كان بناء مدينة البصرة يخدم رغبة الخليفة عمر بن الخطاب في تركيز القوة العسكرية الاسلامية في جنوب العراق لكي تكون قاعدة تجمع القوات العسكرية ثم الانطلاق منها الى المناطق الشرقية حيث توجد القوات الفارسية التي قهر العرب المسلمون شوكتها في القادسية والمدائن والحيرة فانحسرت عن هذه المواقع وبدأت تلملم شملها في شرقي دجلة لتثأر من المسلمين ، فان اتخاذ مركز عسكري اخر في وسط العراق يحقق هدف القوات الاسلامية الموجودة في هذه المنطقة لكي تجمع فصائلها في مكان اشبه بمعسكر ترحيل ، كما يطلق العسكريون عليه اليوم فتجعل من نفسها قوة ضاربة تنطلق من المركز لتقاتل الاعداء ثم تؤوب اليه عندما تحقق الغرض من انطلاقها .

لم يكن هذا التصور بعيدا عن الخليفة عمر بن الخطاب ، ولكي يحقق هذا التصور في المجال العملي على امتداد رقعة المعركة كما حققه في البصرة كتب الى قائده سعد بن ابي وقاص يأمره ان يتخذ للجيش الاسلامي المحارب

1) مصرت الكوفة سنة 17 للهجرة ، كما يشير البلاذري في فتوح البلدان صفحة 338 ، وهناك من يرى انها مصرت سنة 15 للهجرة كما ذهب المسعودي في مروج الذهب ـ صفحة 211 ـ 212 .

مركزا يقيمون فيه وقت السلم ، وينطلقون منه حين تاذن الحرب ، كما قال في رسالته الى قائده سعد : «ان يتخذ للمسلمين دار هجرة وقيروانا» (2).

وكان القائد سعد بن ابي وقاص ، يرى بعد انتصاره على الفرس في المدائن واستيلائه عنوة على اسبانبر وكرد بغداد (3) ، ان ينزل بجنده في هذه المدينة الكبيرة التي تتوافر فيها وسائل المنعة فضلا عن كونهـــا مدينة متكاملة المرافق العمرانية والاجتماعية وانها لاتحتاج الى عمل وجهد من الجند الفاتحين لتكون محل سكناهم ، فامر جنده نزول المدائن .

وقد درج قادة فتح العراق والشام ومصر ان يشعروا الخليفة عمر بكل ما يحدث من معارك وفتوحات واستيطان . وكان الخليفة عمر قد الـــزم جيوشه بان لايتخذوا اي قرار مهم الا بعد استشارته . وانطلاقا من هـــذا المبدأ كتب القائد سعد بن ابي وقاص ، باخبار الفتـــح والاستيلاء علـــى المدائن الى الخليفة عمر معلما اياه نزوله مع الجند في المدينة واتخاذها ومحلا [illegible] .

وتشير بعض النصوص التاريخية ان المسلمين اقاموا في المدائـــن فترة من الزمن وانهم اختطوها وبنوا المساجد فيها (4) .

واذا كان القائد سعد يميل الى سكنى المدائن ، فانه كان يزن ميلـــه هذا بنظرة القائد الذي يحرص على توفير الوقت للجند ومنحهم الوقـــت الكافي للراحة بعد الانجاز الكبير الذي حققوه في جميـــع المعـــارك التـــي خاضوها فان نظرة الخلافة في مركزها بالمدينة كانت ابعد في تقديرهـــا ، واشمل في قراراتها ، اذ كما هو معروف عن الخليفة عمر ، انه كان شديـــد الحرص في ان يترك للقادة العسكريين اتخاذ القرارات الاتية التي تتعلـــق بالمعارك ، وفق ما يتطلبه مكان المعركة وزمانها اما تلك القرارات التـــي تتوقف عليها مصائر ، اما كيانها ، وفي الالتزام الكامل بالابقاء علـــى ارواح المجاهدين بعيدا عن خطر الاعداء جسديا وفكريا ، فان البت فيها مرهون بالخليفة .

2) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 275 .

3) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 275 .

4) [illegible]

ومن هذا المنطلق ، اقبل رسول الخليفة الى القائد سعد يستدعي عدم رغبة الخليفة في سكنى المدائن (5) ومن المؤكد ان الخليفة عمر كان يدرك كل الادراك ان الجند العرب المسلمين انذاك كانوا جنودا محاربين تحت السلاح ، وانهم سوف يبقون كذلك حتى تصل مبادىء الدين الجديد الى اوسع رقعة جغرافية ممكنة ، وانه من الافضل ابقاءهم في اماكن عسكرية بحتة لكي يشعروا دائما ان المهمة التي اقدموا لاجلها من الجزيرة العربية لم تنته بعد . لذلك حظر عليهم الخليفة الاشتغال بالزراعة لئلا يتقاعسوا عن الحرب ، ولئلا يميلوا الى الرخاء فيفقدوا بذلك صفتهم العسكرية وحماسهم الحربي ، غير انه سمح لهم باعمال الارضين التي لاحق لاحد فيها وعن جزاء ذلك اعلن لجيوشه ان عطاءهم قائم وان رزق عيالهم جار (6) .

وعامل اخر حفز الخليفة عمر الى تحويل العرب المسلمين عن المدائن ، هو وخومة جو هذه المدينة (7) ، الذي لا يلائم ما اعتاد عليه العرب في الحجاز من جفاف ونقاء الذي يوفره جو المناطق الصحراوية . وقد لاحظ الخليفة عمر تغير الوان وسحن الوافدين الى المدينة من العرب المسلمين الذين نزلوا المدائن ، فاستفسر منهم عن اسباب ما اصابهم من تغيير في صحتهم والوانهم كما ارسل الى قائده سعد بن ابي وقاص مستوضحا عن السبب فكتب اليه قائده يقول :

«انّ العرب خددهم وكفى الوانهم وخومة المدائن ودجلة» . وهناك عامل ثالث شجع الخليفة عمر في الايعاز لقائده بضرورة ترك المدائن ، هي ان الخليفة لم يكن يأمن جانب الفرس من سكنى هذه المدينة ، اذ من المحتمل ان يتجمعوا من جديد وينقضوا على الجند العرب المسلمين في المدائن التي يعرفون مواطن القوة والضعف في قدراتها الدفاعية .

واستجاب سعد الى رغبة الخليفة فاتجه نحو الغرب مسترشدا بتوجيه الخليفة الذي حدد له الاتجاه بقوله في ماكتب اليه : «ان تنزلهم

---

5) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 275 .

6) ناجي معروف ، عروبة المدن الاسلامية ، صفحة 26 .

7) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 277 .

8) الطبري ، حوادث سنة 12 .

منزلا غريبا، (9) حتى وصل الانبار (10) وبني فيها مسجدا (11) .

والظاهر ان الانبار لم تعجب القائد سعد فتحول عنها ، وتشير النصوص التاريخية ان سبب تحوله كثرة الذباب (12) ويرى باحث عراقي ان هذا لم يكن السبب الحقيقي لترك سعد مدينة الانبار ، ويشير ان السبب حربي بحت . اذ ان الانبار لا تصلح من الناحية الحربية لوجود عائق طبيعي هو الفرات وما يتسبب عنه وعن بحيرة الحبانية من فيضانات ومستنقعات ، ولبعدها عن العاصمة المدينة ، مما يؤخر ويعرقل ارسال المدد اذا ما تجدد القتال بينهم وبين الفرس في المستقبل (13) .

وتحول سعد عن الانبار ، واقبل نحو كويفه ابن عمرو ، والظاهر انها لم تعجب القائد سعد لان الماء محيط بها فتركها (14) ، ثم توجه نحو

9) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 277 .

10) الانبار ، وتقع على الضفة اليسرى او الشرقية من نهر الفرات ، وهي الان اطلال واسعة فوق مدينة الفلوجة ويقول جغرافيو العرب انها على مسيرة اثنى عشر فرسخا من بغداد اي ما يقرب من (68) كيلو مترا اذا اعتبرنا ان الفرسخ يساوي 5/7 كيلو متر ويقال ان الذي اختط هذه المدينة هو الملك الساساني سابور الثاني (310 ـ 379 م) ومن المرجح ان هذه الرواية لم يقصد بها تخطيط مدينة جديدة وانما قد تشير الى اعادة مدينة كانت قائمة في الموضع وتحصينها وبقيت الانبار يقطنها اناس مختلفون حتى احتوى سكانها العنصر العربي اثناء الفتح الاسلامي . وجاء ذكر فتح الانبار ضمن الفتوحات التي تمت في العراق على عهد الخليفة عمر بن الخطاب ، وبعد مضي فترة من قيام الدولة العباسية انتقل ابو العباس الى الانبار وبني مدينة اطلق عليها الهاشمية في عام 134 هـ . وتوفي فيها الخليفة ابو العباس عام 136 هـ ودفن فيها بقصره . ومر بها الرحالة بن بطوطة عام 748 هـ ـ 1347 م . ويبدو ان الانبار بدأ خرابها بعد تاريخ 124 هـ ـ 1421 م لكثرة ما اصابها من الحروب فانتقل فوج من اهلها الى الكاظمية ولاتزال محلتهم تعرف بمرحلة الانباريين .

11) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 288 .

12) نفس المصدر .

13) كاظم الجنابي ، تخطيط الكوفة ، صفحة 25 .

14) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 277 .

موضع الكوفة فانتهى الى الظهر وكان يدعى «خد العذراء» ينبت الخزامي والاقحوان والشيح والقيصوم والشقائق ، فأختطوها (5) .

ويشير البلاذري ان ابن بقيلة ارشد سعدا على موضع الكوفة (16) الحالي اذ قال له :«ادلك على ارض ارتفعت عن البق وانحدرت عن العلاة» وهذا الانتقال من مكان الى آخر يثبت من دون شك ان العرب كانوا يحرصون بان يكون المحل المختار لبناء مدنهم صحيا خاليا من الحشرات غير موبوء ولا وخم الهواء وان تكون مناظره ما ترتاح له النفس وهذا ثابت ومؤيد ببعض النصوص التاريخية التي اوردها المؤرخون العرب في مصنفاتهم ومؤلفاتهم ، والظاهر ان ابن خلدون يتجنى على العرب اذ يتجاهل النصوص الواردة في المصادر العربية فيقول معللا السبب في ان المباني التي تختطها العرب يسرع اليها الخراب ويعلل ذلك الى عاملين ، اولا : هو بداوة العرب وبعدهم عن الصنائع ، والثاني : قلة مراعاتهم لحسن الاختيار في اختطاط المدن في المكان وطيب الهواء والمياه والمزارع والمراعي (17) .

وما اوردناه في الصفحات السابقة ، وما اورده المؤرخون العرب عند بحثهم عن تخطيط الفسطاط والقيروان وواسط وبغداد وسامراء ، يناقض رأي ابن خلدون وغيره من الذين يتجاهلون النصوص التاريخية الثابتة ، ويثبت على ان اختيار العرب لمواضع تلك المدن لم يكن امرا غير مدروس وانما يثبت ان الاختيار تم بعد تحريات دقيقة عديدة .

موضع الكوفة :

من الاهمية بمكان ان نعرف موضع الكوفة قبل بناء المسلمين معسكرهم فيه ، ونرى هل ان الموضع معروفا ومسكونا قبل ان يختاره القائد سعد لانشاء مدينة ام انه غير معروف ولا مسكون قبل ذلك التاريخ .

واذا استعنا ببعض الابحاث الحديثة فانها تشير بانه ليس في موضعها ما يثبت او يدل على انها كانت في يوم من الايام مستوطنا من

---

15) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 277 .

16) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 276 ، الطبري 3/598 .

17) مقدمة ابن خلدون ، 1/646 ـ 647 .

المستوطنات الانسانية القديمة ، اذ لم يسبق ان عثر في التنقيات او في ارضها على اثار او ابنية تعود الى عصور ما قبل التاريخ او بعده (18) .

وقبل تمصير الكوفة ، كان الموضع الذي أقيمت عليه المدينة جزء من الضفة اليمنى لنهر الفرات او ما كان يسمى بنهر العلقمي (19) ، وهي اليوم على شاطيء شط الهندية القديم والى الشرق من مدينة النجف بنحو 16 كيلو مترا (20) .

وارض الكوفة مرتفعةسهلة (21) لاتطالها مياه الفيضان ترتفع عن سطح البحر بنحو 22 مترا ، بعيدة عن مناطق الاهوار والمستنقات (22) والى الغرب من موضع الكوفة يقع منخفض يؤلف بحيرة ضحلة مالحة هي بحيرة النجف (23) .

وكان العرب يسمون ظهر الكوفة «باللسان» فكان ما يلي الفرات فهو الملطاط (24) وماكان يلي الظهر فهو «النجف» (25) .

---

18) الدكتور كاظم الجنابي ، تخطيط مدينة الكوفة ، صفحة 11 ، ويضيف بان المنقبين يعثرون بين الحين والاخر على آلات صوانية من الحجر كالفؤوس والمقاشط والسكاكين في بادية كربلاء قرب قصر الاخيضر يرتقي زمنها الى عصور ماقبل التاريخ .

19) قدامة بن جعفر ـ الخراج ، صفحة 234 . عندما يمر نهر الفرات بمدينة هيت ينقسم الى قسمين ، نهر يمر بالكوفة وهو الذي يعرف بنهر العلقمي ، واخر يمر بمدينة سورا يجتازها الى النيل ويتصل به ويسمى نهر سورا .

20) يتفرع نهر الفرات بواسطة سدة الهندية الى فرعين الاول ويدعى نهر الهندية الذي يتفرع بدوره الى فرعين ـ فرع الكوفة وتقع عليه مدينة الكوفة وابو صخير والثاني فرع الشامية . اما الفرع الثاني لنهر الفرات فهو نهر الحلة الذي تقع عليه مدينة الحلة والهاشمية . (انظر جاسم محمد الخلف ، جغرافية العراق الطبيعية صفحة 174) .

21) ذكر ابن الفقيه في كتابه البلدان صفحة 164 بان محمدا بن عمر بن عطارد كان يقول : «ان ارض الكوفة سفلت عن الشام وعملها ووبائها وارتفعت عن البصرة وحرها وعمقها وجاورها الفرات فعذب ماؤها وطاب ثمرها وهي مريئة مريعة .

22) الدكتور كاظم الجنابي ، تخطيط مدينة الكوفة ، صفحة 32 .

23) اليعقوبي ، البلدان ، صفحة 79 .

24) الملطاط هي المنطقة التي تقع بين الكوفة والحيرة كما يشير البلاذري ، في فتوح البلدان ، صفحة 341 .

25)ابن قتيبة ، عيون الاخبار ، الجزء الاول ، صفحة 218 .

ويبدو ان منطقة النجف لم تكن مأهولة بالناس عند اختطاط العرب لمدينة الكوفة ، واغلب الظن انها كانت مستوطنا صغيرا يتبع الحيرة (26) .

واذا كان موضع الكوفة ،الذي اقيمت عليه منشات المدينة العربية الاسلامية غير مستوطن ولا مأهول ، فان النصوص التاريخية تشير ان ظاهر المدينة كان يشمل على عدة اديرة للنصارى .

من هذه الاديرة ، ديارات النجف بظاهر الكوفة ، وهي قباب وقصور تسمى ديارات الاساقفة ، ويخترقها نهر يعرف بـ «الغدير» عن يمينه قصر ابي الخصيب مولى ابي جعفر وعن شماله السدير (27) .

والسدير ـ قصر عظيم ، من ابنية ملوك لخم (28) من قديم الزمان وما بقي الان منه فهو ديارات وبيع للنصاري (29) . ومن الاديرة ـ دير زرارة ، وهو دير حسن يقع بين جسر الكوفة وحمام اعين (30) ، ناحية عن الطريق على يمين الخارج من بغداد الى الكوفة ، وهو موضع نزه حسن ـ كثير الحانات والشراب عامر بمن يطرقه لا يخلو ممن يطلب اللعب ويؤثر البطالة (31) .

---

26) الدكتور كاظم الجنابي ـ نفس المصدر صفحة 32 .

27) السدير : من اشهر قصور الحيرة ويقترن اسمه في اكثر الاحيان بـ «الخورنق» والسدير معرب «سه دير» لانه كان في داخله ثلاث قبب فان «دير» بكسير الدال باللغة البهلوية معناها القبة (انظر الالفاظ الفارسية المعربة صفحة (86) . وعن الخورنق والسدير ـ يرجع كتاب الحيرة ليوسف غنيمة ، صفحات 19 ـ 24 وكتاب الديارات ، لشابشتي صفحة 236 .

28) هم الملوك الذين حكموا الحيرة بين سنة 268 و 632 للميلاد (انظر يوسف غنيمة ، الحيرة صفحة 249 ـ 250) .

29) الشابشتي ـ الديارات ، صفحة 236 .

30) حمام اعين : بالكوفة ينسبونه الى اعين مولى سعد بن ابي وقاص ، انظر ياقوت ، معجم البلدان ، الجزء الثاني صفحة 329 .

31) الشابشتي : الديارات ، صفحة 247 .

ومن الاديرة ـ دير سرجس ـ وكان بطيزناباد (32) وهو بين الكوفة والقادسية (33) علىحافة الطريق بينها وبين القادسية ميل ـ وكانت ارضه محفوفة النخيل والكروم والشجر والحانات والمعاصر (43).

وموضع الكوفة ، من الناحية الستراتيجية ، يوفر للمدينة المنشاة الحماية العسكرية الكافية ، اذ ان موقعها في طرف الصحراء العربية وعلى ضفاف احد فروع نهر الفرات يشبع رغبة الخليفة عمر بن الخطاب في أن لا يفصل بين المدن المقامه وبين مركز الدولة الاسلامي في المدينة المنورة حاجز طبيعي ، حتي يكون في مقدور الجنود العرب التراجع الى الصحراء اذا مابوغتوا بهجوم كبير من القوات الفارسية القادمة من جهة الشرق . كما ان وقوع المدينة في مكان مرتفع يبعدها عن اخطار الفيضان ويسلم ارضها من تجمع المياه الا سنة التي تزيد في كثرة البعوض والحشرات والهوام .

هذا اضافة الى توفر المياه الجارية الكثيرة في المنطقة مما يجعل

---

32) طيزناباد : وهي من اقدم المدن العربية قبل الاسلام في العراق ، كانت تقع بين الكوفة والقادسية بينها وبين القادسية ميل ـ وتعرف اطلالها اليوم باسم «طعير يزات» وهي على نحو تسعة كيلو مترات من شمال شرقي النجف .
(انظر الهامش رقم ـ 2 ـ من كتاب الديارات للشابشتي صفحة 233) .

33) القادسية : اعطى هذا الاسم لمكانين في العراق ، الاول كما اشار ياقوت في معجمه 7/4 هو المكان الذي يبعد 15 فرسخا عن الكوفة ، حيث جرت المعركة الكبيرةبين المسلمين والفرس في عام 16 للهجرة كما اشارياقوت في معجمه 9/4 بانه قرية كبيرة بين حربي وسامراء حيث يصنع الزجاج . وفي سامراء حصن كبير كتب عنه «روس» عندما زار المنطقة في عام 1834 بمجلة الجمعية الجغرافية الملكية البريطانية المجلد السادس صفحة 127 ما يلي : «على بعد 45 ميلا جنوبي غربي القائم يقف الحصن الساساني القديم القادسية .. وهو بناء مثمن من الطابوق بحت قيادة سعد بن ابي وقاص في زمن الخليفة عمر بن الخطاب ، والثاني ، المفخور بالشمس يسمك كل طابوقة 4 انجات وارتفاعها قدم واحد ويقف في كل زاوية برج كبير (انظر الدكتور طاهر العميد ، العمارة العباسية في سامراء صفحة 21) .

34) الشابشتي ، الديارات ، صفحة 233 .

الارض صالحة للزراعة ، مما يسهل على العرب الفاتحين استغلال الاراضي المحيطة بهم بكل يسر وسهولة .

اسم الكوفة :

لم تكن الكوفة تعرف بهذا الاسم قبل ان يمصرها المسلمون ، اذ لم يرد هذا الاسم على هذا النحو في اللغتين السريانية والارامية ، بل انـه عرف بهذه الصيغة عند بناء العرب للمدينة التي حملت هذا الاسم .

واذا اردنا ان نبحث في اصل كلمة «كوفة» فانه ينبغي علينا ان نستعرض الاراء التي قيلت بهذا الخصوص لدى اللغويين والمؤرخين العرب اضافة الى ما كتبه الباحثون المحدثون ثم نبدى رأينا فيما كتبوا مـن آراء .

ويبدو ان هناك بعض الباحثين من يرجع كلمة الكوفة الى الاصل السرياني والارامي .

ولعل الذين يقولون ان اصل كلمة «كوفة» سرياني قد تأثروا بمـا اورده المستشرق الفرنسي «لويس ما سينيون» في انها عرفت عند طائفة السريان التي كانت تنزل الديارات في اطراف الكوفة عند النجف والحيرة باسم «عاقولا» او «ياكيولا» وكلمة «عاقولا» تعني بالسريانية حلقـة او دائرة (35) .

والظاهر ان هذه النسبة غير صحيحة وغير دقيقة ، اذ يشير باحـث عراقي (36 بان الرأي الذي يورده ماسينيون بسريانية كلمة «كوفة» لم تصل الى حد اليقين لان كلمة «عاقولا» او العاقول فيما يبدو منطقة كانت خارج موضع الكوفة وقد اعتمد في رأيه هذا على رواية اوردها الطبري حيث يقـول فيها «كان لعمر اربعة الاف فرس .. اذ كان يشتيها في قبلة قصر الكوفـة وميسرته ومن اجل ذلك يسمى ذلك المكان الآرى الى اليوم ويربعهـا فيما بين الفرات والابيات من الكوفة مما يلي : «العاقول» فسمته الا عاجم اخر الشاهجان . يعنون معلف الامراء وكان قيمه عليها سلمان بن ربيعـة الباهلي في نفر من اهل الكوفة يضع سوابقها ويجريهـا فـي كـل عام» (37) .

---

35) ماسينيون : خطط الكوفة ، صفحة 25 .

36) كاظم الجنابي : تخطيط مدينة الكوفة ، صفحة 15 .

37) الطبري ، حوادث سنة 17 .

هذا اضافة الى ان هناك فرقا غير قليل في التقارب اللفظي بين كلمتي «عاقولا» و «ياكيولا» وكلمة «الكوفة» التي عرفت بها المدينة التي اختطها القائد سعد بن ابي وقاص . ويصبح من غير المعقول تطور هاتين الكلمتين الى كلمة كوفة عشية دخول العرب الى المنطقة ، اذ المعروف ان جميع النصوص التاريخية تشير ان سعدا كان يسمى الموضع الذي اختاره في مراسلاته الى الخليفة عمر بن الخطاب بـــ «الكوفة» .

وهناك فريق اخر ينسب الكلمة الى الاصل الارامي ، فقد كتب يعقوب سركيس بان اسم الكوفة ارامي محرف من كلمة «كوبا» (38) ، فقد اشار الى ان هذه الكلمة وردت في احدى التقاويم للكنيسة السريانية أن الكوفة كان يقال لها «كوبا» دون ذكر او تفسير لمعناها .

ونرى ان العرب ليسوا بحاجة الى تعريف كلمـــة «كوبـــا» اذ ان مفردات لغتهم غنية بكلمة «كوف» واشتقاقاتهاكما سوف نرى في الاسطر التالية .

ولئن كانت كلمة «كوفة» قد وردت في معاجم اللغة العربية ولـــدى تصانيف المؤرخين وفي صيغ مختلفة ، فانهم قد اختلفوا في تحديـــد معناها ، وفي وسعنا ان نستعين بما اورده ياقوت في معجمه عن الكلمة اذ جمع كـل ما قالـه المعـرب عـن الكلمـة : قـال ابـو بكـر محمد بـن القاسم : سميت الكوفة لاستدارتها ، اخذا من قول العرب ، رأيت كوفان ، وكوفان بضم الكاف وفتحها الرملة المستديرة .
وقيل سميت الكوفةلاجتماع الناس بها من قولهم تكوف الرمل .. يتكوف تكوفا اذ ركب بعضه بعضا .

ويقال اخذت الكوفة من الكوفان ، يقال هم في كوفان أيف ي بـــلاء وشر ، وقيل سمت كوفة لانها قطعة من البلاد في قول العرب ، قد اعطيت فلانا كيفه أي قطعة .

ويقال كفت اكيف كيفا اذا اقطعت فالكوفة قطعة من هذا انقلبت الياء فيها واوا لسوكنها وانضمام ما قبلها .

---

38) سومر ، المجلد 10 ، لسنة 1954 ، صفحة 153 وما بعدها .

قال قطرب : يقال القوم في كوفان اي في امر يجمعهم .

وقال ابو القاسم : قد ذهب جماعة . الى انها سميت كوفة بموضعها من الارض وذلك ان كل رملة تخالطها حصباء تسمى كوفة .

وقال آخرون سميت كوفة لان جبل ساتيدما يحيط بها والكفاف عليها وقال ابن الكلبي ، سميت بجبل صغير في وسطها كان يقال له كوفان وعليه اختطت مهرة موضعها ــ وكان هذا الجبل مرتفعا عليها فسميت به (39) .

فيما اورده آراء واضحة وكثيرة ، بسطها اللغويون والمؤرخون العرب بسطها ياقوت الحموي في معجمه ، تدل على ان كلمة ، كوفة وكيفه ، وكوفان وكوفان معروفة لدى العرب ، وقد استخدمها الشعراء في اشعارهم وقد قال جحدر اللص (40) .

يارب ابغض بيت انت خالقه بيت بكوفان منه استعجلت سفر

ونميل نحن الى ان اصل كلمة «كوفة» عربي ــ ذلك لغنى قواميس اللغة العربية في مفرداته بهذه الكلمة ، كما اشرنا وما عرف عن العرب منذ العصر الجاهلي ، انهم كانوا يتأثرون بالطبيعة فيصفونها اصدق وصف ، وقد نقل لنا شعراء هذا العصر احساس العربي بكل ما يحيطه من طبيعة صامته او طبيعة حية (41) فنجده يطلق الاوصاف على ما يقع عليه نظره في صحراء الجزيرة ، وقد توسعت مخيلته في الوصف فشملت الاماكن والمواضع التي ذهب اليها ، وقد تجلى ذلك بشكل واضح ابان الفتوحات الاسلامية حيث خرج الجند العرب الى مناطق العراق والشام ومصر وبلاد فارس . فقد اطلق العرب على العجم اسم «الحمراء» لبياض بشرتهم واحمرار وجوههم وسموا الفرس الذين نزلوا الكوفة ايام سعد بن ابي وقاص بــ «حمراء ديلم» نسبة الى نقيبهم ديلم (42) .

وتشير النصوص التاريخية ان ضمن خطط الفسطاط ، في عهد التأسيس خطة .

---

39) ياقوت : معجم البلدان ، 295/7 .

40) البكرى : معجم ما استعجم 141/4 .

41) نورى حمودي القيسي : الطبيعة في الشعر الجاهلي ، انظر الصفحات 235 ــ 305 .

42) البلاذري : فتوح البلدان ، صفحة 279 .

تعرف بـ «الحمراوات» وهي على الاغلب محل سكن جند الشـــام وعوائلهم ، وقد سموا كذلك لاحمرار وجوهرهم وبياض بشرتهم . ومثل آخر يمكن ان نشير اليه مؤكدين رأينا الذي ذهبنا اليه ، وهو ان العــرب اطلقوا اسم «السواد» على جنوب العراق ووسطه الكثرة نخيله واشجاره وزرعه وما فيها من اخضرار داكن اقرب الى السواد (43) .

ونظرا لاهمية المسجد في حياة العرب المسلمين فان القائد سعـد بن ابي وقاص توجه الى تخطيط المسجد وتنفيذ بنائه قبل الشروع فـي اقامة مرافق المدينة الاخرى كما اهتم في تشييد دار الامارة وبيت المال .

مسجد الكوفة :

على الرغم من اهمية مسجد الكوفة ، اذ انه يعتبر ثاني المساجـد التي اقامها المسلمون في العراق ، بعد مسجد البصرة ، فان المؤرخين العرب لم يفصلوا في الكتابة عنه عند مرحلة تأسيسه ، ماعدا روايتيـن مقتضبتين رواهما البلاذري والطبري ورواية رواها ياقـوت ، وسـوف نعتمد في بحثنا عن المسجد على هذه الروايات الثلاثة .

روى البلاذري بان سعد بن ابي وقاص عندما «انتهى الى موضـع مسجدها امر رجلا غغلا بسهم قبل مهب الشمال واعلم على موقعه ، ثـم غلابسهم قبل مهب الشمال واعلم على موقعه ، ثم غلابسهم قبل مهـب الجنوب واعلم على موقعه

ثم غلابسهم قبل مهب الصبا فأعلم على موقعه ثم وضع مسجدهـا ودار امارتها في مقام الغالي (44) .

اما الطبري فانه قال عن المسجد مانصه : «اول شيء خط بالكوفة وبني حين عزموا على البناء المسجد .. قام رجل في وسطه رام شديـد النزع ، فرمى عن يمينه فأمر من شاء ان يبني وراء موقع ذلك السهم ورمى من بين يديه ومن خلفه وأمر من شاء ان يبني وراء موقع السهمين ، فتـرك المسجد في مربعه علوة من كل جوانبه وبني ظلة في مقدمة ليست لهـا

---

43) الدكتور طاهر مظفر العميد ، بحث «نشأة مدينـة البصـرة ، المجلة التاريخية ، العدد الخامس ، صفحات 174 ـ 175 .

44) ـ البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 339 .

مجنبات ولا مؤخرة والمربعة لاجتماع الناس لئلا يزدحموا .. وكانت ظلته مائتي ذراع على اساطين رخام .. وعلموا على الصحن بخندق لئلا يقتحمه احد بنيان (45) » .

ومن النصين المذكورين اللذين اوردهما البلاذري والطبري نستطيع ان نرسم ملامح التخطيط العام لمسجد الكوفة في عهد التأسيس . ولابد لنا ان نشير بان تحديدجدران المسجد كانت منوطة برمية الغالي ، وعلى الرغم من ان المسافة في رميات الغالي للاتجاهات الاربع للجدران توحي بالاختلاف ، اذ ان تحديد تربيعالمسجد وفق هذا الاسلوب يبدو غير عملي وعملي ، فان الفرق في هذه المسافات كما اظهرتها التنقيبات الاثرية في المسجد كان قليلا(46) .

وتوضح رواية البلاذري ، ان مخطط مسجد الكوفة ، عين اولا جدار القبلة ، وحدد لتجاهه وبعده (47) .

ونستشف من رواية الطبري ان جدران المسجد حددتها رميات سهم الرامي ، مؤيدة بذلك الرواية التي اوردها البلاذري ، وتوضح الرواية ايضا ان مسجد الكوفة عند التأسيس لم يكن له مؤخرة ومجنبات كما ان المسجد

---

45) الطبري ، حوادث سنة 17 .

46) ــ دلت الحفائر الاثرية التي اجريت في مسجد الكوفة وما حوله على ان المسجد المذكور كان قد اقيم على ارض مربعة الشكل تقريبا بانحراف قليل عنزاوية القبلة بمقدار سبع عشرة درجة ، وكشفت المجسمات التي قامت بها مديرية الاثار العامة سنة 1938 م ان بين جدران المسجد الاربعة مروق يسيرة ، فالضلع القبلي منه يبلغ 110 م (اي ان رمية السهم كانت عند تحديد المسجد حسب رواية البلاذري 55 مترا) وكذلك وجد ان جدار المؤخرة المقابلة للضلع القبلي يبلغ 109 م (اي ما يعادل 541 مترا . برمية السهم) والجواران الاخران المجنبان يبلغ طول كل منهما 116 م (اي ما يعادل 58 مترا برمية السهم) .

47) ان تحديد جدار القبلة مهم جدا في تخطيط المساجد الاسلامية اذ من غير تحديد هذا الجدار ــ كما يقول الدكتور احمد فكري في كتابه ،

لم يدعم بسور يفصله عن المنطقة التي تحيط به (48) .

لا توضح نصوص المؤرخين مساحة الكوفة في عهد بانيه سعد بن ابي وقاص الا ان ياقوت الحموي يورد نصا يتضمن عدد المصلين الذين تكفيهم مساحة المسجد فيقول : «كتب عمر بن الخطاب الى سعد بن ابي وقاص «ان اختط موضع المسجد على عدة مقاتليكم ، فخطه على اربعين الف انسان» (49) .

هذا ما نعرفه عن مسجد الكوفة الاول ، اما تخطيطه بعد التأسيس وتطوره ـ البنائي والمعماري فسوف نخصص لذلك بحثا منفردا عندما نتناول مساجد العراق الاولى .

اما دار الامارة التي شيدها سعد بن ابي وقاص لاقامته فان المؤرخين امسكوا عن التفصيل بها ، ما خلا اشارات عابرة وموجزة لا تفيد الباحثين في تصور تخطيطها الاول (50) .

مساجد القاهرة ومد ارسها المدخل صفحات 299 و 307 و 33 ـ كان يستحيل اجراء اي تخطيط للمسجد سواء في جملته او جزيئاته لان جدار القبلة هو بداية مرحلة تخطيط المسجد والمحور الذي يشيد عليه التخطيط . انظر ايضا ، كاظم الجنابي ، تخطيط مدينة الكوفة ، صفحة 110 .

(48) يؤيد ذلك ما يرويه الطبري عن عطاء ابي محمد مولى اسحق بن طلحة قال : وكنت اجلس في المسجد الاعظم قبل ان يبنيه زياد وليست له مجنبات ولا مؤخرة فاري منه دير هند وباب الجسر .

49) ياقوت ، معجم البلدان 297/7 .

50) تراجع رواية البلاذري في فتوح البلدان في صفحة 339 والتي ذكرناها عند الحديث عن المسجد .

تخطيط المدينة :

كان تخطيط مدينة الكوفة يقوم على اساس قبلي اذ ان كل مجموعة من قبيلة واحدة افردت لها خطة لتسكن فيها ، وقد اتبع هذا النظام ايضا في تخطيط مدينة البصرةفقد قسمت خططها على القبائل (51) .

ويروي البلاذري ان مهمة تنظيم خط المدينة وتقسيمها على الناس قد اسندت الى ابي الهياج عمرو بن مالك بن جنادة الاسدى (52) .

وقد قسمت خطط المدينة للناس حول المسجد ودار الامارة وبيت المال ويبدو ان الخليفة عمر بن الخطاب اقطع لبعض اصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، مواضع قريبة من المسجد (53) .

---

51) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 339 ، وروى الطبري 593/3 عن تخطيط البصرة بانها «اختطت على نحو من خطط الكوفة» .

52) فتوح البلدان ، صفحة 339 .

53) يشير اليعقوبي في كتابه البلدان ، صفحات 310 ـ 311 الى الاراضي التي اقطعها لصحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم فيذكر «واختط سلمان بن ربيعة الباهلي والمسيب بن نجبة الفزاري وناس من قيس حيال دار ابن مسعود . واختط عبد الله بن مسعود وطلحة بن عبيد الله وعمرو بن حريث الدور حول المسجد ، واقطع عمر جبير بن مطعم فبنى دارا ثم باعها من موسى بن طلحة ، واقطع سعد بن قيس عند دار ـ سلمان بن ربيعة بينهما الطريق . واستقطع سعد بن ابي وقاص لنفسه الدار التي تعرف بدار عمر بن سعد اقطع خالد بن عرفطة وخباب بن الارت ـ وعمرو بن الحارث بنّ ابي ضرار وعمارة بن رويبه التميمي ، واقطع ابا مسعود عقبة بن عمرو الانصارى ، واقطع بني شمخ بن فزارة مما يلي جهينه واقطع هاشم بن عتبة بن ابي وقاص شبها رسوج خنيس واقطع شريح بن الحارث الطائي ، وقطع عمر اسامه ، بن زيد دارا بين المسجد الى دار عمرو بن الحارث بن ابي ضرار واقطع ابا موسى الاشعري نصف الارى وكان فضاء عند المسجد ، واقطع حذيفة بن اليمان مع جماعة من عبس نصف الارى وهو فضاء كانت فيه خيل المسلمين واقطع ابا جبيرة الانصارى وكان على ديوان الجند واقطع عدى بن حاتم وسائرطي ناحية جبانه بشر واقطع الزبير بن العوام ، واقطع جرير بن عبد الله البجلي وسائر بجيله قطعة واسعة كبيرة ...» .

وتفيد رواية للطبري ، ان الخليفة عمر بن الخطاب قد وجه كتابا الى القائد سعد بن ابي وقاص يحدد له ، تنظيم المناهج والطرق والازقة وذرعها فقال : «ارسل سعد الى ابي الهياج فأخبره بكتاب عمر في الطرق ، انه امر بالمناهج اربعين ذرعا ومايليها ثلاثين ذراعا ، وما بين ذلك عشرين ، وبالازقة سبع اذرع ، ليس دون ذلك شيء وفي القطائع ستين ذراعا الا الذي لبني ضبة» (54) .

وانزل سعد كل قبيلة في المكان الذي خصص لها ، واسهم لنزار واهل اليمن بسهمين على انه من خرج بسهمه اولا فله الجانب الايسر وهو خيرهما ، فخرج سهم اهل اليمن فصارت خططهم في الجانب الشرقي ، وصارت خطط نزار في الجانب الغربي من وراء تلك العلامات وترك مادونها فناء للمسجد ودارا الامارة (55)

54) الطبري ، حوادث سنة 17 هجرية .

55) البلاذري ، فتوح البلدان ، صفحة 339 .

أ ـ المراجع :

ابن رستة (ابو علي احمد بن عمر)
الاعلاق النفسية ـ طبع بريل 1811 م
ابن منظور (جمال الدين ابو الفضل محمد بن جلال) لسان العرب
البلاذري (ابو الحسن احمد بن يحيى بن جابر
فتوح البلـــدان
البكري (ابو عبيد الله بن عبد العزيز)
معجم ما استعجم ، طبع القاهرة 1951
الشابشتي (ابو الحسن علي بن محمد)
الديارات ، نشر كوركيس عواد طبع بغداد 1951
الطبري (محمد بن جرير)
تاريخ الامـم والملوك
الفيروز أبادي (مجد الدين ابو طاهر محمد بن يعقوب)
قاموس المحيط ، طبع القاهرة 1344 هـ
المقدسي (شمس الدين ابو عبدالله محمد بن محمد احمد)
احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، طبع بريل 1906 م
ياقوت (شهاب الدين ابو عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموي الرومـــي البغدادي)
معجم البلدان ، طبع لايزك 1866 م
اليعقوبي (أحمد بن ابي يعقوب بن واضح)
البلدان مطبوع مع كتاب الاعلاق النفسية لابن رستة طبع بريل 1892 م

ب ـ المصادر الحديثة :

أحمد فكري (الدكتور احمد فكري)
المدخل . مساجد القاهرة ومدارسها ، طبع بدار المعارف في مصر سنـة 1381 هـ ـ 1961 م
الجنابي (الدكتور كاظم)
تخطيط مدينة الكوفة ، بغداد 1967
الخلف (الدكتور جاسم محمد)

جغرافية العراق الطبيعية ، طبع القاهرة 1959 م

العلي (الدكتور صالح احمد العلي)

منطقة الحيرة ، دراسة طوبوغرافية مستندة على المصادر الادبية

بحث نشر في مجلة كلية الاداب لسنة 1962

العميد (الدكتور طاهر مظفر)

مدينة البصرة ، بحث نشر في المجلة التاريخيــة العــدد الخامــس

القيسي (الدكتور نوري حمودي علي)

الطبيعة في الشعر الجاهلي 1970 بيروت

ماسينيون (لويس) .

خطط الكوفة .ترجمه وعلق عليه المصعبي

مطبعة العرفان في صيدا بلبنان سنة 1946 م

معروف (الدكتور ناجي معروف)

عروبة المدن الاسلامية

مطبعة العاني ، بغداد سنة 1384 هـ ـ 1964 م

يوسف (رزق الله غنيمة)

، طبع بغداد 1936 م

يعقوب (سركيس)

مباحث عراقية الجزء الثاني طبع بغداد 1945 م

نهاية العصور الوسطى الأوربية والنظريات التي قامت حولها

للدكتور جوزيف نسيم يوسف
كلية الآداب - جامعة الاسكندرية

تحدد نهاية العصور الوسطى الاوربية ظروف تختلف تماما عن تلك التي حددت بدايتها . لقد شاهدت العصور الوسطى المتأخرة ، وبصفة خاصة القرنان الرابع عشر والخامس عشر الميلاديان ، انواعا شتى من الانقلابات التي انتفض لها كيان العالم الوسيط . لقد كان كل شيء في اوربا في تغير تدريجي مستمر ، ولم يكن هناك شيء ثابت على حاله . كانت الدماء الساخنة تجري في العروق معلنة نهاية عصر وبداية عصر اخر

ففي اخريات العصور الوسطى حاول رجال الفن التخلص من قيود العصور المظلمة التي جعلت هذا الفن فنا مسيحيا خالصا لايعبر الا عما هو موجود في الاناجيل والكتب المسيحية . واستمدوا فنهم من عناصر شتى ، منها الحياة الواقعية التي كانوا يحيونها وقتذاك ، ومنها ايضا تراث وآثار اليونان والرومان القدماء الذي كانت أساليبه تختلف عن الفن الذي ساد العصر الوسيط . وكان ان وجد فن انساني رائع في النقش والنحت والصور والتماثيل ، اصبح يصور شتى المعاني والموضوعات ويعبر عن مختلف المشاعر والاحاسيس التي كانت المسيحية وفلسفتها تحرمها تحريما باتا . كما اصبح يمثل تحرك الروح الانسانية من قيود وأوضاع العصور الوسطى المبكرة الى اوضاع جديدة مغايرة .

كذلك خرج رجال الادب عن التفكير المسيحي المحدود الضيق وحاولوا التحرر من تقاليده التي كانت تحد من نشاطهم وانتاجهم الى حد بعيد ، وعادوا الى التراث الكلاسيكي القديم محاولين احياءه . وكـــــ

للعرب فضل كبير في نقل هذا التراث من الشرق الى الغرب . ففي ايطاليا . مثلا . وقد كانت اسبق من غيرها الى عصر النهضة ، وجدنا اديبا مثل دانتي اليجييري Donte Alighieri (1265 ـ 1321 م) يتمسك بعض الشيء بالافكار الوسيطة ، وان كان قد بذر في كتاباته بذور الفكر الحديث ويجيء بعده شخص مثل بترارك Petrarch (1304 ـ 1374 م) يحاول كسر قيود العصر الوسيط . ونعرف انه كان مولعا بجمال الطبيعة وهو الامر الذي حرمته المسيحية التي كانت تدعو الى العالم الاخر والبعد عن ملذات الحياة الدنيا . ثم يجيء اديب مثل بوكاشيو Boccaccio (1313 ـ 1375 م) لينتقد رجال الدين نقدا مرا لاذعا.

واخيرا يأتي شخص مثل لورنسو العظيم Lorenzc الذي دعا الى الحرية والتمتع بالحياة في شتى صورها ومظاهرها ، وهو امر لم يكن مألوفا في القرون السابقة . وكانت جهود امثال اولئك الادباء والشعراء كفيلة بخلق عصر جديد من عصور الثقافة الاوربية ، على حد قول احد المؤرخين الغربيين المحدثين وهو ج . أ سيموندز J. A. Symonds

وفي القرن ... عشر يحاول رجال الفكر الخروج على تعاليم الكنيسة اللاتينية الكاثوليكية التي كانت قد تسلطت على عقول الافراد ومقدراتهم وعلى حياتهم الخاصة والعامة ، لها الامر والنهي ، وعلى انتعيم السمح والتفاهم ويتمادى هذا الى قيام النهضة العلمية الحديثة التي يرجع فيها الانسان الى الدراسات الكلاسيكية القديمة والى المدنية الرومانية . من حيث تحرير الفكر ، والبحث والتنقيب في الكتب التي كان قد نبذها العصر الوسيط لما كانت تحويه من عناصر وثنية . ولهذا تميزت القرون الاخيرة من العصر الوسيط بصفة عامة ، بحرية التفكير ، والتأثر في ذلك بما كان موجودا عند قدماء اليونان والرومان في ميداني السياسة والدين وغيرهما . وكانت النتيجة هي الخروج على تعاليم العصر الوسيط المبكر ، وعلى تعاليم الكنيسة اللاتينية نفسها التي كانت تحد من انطلاق الفكر . كما بدأت المذاهب الفلسفية القديمة في الانتشار ، مثل الافلاطونية الجديدة والارستطالية الجديدة وغيرهما . وأخذت كل جماعة تتعصب لمذهب من هذه المذاهب ، مما ادى الى الصراع الفكري وتطور عقلية الفرد في اخريات العصر الوسيط .

وتميزت هذه الفترة ايضا بالتغيير الذي شمل كافة الاسباب

السياسية والتاريخية . ويبدو هذا بوضوح في المبادىء التي نادى بها شخص مثل نيقولا مكيافيللي Niccolo Machiavelli 1469 ـ 1527م) الذي يمثل ذروة عصر النهضة في اوروبا . والذي يعتبر كتابه الامير خلاصة فلسفة الاستبداد وقتذاك . ويقوم الكتاب على مبدأ ان الغاية تبرر الوسيلة .

كذلك كان للتقدم الذي احرزه الانسان في ميدان العلم والاختراع اثره في القضاء على الاسس التي قامت عليها العصور الوسطى المبكرة ، وفي تهيئة الجو لعصر جديد مغاير . اذ تم اكتشاف الدورة الدموية ، وتشريح جسم الانسان والحيوان والنبات . كما اخترعت البوصلة التي تم استخدامها في الملاحة البحرية . واخترع التلسكوب أيضا ، وظهرت النظريات الفلكية مثل نظرية جاليليو Galileo الذي اثبت ان الارض ماهي الاحد الاجرام السماوية . وتم كذلك استخدام الورق واختراع الطباعة على يد جوتنبرج Gutenberg سنة 1450 م ، وظهرت الكتب تحمل الى الناس العلم والمعرفة ، الامر الذي ترتب عليه اتساع المدارك والافاق مما هيأ الجو لعصر جديد . كما اخترع المدفع والبارود ، وكان لهما اثرهما في دك اخر معاقل وحصون رجال الاقطاع في الغرب الاوروبي . وزوال الاقطاع يعني زوال عصر بكل مفاهيمه وأوضاعه وبداية عصرجديد بمفاهيم واوضاع جديدة مغايرة .

ويجب الا يعزب عن البال ان رجال العلم والاختراع ، شأنهم شأن رجال الفن والادب والفكر والسياسة والتاريخ ، لقوا الكثير من المضايقات والاضطهاد من المتزمتين من رجال الدين . ولكن هذا لم يكن ليوقف عجلة الزمن عن السير في طريقها بعد ان بدأ أفق الانسان الضيق المحدود يتسع تدريجيا ،وبعد ان انطلق هذا الانسان من الدائرة المغلقة التي كان يعيش أسيرها طوال قرون عديدة الى مجالات رحبة واسعة .

وفي نهاية العصور الوسطى تظهر كذلك شخصية الفرد التي لم يكن لها وجود في عصر الاقطاع في المجتمع الغربي الوسيط الا في صلب الطبقات المختلفة التي ينتمي اليها الفرد . بمعنى ان شخصية الفرد تذوب وتنمحي في صلب الطبقة التي ينتمي اليها . فهو اما سيد او مسود ، تابع او متبوع ، له مكانه في السلم الاقطاعي تبعا لما يرتبط به من سعة الاقطاع، اما في بدايات عصر النهضة تبدأ شخصية الفرد في الظهور ، ويبدأ الفرد في التعبير عن أرائه وفي المطالبة بحقوقه وحرياته .

كذلك بدأت حركات الاصلاح الديني التي اخذت تنادى باصلاح الجهاز الكنسي البابوي بعد ان استشرى فيه الفساد ، من رشوة وبيع

صكوك الغفران وزواج رجال الكنيسة والانغماس في المسائل الدنيوية وتدهور الرهبنة والديرية . واصبح الرجل العادي يجرؤ على مساجلة المذهب الكاثوليكي الغربي الذي ساد العصور الوسطى والذي كان الخروج عليه يعتبر هرطقة لها اثارها المفجعة من حيث الحكم باعدام المهرطق حرقا بالنار . وكلنا يعرف محاكم التفتيش والدور الخطير الذي قامت به في اخريات العصر الوسيط بالنسبة لمن تحوم حوله شبهة الهرطقة . وكانت النتيجة هي قيام حركات الاصلاح الديني مثل حركة يوحنا ويكلف الانجليزي John Wiclif (1324 ـ 1384 م) في انجلترا وغرب اوربا وحركة زميله يوحنا هس البوهيمي John Huss (1369 ـ 1415 م) في بوهيميا وشرق اوروبا . وكان ذلك في القرن الرابع عشر وبداية القرن الخامس عشر الميلادي . وكذلك قيام المذاهب المسيحية الحديثة ، وأعمها المذهب البروتستانتي او المعارض في القرن السادس عشر الميلادي ، والذي انتشر منذ قيام مارتين لوثر Martin Luther (1483 ـ 1546 م) بحركته في دول متعددة في غرب اوروبا . وكانت النتيجة اضمحلال الكنيسة اللاتينية وزوال هيبتها وقدسيتها وانفضاض الناس من حولها . وتدهور الكنيسة يعني انهيار ركن اساسي من الاركان التي ارتكزت عليها العصور الوسطى .

كذلك شاهد القرن الخامس عشر بالذات من الحوادث السياسية البالغة الاهمية والتي كان لها اثرها في مجرى التاريخ ، عددا كبيرا . ولعل أهمها اثرا وخطرا دخول الاتراك العثمانيين في اوروبا كعنصر غريب عليها من حيث الجنس والدين ، واستيلاءهم على مدينة القسطنطينية بصفة نهائية سنة 1453 م . وبسقوط تلك المدينة التي تتمثل فيها تقاليد وفلسفة وافكار ومثل العصور الوسطى ، يتهدم اخر صرح من مؤسسات التاريخ الاوربي الوسيط بصفة عامة والدولة البيزنطية بصفة خاصة . كذلك تنتهي في نفس هذا الوقت حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا (1338 ـ 1453 م) التي تعتبر هي الاخرى من مميزات العصور الوسطى وخصائصها العامة . بمعنى ان هذه الاحداث السياسية كانت تعني زوال عصر وبداية عصر جديد .

وفي نفس هذا الوقت نجد ان قيام الممالك الحديثة المستقلة يأخذ اتجاها اخر غير الاتجاه الذي كانت تخضع له تلك الممالك ـ ولو نظريا ـ في اوروبا في العصور الوسطى ، الى سلطان الامبراطور من الناحية الزمنية والى سلطان البابا من الناحية الدينية . ولكن هذه الوحدة تضعف في اخريات العصر الوسيط نتيجة لظروف وعوامل عديدة متعددة .

والنتيجة ان كل حاكم اخذ يجمع اليه كل افراد شعبه ، تاركين الاعتبارات العالمية العتيقة التي تتعلق بنظم اوروبا في العصور الوسطى وبمبــــدأ عالمية الكنيسة اللاتينية . وبدأت الاداب القومية تظهر بلغات تلك الدول بدلا من حصرها في اللغة اللاتينية . وكان هذا تغييرا له دلالته ومغزاه فيما يتعلق بالاسس التي قامت عليها العصور الوسطى .

كذلك قامت في أواخر العصر الوسيط الجامعات التي اصبحت فـــي عصرنا الحالي اساس التعليم العالي ، ومن بين جدرانها تخرج الشباب المثقف المستنير . وقد بزغت شمسها مبكرا في القرن الثاني عشر للميلاد ونهضته العلمية المعروفة بالنهضة العلمية الاولى التي ادت الى احتكاك الفكر الانساني بين عدد من كبار الفلاسفة والمفكرين وتتذاك من امثال الفيلسوف بطرس ابيلارد Peter Abelard والقديس برنارد اوف كليرفو St. Bernard of Clairvaux فهذه الجامعات هي التي حملت لواء العلم والمعرفة مما ساعد على تنوير اذهان الناس وزيادة عدد المثقفين . واخرجت الكثير من العلماء في شتى فروع المعرفة الذين اخذوا ينادون بالاصلاح الشامل في النظم والتعاليم الوسيطة ، ويطالبون بتحرير الفكر وانطلاقه من القيود البالية المتزمته ، مما هيأ الجو لهذا التغيير الكبير الذي شهدته أوربـــا في اخريات العصر الوسيط(1) .

---

(1) حول هذا التغيير الهائل الذي شهدته أوربا في شتى مجالات الحياة في اواخر العصر الوسيط ، انظر المراجع التالية :

Brinton, C. and others, A History of Civilization, Vol. I, New Jersey, 1967, 303 ff., 381 ff., 409 ff., 425 ff. ; Baker D.N. and Fasel G.W. (eds.) Landmarks in Western Culture, Vol. I, New Jersey, 1968, 345 ff. ; Waugh, W.T., A History of Europe from 1378 to 1494, London, 1932, 1-9 ; Le Goff, J., La Civilisation de l'Occident Médiéval, Paris 1965, 445 ff. ; Stone, D., France in the Sixteenth Century, New Jersey, 1969, 6 ff. ; Stephenson, C., Medieval Feudalism, New York, 1942, 102-109 ; Paetow, L.J., A Guide to the Study of Medieval History, London, 1931, 330 - 1, 483-484, 493 ff., 512 ff.

وللمزيد من المعلومات عن هذه النواحي ، انظر ما يلي :

Lodge, R., The Close of the Middle Ages, London, 1922 ; Burckhardt, J., The Civilization of the Renaissance in

واستنادا على كل ما سبق ، يمكن تلخيص اهم النظريات التي قامت حول نهاية العصور الوسطى الاوربية وبداية التاريخ الحديث ، فيما يلي :

النظرية الاولى :

تدور هذه النظرية حول الشاعر الايطالي دانتي اليجييري والكوميديا الالهية . اذ اعتبر بعض المؤرخين ان حياة دانتي وكتاباته باللغة الايطالية المعاصرة له بدلا من لاتينية العصر الوسيط ، والتي لخص فيها اهم ما وصل اليه التاريخ الوسيط ، والتي بذر فيها ايضا بذور الفكر الحديث في القرن الرابع عشر الميلادي – اعتبرها بعض المؤرخين نهاية للعصر الوسيط وبداية لحركة النهضة العلمية التي استمرت في القرن الخامس عشر وبلغت ذروتها في القرن السادس عشر للميلاد . وعلى هذا يكون في رأيهم ان القرن الرابع عشر الميلادي هو نهاية العصر الوسيط وبداية العصر الحديث(2) .

النظرية الثانية :

تدور هذه النظرية حول الاصلاح الديني الذي بدأ في القرن الرابع عشر . اذ قامت كثير من الحركات تنادي بالخروج على تعاليم الكنيسة اللاتينية التي كان قد دب فيها الفساد ، وباصلاح الجهاز البابوي بعد أن تدهورت البابوية وبعد البابوات انفسهم عن التعاليم الاولى للمسيحية. ومن اهم هذه الحركات الحركة اللولاردية الانجليزية التي قامت للاحتجاج على كل ما اخرجته الكنيسة والبابوية في العصر الوسيط من نظم وتعاليم ، والتي تزعمها العالم اللاهوتي المعروف يوحنا ويكلف (1324 – 1384 م) في انجلترا وغرب أوربا . وكذلك حركة يوحنا هس (1369 – 1416 م) في بوهيميا وشرق أوربا . واستمر نشاط الهسيين حتى قيام ثورة مارتين لوثر البروتستانتية في القرن السادس عشر الميلادي ، تلك الثورة التي افقدت البابوية سلطتها وهيبتها والكثير من اتباعها

في اجزاء عديدة من أوربا بعد اعتناق الكثير من الكاثوليك لمبادئهـا . وبخاصة في انجلترا والمانيا(3) .

النظرية الثالثة :

ويرى فريق آخر من المؤرخين ان سنة 1453 م هي التي تحدد نهاية العصور الوسطى وبداية عصر النهضة ، لسببين هامين ، اولهما : انه في تلك السنة انتهت حرب المائة عام بين انجلترا وفرنسا (1338ـ1453م) تلك الحرب التي امتلا بها التاريخ الوسيط ، واعتبرت من مظاهره ومميزاته العامة كالعدوان الصليبي على العالم العربي ، وغير ذلك من الانظمة والحركات الاجتماعية والدينية مثل الرهبنة والديرية والاقطاع والفروسية. اما الحدث الثاني الذي وقع في تلك السنة فهو سقوط القسطنطينية في قبضة الاتراك العثمانيين . وبسقوطها ينهار آخر صرح من مؤسسات الدولة البيزنطية التي تمثلت فيها نظم وتقاليد وفلسفة وافكار العصور الوسطى . وبذلك ينتقل ألعالم الاوربي من تقاليد العصر الوسيط الى اوضاع جديدة مغايرة(4) .

النظرية الرابعة :

تدور هذه النظرية حول حركة الاستكشافات الجغرافية في اخريات القرن الخامس عشر الميلادي . واصحابها يرون ان سنة 1492 م تحدد نهاية التاريخ الوسيط وبداية التاريخ الحديث ، باعتبارها السنة التي

Italy Oxford, 1944 ; Huizinga, J., The Waning of the Middle Ages, London, 1955.

Paetow, op. cit., 541 - 552 ; Baker and Fasel ; op. cit., (2) Vol. I, 284 ; Les Utopies à la Renaissance, Colloque international (avril 1961) sous les auspices de la Fédération Internationale des Instituts et Sociétés pour l'étude de la Renaissance et du Ministère de l'Education nationale et de la Culture de Belgique, Bruxelles, 1963, 23 ff.

اكتشف ذيهاكريستوفر كولومبس ristopher Columbus (1451 ـ 1506 م) امريكا . وفي نفس هذه السنة يقع حادث آخر هام في تاريخ الغرب الاوربي وهو استيلاء اللاتين الغربيين على مملكة غرناطة من الخلفاء المسلمين . وحدث بعد ذلك بست سنوات ان تمكن فاسكودي جاما Vascoda Gama من تطويق رأس الرجاء الصالح والالتفاف حول طرف افريقية الجنوبي في طريقه الى الهند . وكان لهذا آثاره الخطيرة في التاريخ والاقتصاد العالمي . اذ ان اكتشاف البرتغاليين لهذا الطريق التجاري الجديد من ناحية افريقية ادى الى انزعاج المماليك في مصر وضياع الثروة الهائلة التي كانوا يجذونها من وراء التجارة . وقد قاموا ببعض المحاولات للدفاع عن كيانهم . ولكنهم فشلوا في ذلك ، اذ كان الزمام قد افلت من ايديهم بعد ان انتقلت الثروة الى المحيط الغربي واممه . وكان لهذا اثره الضخم ، فبينما ضعفت دولة المماليك بمصر ، وجدت الفرصة امام الاغنياء والتجار من اهل ايطاليا لتشجيع العلوم والآداب والفنون ، الامر الذي عجل بزوال العصر الوسيط وبداية عصر النهضة في أوربا(5) .

لقد كانت هذه الاحداث الخطيرة التي تعرض لها العالم الاوربي الوسيط في اخريات قرونه والتي اهتز لها كيانه بعنف ـ كانت مظهرا من مظاهر عالم متغير قلق غير ثابت ، احتكت فيه الآراء والمباديء الجديدة المتحررة بالتقاليد والافكار القديمة البالية . ثم اشتبك الجديد والقديم في صراع عنيف امتد فترة قصيرة من الزمن ، الى ان اندمجا وتآلفا في اتجاهات جديدة . وكان هذا ايذانا بانتهاء عصر بكل فلسفته واوضاعه وانبلاج عصر جديد بمفاهيم وآراء جديدة مغايرة .

وكيفما كان الامر ، فان هذه التغييرات الهائلة التي اشرنا اليها ، والتي ادت الى الانتقال من العصر الوسيط الى العصر الحديث ، انما كانت مثل التغييرات بين العصرين القديم والوسيط . بمعنى انها كانت

Brinton and others, op. cit., Vol. I, 391., 303 f., 460 ff. (3)
La Monte, JL., The World of the Middle Ages, New York, 1949, 619 (4)

Runciman, S., Byzantine Civilisation, London, 1948, 60 ; Brinton and others, op. cit., Vol. 1, 383-388 ; Ostrogorsky, G., History of the Byzantine State, trans. by J. Hussey, Oxford, 1956, 507-508; Baynes, N.H. and Moss, H. St. L.B. (eds), Byzantium, Oxford, 1953, 49.

عبارة عن عملية تطور بطيء مستمر لا يشمل حادثة معينة او واقعة بالذات فحسب ، بل يشمل جميع الحوادث والوقائع التي اشرنا اليها ، والتي تدور بصفة خاصة حول القرون : الرابع عشر والخامس عشر والسادس عشر الميلاديه ، والتي يبدأ بها عصر جديد له نظمه وحضارته التي تختلف عما كان سائدا من قبل .

ولعلنا نستنتج مما تقدم ، انه مهما كان اختلاف المؤرخين حول النقطة التي تبدأ منها العصور الوسطى الاوربية ، وتلك التي تنتهي عندها ، الا انها من الناحية التقليدية الشكلية تبدأ في القرن الخامس وتنتهي في القرن الخامس عشر الميلادي ، وان كانت الاسباب والعوامل التي مهدت لها والتي ادت الى زوالها تسبق في الواقع قيامها وتستمر بعد انتهائها بقرون عديدة .

Brinton and others, op. cit., Vol. I, 542, 550-552. (5)

الجزيرة العربية في أخبار المؤلفين الصينيين

الدكتور نقولا زيادة
أستاذ التاريخ في الجامعة الأردنية

مع ان المصادر الصينية المتعلقة ببلاد العرب ، والتي ستكون موضع عنايتنا في هذا البحث تخص القرنين السادس والسابع للهجـرة (اي القرنين الثالث عشر والرابع عشر) ، فاننا نرى ان نشير اشارة موجزة لتاريخ الصين في الفترة السابقة لذلك ايضا ، اذ قد تكون ثمة حاجة الى مثـل هـذه المعـرفـة .

كانت بلاد الصين قد عانت من غزوات خارجية ادت الى انقسـام في اجزائها المختلفة . لكن في العام 581 م قامت اسرة سـوى sui التي اعادت الى البلاد وحدتها . الا ان هذه الاسرة لم تعمر طويلا بسبب سوء التصرف الذي بدا من الامبراطور الثاني فيها (يانغ تي Yang Ti) ولما زالت خلفتها اسرة تانغ .

وقد حكمت اسرة تانغ T'ang من سنة 618 الى سنة 907 وكان اشهر ملوكها تاي تسونغ T'ai Tsung الذي تولى العرش من سنة 629 الى سنة 649 . وفي هذه السنة تولى العرش الامبراطوري كاو تسونغ Kao Tsung الذي ظل على العرش الى 683 . لكن الحاكم الفعلي للبلاد في ايامه والى بعد وفاته بسنوات كانـت الامبراطورة ووتسـي تيـان Wu Tse T'ien وكانت ذات شخصية قوية . وقـد نظمت الجيـوش وقادتها في مجال المعارك ، كما انها كانت راعية للفنون والاداب . وكان من مشاهير اباطرة هذه الاسرة ايضا هسوان تسونغ Hsüan Tsung الذي حكم من 712 الى 756 . وفي ايامه حدثت معركة الطراز (على نهر طلس وراء النهر) بين الجيوش العربية وجيش صيني ، وقد كتب فيها النصر للعرب (751 م) .

وضعف شأن اسرة تانغ ، وتردت البلاد في حرب اهلية ثم انقذت مرة ثانية على ايدي الاسر الخمس (907 ـ 960) . ثم تولت أمور الصين عندئذ اسرة سونغ SUNG التي ظلت تتمتع بالسلطة من 960 الـى سنة 1279 . على انه من الواجب الاشارة الى ان هـذه الفترة بالذات

تتكون من قسمين ـ الاول فترة سونغ الشمالية (960 ـ 1126) والثاني عصر سونغ الجنوبية (1126 ـ 1279) . وهذه الاسرة قضى عليها جنكيز خان لما اجتاح بلاد الصين ، كما اجتاح غيرها .

وقد برز بين اباطرة اسرة سونغ كونغ ـ يـن (K'uang - Yin) من سنة 960 الى سنة 976 وتشن تسونغ (Chen Tsung) من سنة 998 الى سنة 1022 وهوى تسونغ (Hui Tsung) من سنة 1100 الى سنة 1175 .

وتعتبر فترة اسرتي تانغ وسونغ من اهم الفترات في تاريخ الصين بالنسبة الى الكثير من الانجازات الحضارية . وها نحن اولاء نجمل هذه النواحي في النقاط التالية :

1 ـ في ايام اسرة تانغ تم الفصل بين الادارة المدنية والحكـم العسكري ، فاصبح اختيار موظفي الدولة المدنيين يتم عن طريق الدراسة والامتحانات الخاصة ، فلم يعد بامكان الضباط والعسكريين ان يصلوا الى المناصب الادارية . وهذا النظام ظل معمولا به حتى العصور الحديثة .

2 ـ في ايام تانغ كانت الصين تسيطر سيطرة تكاد تكون تامـة على الطرق البرية التي تصلها بالمشرق العربي الاسلامي عبر اواسـط اسية . ولذلك فان الثروة التي كانت تحصل عليها من ذلك كانت عظيمة. وكان ان اعتمدت الصين في هذا الوقت بتصدير الشاي والصيني والورق. كما اخترع الصينيون الطباعة في هذا العصر .

3 ـ واذا كانت التجارة الاسيوية البرية قد افلتت من ايدي الصين في زمن اسرة سونغ فان التوسع التجاري البحري عوض اهل البلاد عن خسارتهم . وقد بني اول اسطول بحري في هذه الفترة . وبين سنتـي 1130 و 1237 ارتفع عدد سفنه من احدى عشرة سفينة الى عشرين سفينة، ومن ثلاثة الاف بحار الى 52 000 بحـار .

4 ـ في الفترتين عرفت الصين تقدما في العلم والتكنولوجية والفن والادب على شكل لم يجار . ولعل الفترة التي بلغ التقدم في هذه الامور اوجه هي القرنان العاشر والحادي عشر .

5 ـ كان بعض الرحالين الصينيين قد وصلوا الى الخليج العـربي في العصور السابقة لذلك ، وكان بعض التجار والرحالة قد جاءوا الصين من بلاد ساسان وبلاد الشام وروممه . لكن الاتصال المباشر لم يتم حتى في ايام تانغ وسونغ . الا ان الامر المهم هو ان كثرة التجار الوافدين الى الصين من فارس وبلاد العرب وغيرهما اثارت في نـفوس الصينييـن اهتماما بالتعرف ـ بطريقة غير مباشرة ـ الى تلك البلاد .

6 ـ وكانت الموانىء الصينية الرئيسة فيهـــا مراقبون للتــجارة والتجار . وكان هؤلاء يدونون ما يصل الى البلاد بشيء كثير من التفصيل (راجع 2 ـ مراقبة السفن والتجار) وقد وصلتنا بعض هذه المدونات التي ورد فيها ذكر الموانيء والبلاد التي نقلت منها المتاجر الى الصين وانواع هذه المتاجر ومصادرها ووجوه استعمالها(1) .

2 ـ مـراقـبــة السفـن والتجــار

يبدو انه منذ القرن الثامن كانت السفن التي ترد كنتون (خانفو) بقصد نقل البضائع الصينية تخضع لتسجيل في مكتبمراقب التجارة البحرية (Shi-po-shi) وكان على ربابنة هذه السفن ان يقدموا الـــى المكتب المذكور بيانات عن البضائع التي ينـوون نقلهـــا الى الخـارج . ولا يسمح لهم بالخروج من الميناء قبل ان يدفعــوا رســوم التصديـــر والنـــقـــل (2) .

وقد ورد مثل هذا في وصف سليمان التاجر للتجارة البحرية فـــي كنتون (خانفو اوكوانغ ـ تشو (Kuang-chou) . فهو يقـــول «واذا دخل البحريون من البحر قبض الصينيون متاعهـم وصيـروه فـــي

(1) راجـــع
C.P. Fitzgerald : History of East Asia (London, 1974) pp. 69-87
L.c. Goodrich : A Short History of the Chinese People (New York, 1959) pp. 120, 137, 151
Jannette Mirsky : The Great Chinese Travelers (Chicago, 1964) pp. 13 - 23, 237-248.
F. Needham : History of science and Technology in China (Cambridge,) vol I, pp. 120 ff.
K. Pratt : Visitors to China (London, 1968), pp. 26-46.
C.G.F. Simkin : The Traditional Trade of Asia (London, 1968 pp. 85-99.
E.H. Warmington : The Commerce between the Roman Empire and India, 2ne ed. (London, 1974) pp. 84 ff.

(2) Chau-Ju-Kua - Chu-tan-chï
trs. andeds Friederich Hirth and W.W. Rockhill (St. Peters burg, 1911, neprint, New York, 1966), p. 9.

البيوت وضمنوا الدرك الى ستة اشهر الى ان يدخل آخر البحريين» (3) . وقد وضع سليمان اخبار رحلته هذه في القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) .

ويبدو ان تنظيم هذه المكاتب اعيد النظر فيه في القرن الرابع (العاشر) ، كما ان الموانيء التي فتحت فيها هذه المكاتب زاد عددها . فقد كان ثمة مراقبون في هانغ ـ تشو (Hang-chou) ـ ومنغ ـ تشو (Ming-chou) وتوسوان ـ تشو (Ts'uan-chou) الذي ورد اسمها زيتون ، اما كنتون فقد تعطل العمل فيها (14) .

وفي القرن الثاني عشر عادت كنتون الى ما كانت عليه بالاضافة الى الموانيء الثلاث المذكورة فوق واضيف على ما يبدو ، مكتب في فوتشو (Foochow) . وكان يطلق على هذه المدن الموانيء الرسمية (5) .

والواضح من مدونات المراقبين ان الشخص المسؤول ، والذي كان يعمل نفر من الرجال تحت امرته ، كان يتولى الاشراف على دخول السفن الى الموانيء وخزن المتاجر وتحصيل الرسوم المتوجبة عليها . وبعد يختار صاحب السلطان ، بواسطة عملائه ، ما يريد من البضائع يسمح ببيعها (6) . ولعل هذا كان بالاضافة الى ما ذكر قفلاً من مراقبة البضائع المصدرة .

وبسبب من العناية التي كان يوليها هؤلاء المراقبون لمصادر المتاجر الواردة عليهم ، وصلت الينا ، على ما اشرنا الى ذلك قبلا ، اخبار منتقاة من التجار الاجانب عن البلاد المتعددة التي كانوا يأتون منها .

3 ـ مدونة تشاوجو ـ كاو

وصلتنا ثلاث مدونات رئيسية من النوع المذكور والتي تعطينا لنا جغرافيا يشمل فيما يشمل بعض موانيء الجزيرة العربية وبعض

اخبار الصين والهند لسليمان التاجر تحقيق Sauvaget (باريس ، 1948) ص 16 ، من رحلات العرب (نقولا زيادة) (بيروت 1974) ص 31

Ju-Kua, p. 20

Ibid., p. 22; Miksin. p.98

الجزر المحيطة بها . والمدونات الثلاث اثنتان منها تعودان الى القــرن الثاني عشر ، والثالثة تعود الى القرن الثالث عشر ، وهي التي ستكـــون موضع اهتمامنا الخاص في هذه الدراسة المتواضعة .

اما المدونةالاولى فاسمها بينغ ـ تشو ـ كو ـ تان (Ping-chou - K'o - tan) وهي من وضع تشو يو (Chu Yu) . وقد تم له ذلك بين سنتي 1111 و 1117 ، على نحو ما يتضح ذلك من الاشارة الى احداث تاريخية تقع في هذه الفترة ، وهي آخر ما دون فيها . وقد كان والد المؤلف موظفا في كنتون في اواخر القرن الحادي عشر وان كان الباحثون لم يعرفوا طبيعة الوظيفة التي كان يشغلها تماما ، لكن المؤلف كان دقيقا في وصف ما كان يقوم به موظفو المال والجمارك من اعمال وما يدفعــــه التجار من رسوم تبلغ 30 بالمائة ، وان كان الغالب عليها 10 بالمائـــة . والتفاوت بين قيمة الرسوم يتوقف على طبيعة البضاعة ، فكلما ارتفـــع سعر المتاجر زادت الرسوم المدفوعة عليها (7) .

على ان هذه المدونة لا تفيدنا كثيرا فيما يتعلق ببلاد العرب .

والمدونة الثانية هي لنغ ـ واي ـ تاي ـ تا (Ling-wai-tai-ta) وقد وضعها تشو كنوي ـ فـــي (Chou K'u-fei) حول سنة 1978 . وقد كان المؤلف من اهل ونتشو (Won-chou) ولما وضع كتابه كان مساعدا اداريا في عاصمة ولاية كوانــغ ـ ســـي (Kuang-si) . ويبدو انه جمع مادته لمدونته لما مر بكنتون في طريقه الى مقر عمله (8) .

اما المدونة الثالثة فهي تشو ـ فان ـ تشي (Chu-fan-chi) التي كتبها تشاو جو ـ كوا (Chau Ju-Kua) وذلك في القــرن الثالث عشر .

واذا نحن قبلنا بالتفسيرالذي تقدم به هرث (Hirth) وركهل (Rockhill) كان معنى هذا ان جو ـ كوا وضع هذا المؤلف بين سنتي 1242و1258 .

والمؤلف متحدر من نسل احد الاباطرة الذي عاش في اوائل القرن الحادي عشر . وكان المؤلف يشغل منصب «مراقب التجارة الخارجيـــة»

Ju-Kua pp. 16, 21 - 22

Ju Kua pp. 16 - 21 - 22. (7)

وقد دفعت رسوم بلغت 40 ـ (سنة 1144 م) و 50 ـ (سنة 1175).

Ibid., p. 22 (8)

في ميناء تسوان ـ تشو (Ts'üan-ch'ou) على شاطيء فوكيين (Fu-Kien) شرق الصين . وهذا العمل هو الذي يسر له الحصول على المعلومات اللازمة من التجار الصينيين والغرباء على السواء . والذي دونه جو ـ كوا كان يتعلق بالبلاد الاجنبية ومن ثم فاسم كتابه ، مترجما الى العربية ، هو «وصف الشعوب الاجنبية» (10) .

ومع ان هذا الكتاب نقل عنه كثير من المؤلفين الصينيين اللاحقين ، فقد ظل امره مغمورا . ويعود السبب في ذلك الى انه كان من المألوف عند الكتاب الصينيين ان ينقلوا عن سابقيهم دون الاشارة الى اسمائهم او اسماء كتبهم (11) .

وقد افاد المؤلف كثيرا مما اورده تشوكو ـ فيي في كتابه ، اذ نقل عنه جملا او فقرات او حتى فصولا كاملة . لكن الذين انصرفوا الى دراسة مقارنة لهذا النوع من الادب الجغرافي التجاري يرون ان جو ـ كوا قد حصل على مادة جديدة كثيرة من التجار اودعها كتابه وكان فيها فائدة كبرى لدراسة طرق التجارة والبلاد التي ارتبطت بالصين تجاريا والمتاجر التي كانت تنقل وحتى انواع السفن وبعض المعلومات عن البحارة (12) .

ينقسم كتاب جو ـ كوا الى قسمين الاول يتناول الاقطار والشعوب التي كانت لها علاقات تجارية مع الصين والثاني يبحث في المتاجر نفسها .

والقسم الاول يبدأ فيه المؤلف بتونكنغ وينتقل بعد ذلك الى انام فكمبوديا فالملايو فبورما واندونيسيا وسيلان (سري لانكا اليوم) والهند والبلاد العربية والصومال ومصر وبعض مناطق البحر المتوسط وجزره كالمغرب وجزيرة صقلية . ويختم القسم بفصول عن جزر الفليبين وكوريا واليابان . وفي هذا الحديث يهتم المؤلف بالموانيء او المدن التي يرتادها التجار اكثر من اهتمامه بالوصف العام للبلاد نفسها .

[illegible] البلاد العربية من هذا القسم حظا لابأس به . فالموضوعات [illegible] اما عن [illegible] العرب ومكة وصحار وعمان وبغداد والبصرة [illegible] والقاهرة) والاسكندرية والمغرب الاقصى . واذا تذكرنا ان [illegible] في وقته كان الاسلام قد انتشر في رقاع اوسع من الرقعة [illegible] يعتبر بلاد العرب وبلاد الاسلام شيئا واحدا (على ما

(10) Ibid., pp. 35-36
(11) Ibid., p. 36
(12) Ibid., p. 41

سندري فيما بعد) فانه يتحتم علينا ان نضيف ما ذكره عن زنجبار والصومال وجزيرة كيش (قيس) وغزنة واسية الصغرى وجنوب اسبانية وصقلية ، وبذلك توفر لنا ست وثلاثون صفحة من اصل 145 صفحة هي جماع ما كتبه في القسم الاول . وليس ذلك بغريب فان اشتغال العرب والمسلمين بالتجارة في البحار الشرقية في ذلك وتبادلهم السلع مع الاقطار الواسعة امر معروف .

اما القسم الثاني من الكتاب فهذا الذي يتداول المؤلف فيه اصناف البضائع التي كانت تحمل الى الصين ، ويعنى بذكر خصائصها ومنافعها وحتى اوجه استعمالها احيانا . فعندما يحدثنا عن اللبان يذكر انه يوجد منه ثلاثة عشر نوعا مدرجة على اساس ما في كل نوع منها من الجودة وقوة الرائحة ،ثم يوجز هذه الانواع جميعها مركزا على اجود ثلاثة منها (13) . اما خشب السابان (sopen-wood) ، وهو المعروف عربيا باسم البقم ، فيذكر انه يستعمل في الدباغة (14) . ويذكر ان زيت الستوراكس ، وهو صمغ يشبه المر ، كان يستعمل في تهيئة المستحضرات الطبية (15) . وعندما يتحدث عن اللؤلؤ يصف الغوص عليه في الخليج العربي (16) .

وقد ضم كتاب جو ـ كوا الى مجموعة كبيرة من الاعمال الادبية الصينية التي اعدت في اوائل القرن الخامس عشر وفي سنة 1783 طبع الكتاب لاول مرة بالصينية ثم طبع ثانية في سنة 1805 . والطبعتان تكادان ان تكونا متطابقتين .

وكان ج . بوتيه (G. Pouthier) اول باحث غربي اهتم بهذا الكتاب اذ نقل فصلا منه يتحدث فيه المؤلف الصيني عن بطريرك النساطرة (1857) كما نقل هوك (Huc) الفصل نفسه حول الوقت ذاته . وقد ترجم فردرك هيرث (Friedrich Hirth) الكتاب باكمله (1885 ـ 1895) . وفي سنة 1911 ظهرت ترجمة انكليزية كاملة مع الهوامش المفصلة هي نتيجة العمل المشترك الذي قام به هيرث وزميله و . و . روكهل ((W.W. Rockhill)) ونشرت في مدينة بطرسبورغ (لينينغراد اليوم) . وهذه هي النسخة التي اعتمدنا عليها في هذا البحث معاد طبعها في نيويورك (1966) .

---

(13) Ibid., pp. 195-6
(14) Ibid., p. 217
(15) Ibid., p. 200
(16) Ibid., pp. 229-230

٤ ـ العرب عند جو ـ كوا

يستعمل جو ـ كوا كلمة تاشي (Ta - shi) بشكل عام بحيث انها تعني العرب او بلاد العرب او المسلمين او بلاد الاسلام . (17) بل يستعملها احيانا في اشارته الى الجاليات العربية او الاسلامية التي كانت تقيم في جنوب شرق اسيه وخاصة في جاوة وسومطرة (18) . ولعل خير ما يمكن ان يقال في هذه المناسبة هو تلخيص هذا الفصل المتعلق ببلاد تا ـ شي وتوضيح دلالة اللفظ المختلفة ، مشيرين الى ما في اخبار جو ـ كوا ، المنقولة عمن سبقه وعن التجار الزائرين لبلاده ، من اخطاء .

(1) يقول المؤلف بان بلاد تا ـ شي تقع الى الغرب والشمال الغربي من الصين لكنهما لا تتجاوران ، بل ان المسافة بين المنطقتين بعيدة . اذ ان السفينة تحتاج الى اربعين يوما الى مدينة لان لي (في جزيرة سومطرة) ثم الى ستين يوما حتى تصل الى مدينة على ساحل حضرموت (جو ـ كوا ص 114 و 119 هامش 2) .

(2) بالنسبة الى المناخ يذكر شيئا واحدا وهو ان البرد في تا ـ شي شديد وان الثلوج [illegible] فيها بكثرة (ص 115) . وهذا يدل على ان المؤلف جمع نتفا تتعلق [illegible] عرف عندهم باسم تاشي وضمه بعضه الى البعض الاخر ، ومن هذا كانت لديه هذه الاشارة الوحيدة الى المناخ .

(3) يعدد جو ـ كوا المناطق التي تتبع تاشي او تعتمد عليها (ص 168 ـ 117 و 121 هـ) (11 و 12 و 13) . وسنرى من الجدول التالي انه لم تكن لديه ذكرة واضحة عن المنطقة العربية الاسلامية بكاملها ، بل ان الذي فعله هو انه جمع في هذا الجدول كل الاماكن ـ موانيء او مدن او مناطق صغيرة ـ التي تقع الى الغرب والشمال الغربي من الصين . وهذا هو الجدول الذي وضعه جو ـ كوا .

Ibid., pp. 114-119

Ibid., pp. 204, 205 n. 1, 124, n. 25

لا يتحدث جو ـ كوا عن مثل هذه الجاليات في الصين لانه معني اولا وآخرا بالتجار الذين يفدون على الصين .

الاسم الصيني بالحروف العربية	بالحروف الافرنجيه	ما يقابله بالعربية
مرباط	Ma-lo-mo	ما ـ لو ـ مو
الشحر	Shi-ho	شي ـ هو
ظفار	Nu-fa	نو ـ فا
خوارزم	Lo-ssï-mei	لو ـ سي ـ ميي
مكران	Mu-Kü-lan	مو ـ كو ـ لان
قلهات	K'ie-li-ki	كي ـ لي ـ كي
افريقية (اي المغرب العربي)	P'i-no-ye	يي ـ يو ـ يي
العراق	I-lu	ا ـ لو
بغداد	Pai-ta	باي ـ تا
سيراف اوشيراز	Ssi-lien	سي ـ لين
البحرين	Pai-lien	باي ـ لين
ميناء في مكران	Tsi-ki	تسي ـ كي
جزر القمر	Kan-mei	كا ن ـ ميي
بخارى	P'u-hua-lo	بو ـ هوا ـ لو
زنجبار	Ts'ong-pa	تسونغ ـ با
بربرا (الصومال)	Pi-p'a-lo	بي ـ با ـ لو
صحار (؟)	Wu-Pa	وو ـ با
عمان	Wöng-li	وونغ ـ لي
ـ ـ	(Yung-man)	(يونغ ـ ما ن)
جزيرة قيس	Ki-shï	كي ـ شي
مكة المكرمة	Ma-Kia	ما ـ كيا
البصرة	Pi-ssi-lo	Pi-ssi-Lo
غزنة (؟)	Ki-tz'i-ni	كي ـ تسي ـ ني
الموصل او مصر	Wu-ssi-li	وو ـ سي ـ لي

(4) ومع ان جو ـ كوا يبدو متخطبا او مضطربا في معلومات الجغرافية ، فانه اكثر اضطرابا فيما يتعلق بالتاريخ بالنسبة الى العا الاسلامي . وقد ابدى هيرث رروكهيل استغرابهما لقلة ما وصل المؤلفين الصينيين من معرفة عن هذه القضية مع وجود هذا الاتص التجاري الواسع مع العرب والمسلمين (ص 122 هـ 14) . والذي نجد

جو ـ كوا ، فيما يتعلق بالتاريخ الاسلامي هو انه يذكر الرسول الكريم (ص) باسمه باللفظ الصيني ما ـ هيا ـ وو (Ma-hia-wu)) . ويقول ان المسلمين يصلون الى السماء (طبعا لم يكن باستطاعة جو ـ كوا ان يعبر عن عبادة الله بغير هذه العبارة) . وانهم يصلون خمس مرات في اليوم وانهم يصومون ويحجون (116) . لكنه يقول ان الصيام يتم في بدء السنة ولسنا ندري هل قصد السنة القمرية الهجرية (وهو خطأ طبعا) او قصد التقويم الصيني (وعندها تكون عبارته غير تامة لان موقع شهر رمضان يتغير بالنسبة للسنة الشمسية) . ويذكر تبدل الدولة من الامويين الى العباسيين . فبنو مروان يسميهم يون ـ تي ـ مو ـ هوان (P'ön-ni-mo-huan) ويسمي ابا العباس ا ـ بو ـ لو ـ با (A-P'o-lo-pa) . ويقول ان بني مروان كانوا يسمون « المتشحين بالبياض» وان الذين جاءوا بعدابي العباس كانوا يسمون «المتشحين بالسواد» .

(5) يصف سكان بلادنا ـ شي بانهم ممتازون وشجعان (ص 115) وهذا بطبيعةالحال تعميم قد يكون له ما يبرره .

(6) يشير جو ـ كوا الى عاصمة تا ـ شي ويصفها (ص 115) ولكنه لا يعينها بالاسم (ص 120 هـ5) . ويقول عن العاصمة (؟) انها مركز كبير للتجارة وان عرض الشوارع فيها نحو خمسة عشر مترا ، وان وسط الشارع فيه مسار خاص بالدواب ، كما ان الارصفة توجد على جوانبها لمصلحة المشاة ورجال الاعمال . ويقول عن البيوت انها تشبه بيوت الصينيين ، الا ان اهل تا ـ شي يستعملون الحجارة بدل الطوب (الاجر) . ويذكر ان اهل تا ـ شي يأكلون الارز وغيره من الحبوب ولحم الضان ويصنعون منه اصنافا مع المعجنات . ويأكل الكثيرون منهم السمك والخضر والفواكه . ويفضلون المآكل الحلوة على الحامضة . ويشربون عصير العنب اما طازجا او مخمرا . ويتداولون شرابا ساخنا مصنوعا من الافاويه بالسكر او بالعسل ، وهذايمنحهم الدفء .

(6) يصف المؤلف قصر سلطان تا ـ شي . ولكن لاننا لا نعرف العاصمة التي يقصدها فاننا لانستطيع ان نعرف اي قصر يصف ! هل الاخبار التي بلغته عن القاهرة الفاطمية او بغداد العباسية او حتى دمشق . ويرى محققا (ومترجما) جو ـ كوا ان الوصف الذي اورده للعاصمة وللقصر (بمافي الوصف من فخامة وابهة مثل الاشارة الى عرش فخم وثياب مصنوعة من الحرير المزوق بخيوط الذهب واعمدة من المرمر) هو جماع ما بلغه عن اكثر من مدينة من مدن منطقتنا ، ضمه الى بعضه البعض دون ان ينتبه الى ما فعل تماما . كما ان وصفالقصر مأخوذ

مما رواه احد الوفود (التجارية) التي جاءت الصين للتجارة بين سنتي 1111 و 1118 (ص 120 هـ 5) .

(7) ويحدثنا جو ــ كوا عن الوفود التي ذهبت من بلاد تا ــ شي الى بلاط امبراطور الصين ، وهي طبعا وفود تجارية وكانت عديدة . فقد ورد ذكر عدد منها وصل بلاد الصين في سنوات 968و971و973و1974و975و976 و 977 و 999 و 1003 و 1004 و 1008 و 1011 و 1019 . والذي يجب ان يذكر دائما ان المؤسسات الصينية الرسمية كانت تشير الى هذه الوفود التجارية بانها كانت تفد على الصين حاملة هدايا ، وان الامبراطور كان يقبل هذه الهدايا ويجزي حامليها بالذهب او الفضة او الحرير او الصيني . ذلك بان المؤلفين الصينيين ، جريا على ما كان ملوكهم يرون ، لم يكونوا يعتبرون هذه الوفود تجارا يحملون بضائع يودون مبادلتها بمتاجر صينية (كان هذا ينطبق على التجار الآتين من البلاد الاخرى طبعا) ، بل انها تتودد الى الصين عن طريق الهدايا . ولم تكن لهذه الوفود صبغة رسمية ، بمعنى ان احدا من اولى السلطة في بلاد تا ــ شي الواسعة قد ارسلها لاسترضاء البلاط الصيني . لكن مصادر صينية اخرى تذكر ان الوفد الذي وصل البلاط الصيني سنة 976 جاء من قبل كبير البلاد (اي الخليفة) الملقب كو ــ لي ــ فو (K'o-li-fu) . وان الوفد كان برئاسة يو ــ لو ــ هي (Pu-lo-hai) اي ابو حامد . كما ان وفدا ذهب الى الصين من البلاط الساماني في بخارى (1003) (ص 117 ــ 118 ، 120 هـ 5 ، ص 122 ــ 3هـ17و18و 19 و 123 .

(8) يصف جو ــ كوا ميناء كبيرا في تا ــ شي يبلغ عمقه ما يزيد عن ستين مترا ، ومفتوح على جميع الجهات ويقيم السكان على جانبي الميناء وتقام هناك الاسواق وترسو السفن المحملة بكل انواع المتاجر (ص 116) . اما اين يقع هذا الميناء ، فلا يعرف . وقد اقترح الباحثون القلزم (مصر) او الابلة او البصرة (ص 121 هـ 9) .

(9) من حيث ان جو ــ كوا كان يتحدث عن منطقة واسعة ومن حيث ان جغرافية المنطقة قد اختلطت عليه ، فان ما ذكره عن ما تغله او تنتجه المنطقة اختلط عليه ايضا ، لذلك فهو ، اذ يعدد ما تنتجه المنطقة (حتى في اوسع حدودها) يذكر اشياء سيلانية او هندية او اندنوسية اصلا . فهو يورد اللؤلؤ واللبان والمرودم الاخوين والبلور والقماش بين ما ينتج في المنطقة وهذا صحيح . لكنه ذكر ما كان ابناء المنطقة يتاجرون به على انه من منتوجات تا ــ شي مثل العاج وقرن وحيد القرن والكاسيا والزنجبيل وجوزة الطيب وغيرها ، وهذا خطأ (ص 116) .

5 ـ مدن الجزيرة العربية وموانئها الوارد ذكرها

الاماكن التي ورد ذكرها في كتاب جو ـ كوا والتي هي من مناطق الجزيرة هي مكة وصحار وعمان والشحر وظفار ومرباط ، وقلهات وجزيرة سقطرى . وها نحن اولا ننقل اهم ما ورد في الكتاب عن هذه الاماكن .

(أ) مكة المكرمة وترد عنده باسم ما ـ كيا (Ma-Kia)

ويقول عنها انها تبعد مسيرة ثمانين يوما عن مرباط (في حضرموت) . وهذا الطريق الذي يشير اليه دون ان يصفه هو الطريق القديم لتجارة البخور . ويقول جو ـ كوا ان محمدا (ص) ولد في مكة ويورد اسمه هكذا ما ـ هي ـ وو ((Ma-hi-wu)) . وان فيها بيت العبادة (ويقصد الكعبة المشرفة) ، وانه يقام فيها الحج مرة في العام (ولكنه يخطىء اذ يربط بين تاريخ الحج ووقت وفاة الرسول (ص) . ويذكر ان كسوة جديدة تعلق على الكعبة ، وان هذه الكسوة تصنع من الخز المزخرف بخيوط الذهب . ويضيف انه على مسافات ابعد من ذلك يوجد قبر الرسول (ص) ، دون ان يسمي المدينة المنورة بالذات (19) (ص 124 ـ 125) .

(ب) يرد في الكتاب اسم ميناء هي وو ـ با ويقول (Wu-pa) عنها المؤلف انها على الساحل وان طريقا بريا يصلها ببلاد ـ تا ـ شي (ص 130) . وعبارة يصلها ببلاد تا ـ شي لا تعني شيئا محددا بسبب ما ذكرنا من قبل من اختلاط الامور الجغرافية والتاريخية على جو ـ كوا . ولكن مترجمي الكتاب يريان ان هذا المكان قد يكون صحار لانه يتفق مع اوصاف اخرى لاماكن ذكرت بهذا الشكل (ص 117 و 122 هـ 13) .

(ج) يذكر المؤلف بين المناطق التابعة لتا ـ شي ما ـ لو ـ مو ، وشي ـ هو ، ونو ـ فا ، وكي ـ لي ـ كي (راجع الجدول في الصفحتين السابقتين) . وهذه الاماكن هي على الترتيب مرباط والشحر وظفار وقلهات

وقد جاء في مدونة تشو ـ كو ـ فيي ان مرباط فيها بيوت تتكون من خمسة ادوار وفي الميناء تتجمع السفن الكبيرة ويلتقي التجار الاغنياء . ويرد اسم هذه المدينة عند المؤلف المذكور ما ـ لو ـ يا ويقول انها هي

---

(19) يبدو ان تشو ـ كوا ـ في كان اول مؤلف صيني كتب عن مكة ، وعنه نقل جو ـ كوا . وثمة اشارة في مصدر صيني سابق (تانغ ـ شو (T'ang-shu) الى محمد (ص) والمدينة المنورة والحجر الاسود ، لكن دون ذكر مكة .

راجع Ju-Kua, p. 125m.1

ما ـ لي ـ يا نفدها . وهذه التسمية اقرب الى مرباط ـ نما ـ لو ـ مو الواردة عند جو ـ كوا (ص 121 هـ 11) . وتو ـ فا يرد اسمها في مصدر صيني آخرتسو ـ فا ـ ار ((Tsu-fa-ïr)) (ص 121 هـ 12) .

(د) وهناك اسم يرد بشكلين هو يونغ ـ مان (Yung-man) وونغ ـ مان ((Wöng-man)) والمنطقة هي عمان . وقد ورد في رحلة سليمان التاجر فاما المواضع التي يردونها (التجار ويرقون اليها فذكروا ان اكثر السفن الصينية (لعل المقصود المصنوعة في الصين) تحمل من سيراف ، وان المتاع يحمل من البصرة وعمان وغيرهما الى سيراف . فيعبى في السفن الصينية بسيراف وذلك لكثرة الامواج في هذا البحر وقلة الماء في مواضع منه . والمسافة بين البصرة وسيراف في الماء مائة وعشرون فرسخا . فاذا عبي المتاع بسيراف استعذبوا منها الماء وخطفوا ـ وهذه لفظة يستعملها اهل البحر : يعني يقلعون ـ الى موضع يقال له مسقط وهو آخر عمل عمان . والمسافة من سيراف اليه نحو مائتي فرسخ .. وفي هذا البحر جبال عمان» (20) .

ويذكر المسعودي ان سفن سيراف وعمان كانت تزرع بحار الصين والهند والسند والزنج واليمن والحبشة والقلزم (21) . كما ان جو ـ كوا يعيد الى الاذهان ان عمان كانت تتاجر مع البصرة (ص 137) . ويقول ابن بطوطة ان اسرع الخيول التي كانت تحمل الى الهند كانت تأتي من اليمن وعمان وفارس (22) . ولعل المقصود بالنسبة الى اليمن وفارس ان موانئها كانت نقاط تجمع للخيول المنقولة من اماكن اخرى .

(هـ) يقول جو ـ كوا (ص 131) انه على مقربةمن الصومال يوجد جبل او جزيرة (فالاشارة الصينية للاثنين كانت واحدة هي (4) . والمقصود بالجزيرة سقطرى التي يبلغ محيطها نحو 4000 لي (وهو قياس للمسافة يبلغ طوله نحو 535 مترا) . واذا صح هذا التفسير فالجزيرة اولى ان تعتبر جزءا من الجزيرة العربية . والجزيرة مشهورة بدم الاخوين ((dragon's blood) . وقد جاء عن سقطرى في ياقوت ما يلي :

---

(20) اخبار الصين والهند لسليمان التاجر ، طبقة سوفاجية ، ص 7 ، من رحلات العرب (نقولا زيادة) 22 ـ 23 .

(21 المسعودي ، مروج الذهب ، ج 1 ص 281 .

(22) ابن بطوطة طبق باريس ج 2 ص 374

«سقطرى .. جزيرة عظيمة كبيرة فيها عدة قرى ومدن تناوح عمان جنوبيها عنها وهي الى بر العرب اقرب .. والممالك الى بلاد الزنج يمر عليها .. يجلب منها الصبر ودم الاخوين وهو صمغ شجر لا يوجد الا في هذه الجزيرة ، ويسمونه القاطر وهو صنفان : خالص يكون شبيها بالصمغ الا ان لونه احمر .. والصنف الاخر مصنوع من ذلك» (24) .

6 ـ المتاجر : ما ينتج في الجزيرة نفسها

يبدو انه في الوقت الذي وضع فيه جو ـ كوا كتابه ان المتاجر التي تنتجها الجزيرة العربية والتي كان التجار الصينيون يمدون بالحصول عليها لم تكن كثيرة . ونود ان نذكر الزملاء بامرين : الاول ان التاجر الصيني المقيم في بلده كان يعني ، بالدرجة الاولى ، بالاشياء الكمالية ، اذا جاز التعبير . والثاني اننا ، في هذا البحث المقتضب ، ننقل اخبار المؤلف الصيني بالنسبة الى اجزاء معينة من بلاد العرب او ديار الاسلام ، اي الموانيء او المدن او المناطق الواقعة في الجزيرة العربية نفسها ، اي اننا لا نتعرض للتجارة الصينية مع بلاد العرب والاسلام عامة .

ولعل المادة الكبرى التي كانت الجزيرة تزود بها الصين والبحار الشرقية بعامة هي اللبان (البخور من الصنف الجيد) . وكان اللبان الذي يحصل عليه من جنوب الجزيرة افضل انواع البخور قاطبة . يقول جو ـ كوا بان اللبان الذي يمكن الحصول عليه من مرباط والشحر وظفار ، والذي يجمع من المناطق الجبلية الداخلية ، هو اجود الاصناف . وكان هذا اللبان ينقل من موانيء حضرموت الى بالمبانغ (Palembang) في سومطرة حيث يحمل الى الصين . وشجرة اللبان هذه مثل شجر الصنوبر . اما اللبان فهو عصارتها (ص 195ـ197) .

وكان ثمن نوع ادنى من البخور هو المعروف بالمر الذي كان ينتج في جنوب الجزيرة ، لكن الصنف الموجود هناك لم يكن جيدا ، وانما الجيد منه كان يأتي من الصومال (ص 197) (23) .

---

(23) راجع : نقولا زيادة « تطور الطرق التجارية البحرية والتجارة بين البحر الاحمر والخليج العربي والمحيط الهندي » في مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية ، السنة الاولى ، العدد الرابع ، ص 69 ـ 94 وخاصة 83 .

(24) ياقوت ، معجم البلدان (لينبرغ ، 1868) 3ـ101ـ2 .

راجع ايضا 4 ـ 168 و 481 ـ 482 عن قلهات ومرباط واللبان .

وكان دم الاخوين يمكن الحصول عليه من سقطري راجع فوق) . ومن سقطرى كان يمكن الحصول على ال (aloes) (ص 231 و 225 .
كما كان جنوب الجزيرة العربية وبخاصة مناطق ظفار ينتج ال . Aloes

وهناك الزبد ، هو مسك يفرزه حيوان خاص يوجد في منشوريا وما اليها ، كما يوجد في جنوب الجزيرة وفي الحبشة (234) . ومنطقة قلهات في عمان كانت تنتج نوعا جيدا من الزبد (ص 235) .

وكان الذبل يكثر في سقطرى (ص 238) ، ولكن بلاد العرب نفسها لم تكن فيها السلاحف الكبيرة التي يمكن الحصول على الذبل منها .

واخيرا فهناك اللؤلؤ . وكان الجيد منه ، بالنسبة الى الجزيرة العربية ، الذي يناس عليه في جهات جزيرة اوال (البحرين) وهو افضل اللؤلؤ اطلاقا (ص 229) . ويصف جو ـ كوا الغوص على اللؤلؤ في الخليج العربي وصفا دقيقا مما يدل على ان التجار كانوا دقيقين في نقل المعلومات لتأكيد جودة اللؤلؤ الذي يحملونه (ص 229 ــ 230) .

7 ــ المتاجر : ما كان تجار الجزيرة يقومون بنقله

كان تجار الجزيرة العربية ينقلون الكثير من المتاجر والبضائع بين الشرق والغرب . وقد اورد جو ـ كوا من المعلومات ما يؤيد الدور التجاري الكبير الذي كان هؤلاء التجار يقومون به

فقد كانوا ينقلون من الصومال المر (ص 197) والعاج (ص 127 و 232) والعنبر (ص 237) . كما كانوا يحملون الذبل من الاماكن المذكورة انفا (ص 238) ، وكذلك قرن وحيد القرن (ص 233) .

ومع ان المر كان من منتوجات جنوب الجزيرة العربية (الى الشرق من خليج عدن) فان المر الذي كان يأتي من الصومال كان اجود . وكان الطلب عليه كثيرا في البلاد الشرقية ، لذلك كان ينقل من الصومال على ايدي التجار العرب من الحضارمة وغيرهم اما رأسا الى سيلان مثلا او الى موانيء الجزيرة اولا ثم يحمل منها الى الهند وغيرها .

والعاج كان يجمع من الصومال وزنجبار وهما المورد الرئيسي للعاج الجيد ، ويحمل الى مرباط ومنها الى الهند والصين (ص 127 و 232) هذا مع العلم بان العاج كان يمكن الحصول عليه من الملايو وجاوه وسومطرة .

اما العنبر فكان يجمع في بحر الزنج وبحر العرب (أو بحر عمان كما يسمى احيانا) . والعنبر يفرزه الحوت الذي يعيش في البحار الدافئة وهذه المادة المفرزة تتجمع على شواطيء افريقية الشرقية كالصومال وما اليها . وهناك كان يجمع ويحمل الى الموانيء العربية . ثم ينقل الى البحار

الشرقية . ومن رأس الحوت الذي كان القوم يصطادونه هناك ، كان يستخرج دهن يستعمل في طلي السفن الامر الذي كان يعرفه البحارة في اليمن وعدن وفارس . وكان العنبر يستعمل [illegible] من قبل . لكن استعماله الاساسي في ايام جو ـ كوا كان ، على ما يبدو ، في صنع العطور (25)

وكان قرن وحيد القرن مادة يمكن الحصول عليها من مناطق مختلفة في المشرق مثل تونكنغ وانام والملايو وجاوة والهند وزنجبار . ولكن اجود انواعه ما كان يأتي من الساحل الافريقي . وكان القرن الواحد منه يزن كتيات اي نحو ستة كيلوغرامات . (ص 233) . اما سن الفيل فكان واحده يزن نحو ستين كيلو غراما (26) .

والذبل ، وهو بيت السلاحف ، كان يأتي من الشاطىء الافريقي ، ولو ان جزيرة سقطرى وغيرها من الاماكن كانت تعده للبيع (ص 238) وعلى كل حتى الذي كان يجمع من الشاطىء الافريقي كان يحمل الى سقطرى لنقله الى الخارج .

وأورد جو ـ كوا اسماء بضائع اخرى كانت تمر بالموانىء العربية المذكورة آنفا وهي اللبان الجاوي الذي كان التجار يحملونه من بلاده الاصلية الى الهند وغيرها وموانىء الجزيرة العربية (ص 198 ـ 199) . كما ذكر الزبد (civet) الذي عرف في قلهات وغيرها من اقطار الجزيرة العربية الجنوبية (ص 234) . والستوراكس السائل كان يؤتى به من بغداد واسطرخوى (ص 201) ومثل ذلك يقال بالنسبة الى صمغ يجمع في فارس وما اليها ويسمى اسا فوتيدا وينقله تجار العرب الى المشرق (ص 224 ـ 225) .

والشاه بلوط وهو شجر تركي فارسي كان ينقل الى المشرق في سفن تخرج من موانىء الجزيرة (ص 215 ـ 216) .

وكان اجود انواع المرجان هو الذي يصطاد من البحر المتوسط ، وبخاصة عند السواحل [illegible] كان ثمة انواع تجمع في جهات اخرى مثل البحر [illegible] (ص 226 ـ 227) .

وكانت صناعة [illegible] المزخرف منه والبسيط ، منتشرة في اماكن مختلفة من المشرق العربي كمصر وبلاد الشام وبغداد . ويبدو ان جو ـ كوا قد عرف شيئا عن صناعة الزجاج هناك لذلك فانه يصفها ويقول ان الطريقة لا تختلف عن طريقة صنعها في الصين ولكنه يضيف الى ذلك

(25) Mirsky, p. 245
(26) Ibid., p. 239

قوله بأن صناعة الزجاج في الصين تعتمد على نترات البوتاس واوكسيد الرصاص والجبس ، اما في بلاد تا ـ شي فان الصناع يضيفون البوراكس ومن ثم فان ما يصنعونه هو اجود مما يصنع في الصين (ص 227) . ويرى مترجما الكتاب ان كلمة ليو ـ لي (liu - li) الصينية كانت تعني اصلا الزجاج (او البلور) الملون . وكان هذا الصنف من الزجاج مما يرغب الصينيون في الحصول عليه .

وفي القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي) كان الزجاج البغدادي ، ولعل المقصود ما كان ينقل عن طريق بغداد ، يعتبر اجود من غيره (ص 227 ـ 228) . وحري بالذكر ان المؤلف وسابقه تشو ـ كوا يشيدان بالزجاج الذي كان يصنع في بلاد الاسلام (ص228) . ومن المؤكد ان الزجاج والبلور في زمن جو ـ كوا كان ينقل بحرا على ايدي التجار العرب ، ولعل الموانيء العربية التي مر ذكرها كانت تعمل على تجميعه ونقله .

8 ـ خاتمة

هذه خلاصة لما جاء في كتاب جو ـ كوا عن الجزيرة العربية وموانئها ومدنها ومنتوجاتها والمتاجر التي كانت تنقل عبرها الى الصين . وقد يبدو من هذا ان المتاجر كانت قليلة ، ولكن الواقع هو انها كانت كثيرة في كميتها ثمينة في اسعارها ، بحيث ان الصين شعرت بأن الفضة والذهب والحرير والشاي والصيني الذي كان يدفع ثمنا لها كان كبيرا .

والذي اود ان اقوله بهذه المناسبة ان المؤلفات والنقوش الصينية القديمة (ومثلها ما وضع في الهند) التي يمكن ان يفاد منها في دراسة تاريخ الجزيرة العربية لا يستهان بها . والى ان يقوم بيننا من يدرس اللغة الصينية دراسة وافية لمتابعة النصوص في مظانها فلا بأس من ان نعتمد الترجمات الى اللغات الاجنبية . فتاريخنا طويل في الزمان متسع في المكان ، وحري بنا ان نفتش عنه حتى « ولو في الصين » .

الوثائق والمخطوطات العربية لتاريخ الجزيرة العربية في تونس

الدكتور رشاد محيي الدين الامام
- تونس -

المصادر الاصلية المتعلقة بتاريخ الجزيرة العربية في تونس نادرة ـ سواء بالنسبة للكتب المخطوطة أو الوثائق الرسمية المخطوطة أيضا ـ ، خاصة بالنسبة للعصر الحديث والمعاصر . ولعل من ابرز اسباب ندرة الوثائق الرسمية المخطوطة ثلاثة عوامل رئيسية :

1) حداثة تأسيس خزينة الوثائق بتونس .
2) هيمنة الدولة العثمانية .
3) انتصاب الاستعمار الفرنسي .

1) خزينة الوثائق التونسية على أهميتها هي حديثة العهد نسبيا ، فاذا علمنا أن خير الدين باشا (توفي سنة 1889) ، الوزير الاكبر لتونس منذ سنة 1873 الى سنة 1877 ، هو الذي أمر بحفظ وثائق الدولة التونسية في خزينة خاصة بها ، أمكننا أن نتصور أن وثائق العهود السابقة لذلك التاريخ كانت مهملة غير محفوظة .

2) واقع كون تونس والحجاز كانتا تمثلان ولايتين عربيتين تحت حكم الدولة العثمانية المركزي في اسطنبول جعلهما مرتبطتين رسميا بمركز الحكم في اسطنبول أساسا ، سواء في مراسلاتهما أو في تبادل الوفود والزيارات ، لذا كانت اتصالات هاتين الولايتين في شؤونهما مباشرة قليلة ونادرة . لذا يمكننا أن نقول ان وضع هيمنة الحكم العثماني المركزي على ولايتي الحجاز وتونس حد كثيرا من الاتصال المباشر وربط العلاقات الوطيدة بين مختلف الولايات العربية الشقيقة .

3) وقوع تونس تحت نفوذ الاستعمار الفرنسي منذ سنة 1881 أسدل الستار بصفة تكاد تكون نهائية عن كل أنواع النشاطات والعلاقات بين البلدين الشقيقين مدة ثلاثة أرباع القرن من تاريخنا المعاصر . هذا بالاضافة الى ما فقد من ملفات ووثائق عديدة في عهد الاستعمار الفرنسي حيث أتلفوا منها ما أتلفوا واستولوا على العديد منها واخذوا معهم الى فرنسا كميات كبيرة منها .

ولهذه العوامل وغيرها نجد الوثائق الرسمية والشبه الرسمية المتعلقة بتاريخ أوضاع الجزيرة العربية عامة قليلة ونادرة . وهذا القليل النادر تغلب عليه الصبغة الدينية البحتة في مظاهر واعتبارات مختلفة . والوثائق المتعلقة بموضوعنا في هذه الخزينة مرتبة على أسس لا تنسيق ولا اطراد فيها ، نجد بعضها مرتبا حسب موضوعاتها ، وبعضها على أساس عهود بعض حكام تونس من البايات . والبعض الاخر تحت أسماء رجالات أو قضايا معينة ، غير أنني وجدت العديد من المعلومات الاولية الاصلية الهامة . وجميعها مخطوط باليد وأصلي سواء ماكان منها باللغة العربية أو غيرها . وهي وثائق هامة لانها حفظت لنا معلومات لا توجد في مكان آخر ، وذلك يصدق بصفة خاصة على الملفات التي تضم المراسلات والبيانات والاوامر العلية المتعلقة بمواضيع عديدة اهمها الترتيبات المتعلقة بموسم الحج وتنظيمات تخص الحجاج . ومن أهم هذه الوثائق ما يتعلق بشرح مداخيل اوقاف الحرمين الشريفين مع اثباتات مفصلة ودقيقة لاوجه تلك الحسابات ، وتجدر الاشارة الى أن أغلب الوثائق التي استقيتها من تلك الخزينة اصلية ، وبعيدة عن التأويلات والتخمينات والمفاهيم الاجتهادية التي تجدها في مراسلات أخرى ذات صبغة سياسية .

وبنظرة عامة الى تلك الوثائق المختلفة ، يمكننا أن نحصرها مبدئيا في المواضيع التالية :

1) كل ما يتعلق بأوقاف الحرمين الشريفين بكامل البلاد التونسية مع ذكر مداخيلها ومصاريفها والمقادير المالية المتبقية والمراسلة الى مكة والمدينة سنة بسنة . وهي وثائق كثيرة متراكمة في ملفات عديدة يرجع تاريخ بعضها الى القرن السابع عشر وهي معلومات هامة جدا وأساسية لتتبع تطوركم وحجم أوقاف الحرمين الشريفين في تونس من ناحية ثانية ، وتكون دراسة مثل هذه الملفات عنصرا علميا متينا لبحث تطورات الاوضاع الاقتصادية والمعيشية بالبلاد التونسية في تلك الفترات التاريخية الطويلة التي تضم عدة قرون .

2) أسماء أعضاء الوفود الرسمية المكلفة من الحكومة التونسية بتسليم (الصرة) التي تحتوي على مداخيل أوقاف الحرمين الشريفين بتونس ، واحيانا تصاحب الصرة الاصلية صرة أخرى بها هدية باي تونس الى حاكم مكة لزيادة توطيد علاقات الود بينهما . وأحيانا تجد في هذه الملفات أسماء كافة الحجيج التونسيين لسنة معينة . وهي أيضا معلومات هامة اذا استغلت علميا لابحاث تاريخية اقتصادية واجتماعية من خلال دراسة المسؤولين عن تلك الوفود وهوياتهم وطبقاتهم الاجتماعية

والعلمية والسياسية . وحجم تلك الوفود ونوعيتها ... وحجم الصرة كل سنة وكذلك الهدايا مع المقارنة والتحليل ، لاشك أنها تفضي الى كشف حقائق تاريخية وطيدة تتعلق بتاريخ كل من المملكة العربية السعودية وتونس في فترات تعز فيها حتى المعلومات التاريخية العامة .

3) معلومات دقيقة عن طرق سفر الحجاج برا ، وبحرا من تونس ذهابا وايابا مع ذكر أهم المدن والموانيء التي يمرون بها ومدة بقائهم في كل منها مع ذكر ما يتبع ذلك وينجر عنه من تكاليف ومصاريف تعتبرها هذه الوثائق كحد أدنى لكل حاج . هذا بالاضافة الى الاجراءات والمصاريف المترتبة على استخراج جوازات السفر . وقد كانت شركات النقل الفرنسية هي التي تأخذ امتياز نقل الحجاج التونسية بحرا الى الاراضي المقدسة ، بتناسق مع وكالات السفر اليهودية في تونس ، ونظرا للسفن الصغيرة والعتيقة التي كانت تستعملها هذه الشركات كانت السفرات في مختلف اجزائها صعبة جدا وشاقة . وكذلك كانت تكاليفها مشطة بسبب سرقات شركات النقل والعاملين بها . هذا بالاضافة الى عدم توفر الشروط الصحية والوقاية والعلاج . ويذكر احد التقارير أنه ليس هناك شركة نقل واحدة استطاعت أن تحافظ على التزاماتها المختلفة مع الحجاج والحكومات غير الشركة المصرية الخديوية للنقل ، ثم يشرح التقرير أسباب ذلك . ويتقدم مشاريع للحكومة الفرنسية لاعطاء امتياز نقل حجاج تونس الى شركة معينة واحدة فرنسية دائما لتنظم عملها ، وتقوم بكل واجباتها من جميع الوجوه باتقان وكفاءة .

4) من الوثائق التي تهم موضوع دراستنا هذه مجموعة هامة تتعلق ملفاتها بـ «قطار سكة الحديد الى مكة» خاصة سنة 1902 ، وهي في معظمها مراسلات بين وزارة الخارجية الفرنسية والمقيم الفرنسي العام بتونس ، في هذه المراسلات وثائق عديدة تسلمها وزير خارجية فرنسا من قنصل فرنسا العام لجدة تتعلق بقرار ملك الحجاز لاصلاح على حسابه الخاص سكة الحديد بين المدينة ودمشق ، ومن هذه الوثائق ترجمات لاخبار ومقالات صدرت بجريدة «القبلة» يوم 3 جانفي 1913 تقتضي ان تلك السكة ستكون جاهزة تماما في موسم الحج القادم . ووزير خارجية فرنسا يكشف في احد تقاريره عن خوفه الشديد من أن اصلاح تلك السكة سيشجع المسلمين في كل من تونس والجزائر على القيام بمناسك الحج وهو ما لا يتماشى مع المصالح الاستعمارية الفرنسية . وبهذه الملفات وثائق من قنصل فرنسا ببيروت تشرح نشاط النقل البحري بين جدة وبيروت فيما يتعلق بنقل حجاج شمال افريقيا الى الحج وارجاعهم . مع ملاحظة ان

الاخوان الجزائريين منعوا نهائيا من القيام بمناسك حجهم وحجر عليهم ترك البلاد الجزائرية في مواسم الحج .

وتذكر هذه الوثائق ان اصلاح سكة الحديد سيمكن الحجاج بعد نزولهم من السفن في جدة لا يرجعون الى سفنهم الا في بيروت فينتقل الحجاج من جدة الى مكة ثم الى المدينة على طريق البر . ومن المدينة على سكة حديد الحجاز الى دمشق ومنها على سكة حديد دمشق بيروت ومنها الى سفنهم المنتظرة لهم وبذلك تقل التكاليف والمصاريف جدا بالنسبة للحجاج ولشركات النقل معا . ومن الوثائق ما يشرح بالتفصيل تكاليف السفر ومدته على مختلف الطرق المستعملة لنقل الحجاج عندئذ وهي وثائق تشتمل على معلومات فريدة وهامة جدا . ومنها مايشير الى التبرعات التي قدمت للمساهمة في اصلاح السكة الحديدية الحجازية . ومن هؤلاء سلطان المغرب الاقصى (750000 فرنك فرنسي على طريق السلطان عبد الحميد في أفريل 1858) ، وبعض اعيان اسطنبول . اما بالنسبة لباي تونس فقد وقعت مراسلات بينه وبين أمير مكة تتعلق بمساهمة تونس في اصلاح السكة الحديدية وهي وثائق عديدة وهامة وبها معلومات انفردت هذه الملفات بذكرها .

5) كما توجد في خزينة الوثائق عدة ملفات بها وثائق تتعلق خاصة بالاجراءات الصحية التي يجب ان يقوم بها كل مسافر الى الاراضي المقدسة ، اعتبارا بالتعليمات التي بعثت بها السلطة بمكة الى تونس .

6) كذلك من الملفات المتعلقة بالحج والحجيج وثائق عديدة تتعلق بأمرين هامين : الاول ينص على التنظيمات والترتيبات الجديدة التي ادخلت على عمل المطوفين بتاريخ سنة 1921 ، الامر الثاني : يتعلق بتوضيح الدعاة السعوديين في شمال افريقيا سنة 1930 .

7) المؤتمر الاسلامي في مكة سنة 1937 . ومن اهم وثائق هذا الموضوع مراسلة دبلوماسية في شكل تقرير من سفير فرنسا في الشام ولبنان الى وزير الخارجية الفرنسية بتاريخ 26 مارس 1937 ، يعلمه فيه بان المؤتمر الاسلامي الذي انعقد في مكة انهى أعماله بدون الوصول الى حلول للمشاكل والقضايا المعروضة عليه . وحتى اعضاء الوفود المشاركة في المؤتمر رجعوا الى بلادهم ومدنهم بدون اتفاق وشبه اعداء ويذكر التقرير ان طلعت بك مصري الجنسية استقر في مكة ويعمل مع بنك مصر، والهدف من هذا النشاط تدويل الاراضي المقدسة بالجزيرة العربية على الاقل بين البلاد العربية والاسلامية وتحت ادارتهم ، ويقول صاحب التقرير في الآخر ولكنه لا يعتقد ان شيئا من هذه المخططات سينجح لان حكم الملك

ابن سعود أقوى بكثير من كل هذه المؤامرات الخافتة .

8) دفاتر وملفات تشتمل على وثائق وكشوف لاسماء التونسيين الذين استوطنوا الاراضي المقدسة بالعربية السعودية ، وهؤلاء قسمان : قسم سافر افراده من تونس بقصد المجاورة والاقامة بصفة دائمة ونهائية والقسم الثاني سافر افراده بقصد القيام بفريضة الحج لاغير وقرروا البقاء بالحجاز لسبب من اسباب عديدة .

ولاتخفى أهمية مثل هذه الوثائق في علم الانساب وأصل العائلات التونسية في المملكة العربية السعودية . وكذلك يمكن ان تكون مواد علمية لدراسات اجتماعية وسياسية واقتصادية ودينية لبحث اسباب واوضاع هؤلاء المجاورين والمهاجرين من ناحية ونتائج هجرتهم على المدى القريب والبعيد من ناحية ثانية .

كذلك في هذه المجموعة من الوثائق نجد بعض الوثائق تتعلق بالمجاورين والمقيمين والمهاجرين من الجزائر الى الحجاز . وكذلك بعض المهاجرين منهم الى تونس حيث استقروا فيها بصفة نهائية .

هذه من ناحية الوثائق الرسمية بارشيف الدولة التونسية ـ أما المخطوطات الموجودة خاصة في المكتبة الوطنية ، فهي محدودة العدد ولكن بعضها هام لاصالته من ناحية ولتركيزه على مواضيع قلما تناولها المؤرخون والكتاب من ناحية اخرى . ومن هذه المخطوطات نذكر مايلي : مرتبة على حسب سنوات وفاة مؤلفيها .

عبد الملك بن قاسم بن الكردبوس التوزري (كان حيا سنة 575 ـ 1179 الاكتفاء في أخبار الخلفاء (155 ورقة حجم 21 ـ 30 مسطرة 29 خط مغربي جميل ، توجد منه عدة نسخ بالمكتبة . اوله «الحمد لله الواحد القهار العزيز الجبار ذي المن والانعام ، وبعد فان هذا كتاب أثبت فيه ذكر النبي صلى الله عليه وسلم ،، وأمر الامة الاسلامية من الخلفاء الامويين والعباسيين جيلا بعد جيل وقرنا بعد قرن ،، وأصل بذكر بني أمية بعض اخبار الاندلس وولاتها ،، واخره » المأمون هو محمد بن عبد الله المقتفي ،، أمه جارية يمنية اسمها علم» .

ـ القاضي تقي الدين محمد بن احمد الحسيني الفاسي ، نزيل مكة المكرمة (833 ـ 1428) ، تحفة الكرام بأخبار البلد الحرام ، من محتوياته الموضوعات التالية : في اسماء مكة ، وذكر حرم مكة ، الاحاديث الدالة على حرمة مكة وحرمها . في فضل مكة : في المجاورة ،،، في بيان مصلى الذبي ، في ثواب دخول الكعبة وأدابها ،، في فضايل الحجر الاسود . في

الايات المتعلقة بالكعبة ثم ذكر مقامات الانبياء والرسل بالمكتبة عدة نسخ من هذا المخطوط .

ـ مخطوط بن علي بن محمد الشيبي المكي (ت 837 ـ 1433) ، الشرف الاعلى في ذكر قبور مقبرة المعلي (بمكة) . (ورقات 57 من مجموع به 425 ورقة ، مقاس 12 ـ 16 ، مسطرة 15 ، خط مشرقي) . وأوله «الحمد لله الباقي بعد فناء جميع خلقه ،،، وبعد فقد خطر لي ان أكتب في هذه الاوراق بعض ما قرأته على القبور التي بمقبرة مكة المسماة بالمعلا ، وما قدرت عليه ، فان في ذلك تخليد ذكرهم واسمائهم وحفظ وفاتهم ،، «اخر المخطوط» ومنها حجر عليه بعد البسملة ،،، هذا قبر العبد الفقير الى الله تعالى رحمه الله السعيد الشهيد محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد المعروف بالمعدم توفي يوم الخميس 11 ذي الحجة سنة 583» .

أبو عبد الله محمد الفاكهي :

تاريخ مكة شرفها الله (1) (350 ورقة انتهى مؤلفه منه في 7 ربيع الاول 985ـ1577) فيه ذكر مفصل لكل ماقام به السلاطين العثمانيون من انجازات في مكة و «جمع بين لطائف تاريخية واحكام شرعية ومواعظ نافعة وقواعد بارعة وسميته باعلام مكة الله الحرام وخدمت به خزاين كتب هذا السلطان الاعظم» (2) به مقدمة وعشرة ابواب وخاتمة ، والابواب الى فصول حسب الاحتياج اليها ، الباب الاول في ذكر وضع مكة المشرفة. وحكم بيع دورها واجارتها وحكم المجاور بها ـ الثاني في بناء الكعبة المعظمة ،، الثالث في وضع المسجد الحرام في الجاهلية وصدر الاسلام ، الرابع في ذكر مازاد العباسيون في المسجد الحرام الخامس في ذكر الزيادتين اللتين زيدتا في المسجد الحرام بعد تربيعه الذي أمر به المهدي . السادس في ذكر ماعمرته ملوك الجراكسة في المسجد الحرام السابع في ظهور ملوك آل عثمان ، الثامن في دولة السلطان الاعظم سليمان خان ، التاسع في دولة السلطان سليم خان الثاني ـ العاشر في سلطنة السلطان مراد خان .

الخاتمة في ذكر المواضيع المباركة والاماكن المأثورة بمكة المشرفة :

ـ محمد بن أحمد النهرواني المكي (990 ـ 1582) ، الاعلام باعلام بيت الله الحرام (304 ورقات مقاس 15 ـ 19) مسطرة 17 ، منه عدة نسخ في المكتبة الوطنية خط المخطوط مشرقي) في المقدمة ،،، وتشوقت الى فن التاريخ وعلم

---

1) في بعض المخطوطات ورد العنوان : الاكتفاء في سيرة الخلفاء .

2) يقصد السلطان مراد العثماني والكتاب مهدى له .

الاخبار ولاشتماله على حوادث الزمان . وما ابقاه الدهر من أخبار ووقائع الدوران» .

ـ محمد كبريت بن عبد الله المدني (1070ـ1659) ، الجواهر الثمينة في محاسن المدينة (166 ورقة مقاس 15ـ20) ، مسطرة 21 ، خطه مشرقي بالكتبة عدة نسخ منه ، أوله «الحمد لله الذي حبب الينا المدينة ، وجعلها من أفضل البقاع الامينة ،، أما بعد فلما كانت المدينة مسقط رأسي ورياضها الوريقة منبت غرسي ،، خطر ببالي ولاح في خيالي ان أذكر محاسنها وأتعرض لذكر بعض أماكنها ،، ويبدأ المؤلف في تركيزه على ذكر محاسن المدينة بما أحدثه فيها السلطان العثماني محمد خان ابن السلطان مراد خان ثم يفصل القول في ذكر محاسن المدينة وتاريخها بالتفصيل . وخاصة ما انجزه السلاطين العثمانيون فيها . ومما ورد في الكتاب ـ ماتميزت به المدينة الشريفة عما سواها ،، في ذكر المدينة في عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم والصحابة والخلفاء الراشدين ،، والاحاديث النبوية الواردة في كل ما يتعلق بالمدينة ، وأبواب في ذكر المصلى والنقا ولعتيق والسلع والمساجد باب في ذكر العالية . ثم ذكر فضائل المدينة . الشهداء بها ، مع ذكر لطائف واشعار كثيرة مع قصص ونكت .

ـ ابراهيم بن محمد بن عيسى الميموني المصري (3) (1079ـ1668) تهنئة أهل الاسلام بتجديد بيت الله الحرام (206 ورقات ، مقياس 16ـ27، مسطرة 25 خط مشرقي جميل ـ الصفحة الاولى مزركشة جدا ومذهبة ـ ، به نقص في الديباجة ومنها «فمن ذلك انه في شهر شعبان المعظم المنتظم في سلك سنة 1039 ، قد عمد السيد الى عقود البيت الحرام فنسخها والى محكم أيات بذاته فنسخها ،، وهو مهدى الى السلطان مراد العثماني أيضا . ورتبه مؤلفه على ثلاثة مباحث : البحث الاول في الجواب ، عن اسئلة مبتكرة ،، المبحث الثالث في فضل الحجر الاسود وكلها في قالب أسئلة مبتكرة ،، المبحث الثالث في فضل الحجر الاسود (وكلها في قالب يذكر فضل المدينة المنورة ايضا وكذلك فضل مدينة جدة ، انتهى من تأليفه سنة 1046 هـ 1636 .

ـ نسخ احمد بن عبد الكريم (4) (مصر رواق المغاربة بالجامع

---

3) وفي مخطوط ثان ورد اسم الناسخ منصور بن ستيم ابن حسن الدمناوي الازهري .

4) في بعض النسخ الاخرى من المخطوط ورد اسم الناسخ احمد بن عبد الكبير المراكشي .

الازهر 1120 هـ 1708) ، رسالة في التاريخ (61 ورقة ، مقاس 17ـ26 ، مسطرة 33 ، خط مغربي جميل جدا) ، يبحث هذا المخطوط المواضيع التالية : ذكر مابين هبوط أدم عليه السلام الى مبعث محمد (ص) ، ثم ذكر تاريخ ملوك كندة وملوك الحجاز وملوك السريان والصابيون وأمة القبط وأمة الفرس واليونان واليهود وأمة النصارى ثم يركز على ذكر التاريخ الاسلامي من عهد الرسول بكل التفاصيل يوما بيوم وشهرا بشهر وسنة بسنة اعتمادا على السنوات الهجرية وكذلك تاريخ الامويين والعباسيين ، وانتهى بتاريخه الى سنة 797 هـ 1394 ، وارخ كذلك الى بعض سلاطين آل عثمان وانجازاتهم في الاراضي المقدسة .

ـ محمد السنوسي الحفيد التونسي (1318ـ1900) ، الرحلة الحجازية (مخطوط له نسخة واحدة بتونس توجد بالمكتبة الوطنية 479 ورقة ، في أجزاء) قام محمد السنوسي بهذه الرحلة بتاريخ 1882 م عن طريق ايطاليا واسطنبول ذهابا وعن طريق دمشق وبيروت وبورسعيد ومالطا ايابا . ولما رجع الى تونس بدأ في تحرير هذه الرحلة الهامة جدا . ولكن ادارة السلط الفرنسية بتونس صادرت مكاسب ذلك العالم الوطني الغيور والمصلح المشهور ، وكان من جملة ما وقع حجزه وامتلاكه ماحرره من كتاب الرحلة الحجازية ، ثم يركز نهائيا على تأليفه الا بداية من سنة 1885 ، هذه الرحلة قسمت الى ثلاثة اقسام كل قسم في جزء ، في الجزء الاول يذكر مشاهداته عند الذهاب خاصة في ايطاليا ، الجزء الثاني يتحدث فيه عن كل ماشاهده بعد ذلك الى ان رجع الى تونس ، الجزء الثالث خصصه المؤلف للتراجم وللتعريف بأهم الرجالات والاعيان الذين قابلهم وتعرف عليهم في كامل الرحلة خاصة في الحجاز ، واهتم اكثر شيء برجال العلم والمعرفة ، وبحث فيها مواقف رجال العلم المسلمين من الاختراعات الغربية مع وصف دقيق لتلك الاختراعات . وله قصيدة فيها ويذكر في رحلته عادات البلدان التي زارها وعلومهم واوضاعهم الدنية والعسكرية بالتفصيل وكذلك المؤسسات والادارات ، وبحث موقف الاسلام من الحضارة الاوربية واختراعاتها ومشاكل دينية اخرى كثيرة ، خاصة منها التي تعترض المسافر المسلم للبلاد غير الاسلامية .

كذلك يصف ويحلل المؤسسات العلمية والتعليمية ، ثم يصف مكة والمدينة وصفا مدققا بديعا ، ويذكر العلماء فيهما والحكام والمؤسسات العلمية ، وكان شاعرا فسجل كثيرا من الاحداث التي شاهدها شعرا جميلا رائعا . وهذه الرحلة تعتبر من أهم رحلات التونسيين الى الحجاز لانها كتبت بقلم احد علماء تونس في نهاية القرن التاسع عشر الميلادي ، في

وقت احتلال فرنسا لتونس سنة 1881 . وكذلك كان محمد السنوسي من كبار المؤرخين والمصلحين الوطنيين . وله في هذه الرحلة مقارنات وتحليلات وبحوث تجعلها من أهم ما انتجه رجال الفكر في تونس في القرون الحديثة، وهي رحلة تستحق كل العناية العلمية لاخراجها من ظلمات المكتبة الى النور

وقبل ان انهي هذا البحث اريد ان أتقدم ببعض الاقتراحات للمسؤولين عن هذا المؤتمر الحافل بانجازاته العلمية . هذه الاقتراحات ترمي الـــى اعانة الباحثين على تحرير كثير من المخطوطات والوثائق الهامة مـــن خزائنها القديمة واخراجها مشروحة في كتب منشورة تكون في متنــاول الراغبين في الاطلاع والدراسة . وعلى الرغم من ان جامعة الدول العربية كانت انشأت منذ سنة 1946 م ، معهدا خاصا بالمخطوطات فاني الـــح على اعتبار النقاط التالية :

ــ جمع فهارس المخطوطات العربية الموجودة في دور الكتب العامــة والخاصة وفهارس المخطوطات التي يمتلكها الافراد لتوحيدها فيفهرس عام

ــ تصوير اكبر عدد ممكن من المخطوطات العربية القيمة .

ــ وضع هذه المصورات تحت تصرف العلماء اولا بعرضها لمن يطلبها للاطلاع والاستفادة منها .

ــ طبع صور المخطوطات القيمة ونشـر نصــوص المخطوطات ذات الاهمية .

ــ تنظيم التعاون بين العلماء والمؤسسات العلمية في سبيل نشــر المخطوطات وتزويد الناشرين بالمعلومــات اللازمة عــن المخطوطات التــي يعنون بها .

ظاهرة التراكب بين تاريخ المشرق والمغرب العربيين

الأستاذ محمد زنيبر - المغرب -

الاستاذ محمد زنـيبر ـ المغرب

تحديـد المشكـلـة :

اعتاد المربون والاساتذة ، كلما تعرضوا لتاريخ العالم العربي ، ان يتناولوا تاريخ كل قطر او كل دولة على حدة ، بحيث نجد هنالك تاريخ العراق وتاريخ الشام وتاريخ مصر وتاريخ المغرب وتاريخ الاندلس او نجد دراسة عن العباسيين او الفاطميين او المرابطين او الادارسة الخ

ويحق لنا ان نتساءل اليوم ، بعد البحوث والدراسات الكثيرة التي نشرت في الموضوع ، هل تستطيع هذه النظرة التجزيئية ان ترضى كل الرضى مقتضيات المنهاج العلمي الصحيح ؟ اليس في هاته التجزئة نوع من التحكم الذاتي في الواقع ؟ وهل من الضروري ان تكون الحدود الجغرافية للاقطار المعنية هي ، في نفس الوقت ، فواصل فعلية في تاريخها ؟ (1) .

وقد يكون لهذه النظرة التجزيئية فائدة علمية فتساعد اساتذة التاريخ في المدارس والكليات على حصر موضوعاتهم وترتيبها ، كما تساعد الباحث على تركيز نظره في حيز جغرافي محدود او في فترة قصيرة من الزمن . ولكن ، اذا انتقلنا الى الواقع التاريخي ذاته ، نجده يرفض مثل هذه التجزئة فهي بمثابة انتزاع قطعة لحم من جسم حي بدمها وعروقها واعضائها فلايمكن معرفتها على حقيقتها دون ربطها ببقية الجسم ومشاهدة عوامل الحياة فيها وهي مندمجة في المجموع .

---

1) عن الطريقة التي درس بها تاريخ الاسلام والعرب ، توجد مراجع كثيرة نكتفي هنا بذكر البعض منها :

J. Sauvaget : Introduction à l'histoire du monde Musulman (édition complétée par C. Cahen) Adrien Maisouneuve Paris 1961.

– ع ، الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب .

– جرجي زيدان : تاريخ آداب اللغة العربية . دار الهلال 1957 .

ولا ادل على ذلك من الارتباك الذي يقع فيه اصحاب النظرة التجزيئية في دراساتهم كلما انتقلوا من وصف الاحداث المجردة الى تعليلها . فظاهرة الازدهار العلمي ، مثلا ، ليست خاصة بقطر عربي واحد بل هي معممة ، ولذلك فلايمكن الاقتصار في تفسيرها على الاسباب المحلية . وقل مثل ذلك في ظاهرة الانحطاط وغيرها من الظواهر التاريخية الجوهرية التي انطبعت بها حياة العالم العربي في الماضي (2) .

وهذا لايعني مطلقا ان التاريخ المحلي مستحيل او عديم القيمة ، وانما يعني فقط ان التاريخ المحلي كثيرا مايطرح على الباحث مشاكل تتجاوز ابعاده المحدودة ولايمكن فهمه بدون الانتقال من الجزء الى الكل وهذا مايظهر لنا بكامل الجلاء عندما نقوم ببعض المقارنات التاريخية داخل مانسميه اليوم ، العالم العربي . وقد اعتاد المؤرخون ان يقسموا هذا العالم الى مشرق ومغرب ، حسب المقاييس الجغرافية . ويمكننا ، لوشئنا ، ان نغلو في التقسيم حسب نفس المقاييس او حسب مقاييس اخرى ، ولكن لنحتفظ بهذا التقسيم التقليدي لفائدته العملية ولكونه سيبرز بصورة انصع ، الفكرة التي اريد توضيحها الان (3) .

فالمشرق والمغرب طرفان يمثلان اكثر ما يمكن من التباعد الجغرافي داخل العالم العربي . والانتقال من هذا الطرف الى الطرف الاخر يمثل رحلة طويلة وشاقة ، وبخاصة في العصور الغابرة . فهو تحول من قارة الى قارة اخرى . ومع ذلك ، فما نشاهد تاريخان يسيران سيرا متوازيا مثل تاريخ المشرق وتاريخ المغرب اذا نظرنا اليهما بنظرة المقارنة .

هذا السير المتوازي بين تاريخ المغرب والمشرق العربيين هو ، في اعتقادي ، ظاهرة اساسية لم تنل كل ما تستحق من العناية من لدن الباحثين . وتفسيرها مع تحليلها بالطرق العلمية هو الذي يمكننا من معرفة العوامل التي ربطت تاريخيا ما بين المشرق والمغرب منذ ظهور الاسلام ومن استكناه اسس الوحدة العربية التي نعيشها اليوم بفكرنا ووجداننا ان

---

2) المشكلة تطرح بحدة عند تناول الجوانب الحضارية بالخصوص ، لان المد الحضاري لايقف عند الحدود السياسية .

3) تقسيم العالم العربي الى مشرق ومغرب وارد ايضا عند المؤرخين والجغرافيين القدامى أمثال المقدسي ، وابي عبيد البكري ، وابن سعيد المغربي ، فهم يميزون بين الجهتين ويحرصون على دراسة كل جهة ، على حدة

لم نكن نعيشها في واقعنا (4) .

وان تحليل هذا التواكب بين التاريخين في كل مظاهره وبكامل شواهده امر طويل لا يتسع له المقام هنا . وكل ما في وسعي هو ان اجتزيء ببعض الجوانب التاريخية الاساسية التي تساعدنا على تكوين فكرة اولية عن الموضوع .

وأول ما يطالعنا في هذا الباب هو التواكب الواضح في الاطوار التاريخية . ولئن كان المؤرخون غير متفقين على تحديد هاته الادوار في تفاصيلها ، فيمكن ان نعتبر انهم وصلوا الى نوع من الاجماع في التمييز بين ثلاثة اطوار رئيسية بالنسبة لتاريخ الشرق . فهنالك عصر نهوض حضاري يمتد من بداية الاسلام الى اواسط القرن السابع الهجري عند سقوط بغداد في ايدي المغول . وهناك عصر انحطاط يمتد من هذا التاريخ الآخر ليدوم ستة قرون تقريبا اي الى بداية القرن التاسع عشر . والطور الثالث هو الذي اعتدنا ان نسميه عصر الانبعاث وهو الذي ينطلق من القرن التاسع عشر ومازلنا نعيش فيه الى اليوم . ومهما اثير من اعتراض على هذا التوزيع الزمني ، فقد ظل هو المعمول به الى اليوم لانه يستوعب كثيرا من الحقائق التاريخية ويصور لنا التطور في منعرجاته البارزة .

فاذا انتقلنا الى بلاد المغرب ، نجد ان نفس التصنيف ينطبق عليها . فقد عرفت هي ايضا ، حركة نحو النهوض والازدهار الى اواخر القرن السابع الهجري ، ثم دخلت منذ ذلك الحين في طور التدهور والانحطاط الى اواسط القرن التاسع عشر حيث بدأت تستيقظ ودخلت في طور الانبعاث . ولئن كانت هنالك بعض الاختلافات او الاستثناءات ،

---

4) نضيف الى ذلك ان التاريخ المقارن بين البلاد والمناطق العربية هو الذي يساعدنا حتما على ابراز الاسس التاريخية لما نسميه اليوم ، الوحدة العربية او «العروبة» .

فهي لا تمس بالهيكل العضوي الجوهري ، وانما تظل في مستوى الجزئيات والحالات المفردة (5) .

التواكب في عصر النهوض

ولكن هذا التواكب في التوقيت التاريخي لا يأخذ معناه الكامل الا اذا عرفنا محتويات كل طور ومميزاته . فما سميناه بطور النهوض يعني اشياء كثيرة اهمها اثنان :

ـ تماسك الكيان العربي الاسلامي ، سواء في وضعية الوحـــدة او التجزئة .

ـ استمرار النشاط الحضاري باوجهه المختلفة ، مهما كانت التطورات السياسية .

فاذا حللنا النقطة الاولى بشيء من التفصيل ، نجد ان تماســـك الكيان يعني هنا قوة الامة العربية الاسلامية وقدرتها على الدفاع عـــن نفسها وعلى تبوأ مرتبة اولى بين امم العالم . وقد استطاعت مجموعـــة الدول العربية الاسلامية خلال هذا الطور الاول ان تفرض بالفعل احترامها على دول اروبا المسيحية سواء في الشرق او في الغرب . ففي الوقت الذي كان فيه العباسيون يعبئون الطوائف تجاه بيزنطة ، كان المروانيـــون بالاندلس يقومون بنشاط مماثل تجاه القوات المسيحية المتربصة فـــي شمالي اسبانيا ، والاغالبة بدورهم يغزون صقلية وجنوبي ايطاليا .

وكانت البحرية الاسلامية سواء في البحر الهندي او البحر المتوسط تمارس نشاطا متزايدا وسيطرة تكاد تكون تامة حتى ان ابن خلـــدون استبعد ان يكون للامم المسيحية مجال في الملاحة بالمتوسط (6) . وفـــي نفس القرن العاشر الميلادي كان الغزنويون يتوغلون داخل الهند بقصـد

---

5) تحديد ادوار التاريخ العربي يطرح مشكلة دقيقة مازالت في طور النقاش ، اذ ليس هنالك اتفاق بين المؤلفين على توقيت العصور وتحديد محتواها وصفاتها وهذا مايظهر ، مثلا ، من المناقشات التي دارت بيـــن المستشرقين في ندوة «بوردو» .

Classicisme et déclin culturel dans l'histoire de l'Islam. Actes du Symposium international d'histoire de la civilisation musulmane : Bordeaux 25-29 Juin 1956.

ومن المفيد ، ايضا ، النظر الى الطريقة التي يحاول بها المستشرق «اندري ميكيل» تحديد أطوار الحضارة الاسلاميـــة في كتابه «الاسلام وحضارته» .

A. Miquel. L'Islam et sa civilisation Armand Colin.

6) ابن خلدون : المقدمة : قيادة الاساطيل ص 447ـ454 .

ربط ذلك القطر الكبير بدار الاسلام ونشر الدين الحنيف بربوعه ، وكان صنهاجة الملثمون بالغرب ينطلقون من الصحراء نحو افريقيا السوداء تحدوهم نفس الاهداف . وبالجملة ، فاذا نظرنا الى الاسلام كدين وقوة سياسية معا ، فاننا نجد له نفس الوجه ونفس الملامح في الشرق كما في الغرب . ففي اتجاه الشمال ، حاول ان يتوغل داخل بلاد الصقالية او السلاف عبر بلاد الخزر ، من جهة الشرق ، كما حاول ان يتوغل داخل بلاد الفرنج عبر جبال البيريني من جهة الغرب . وفي كلتا المحاولتين لم يستطع ان يسير بعيدا . اما في اتجاه الجنوب ، فقد استطاع ، في الشرق ، ان يدخل الى عالم الهند وينتشر في اقاليمه ، وفي الغرب ان ينفذ بعيدا داخل بلاد الزنوج ، وامكنه ان يحقق مكاسب ويغير مجرى التاريخ في الهند وافريقيا . مما يدفع بالباحث الى التساؤل هل لانتشار الاسلام ارتباط بالمناخ والجغرافية ـ ، سؤال نطرحه ، ولكن لانعالجه لانه يخرج عن موضوعنا .

بل اننا نجد هذا التواكب يظهر حتى في تاريخ الانتصارات والهزائم التي عاشها العالم الاسلامي . ولننظر قليلا الى بعض الاحداث الحربية في القرن الحادي عشر الميلادي . فنجد من جهة ، استيلاء ملك قشتالة الفونسو السادس على طليطلة بالاندلس سنة 1085 ، واستيلاء الصليبيين على القدس سنة 1099 لكننا نجد من جهة اخرى السلاجقة ينتصرون انتصارا كبيرا على البيزنطيين في «ملازجرد» سنة 1071 م ، في حين يلحق المرابطون هزيمة منكرة بالفونسو السادس في معركة الزلاقة الشهيرة سنة 1086 م . فاذا انتقلنا الى ما بعد ذلك بقرن من الزمان ، نجد صلاح الدين الايوبي ينتصر في معركة حطين ويسترد القدس سنة 1187 م ، بينما يكبد يعقوب المنصور الموحدي نصارى الاندلس هزيمة كبرى في معركة الارك سنة 1187 م .

واذا كانت نهاية العباسيين في الشرق سنة 656 ـ 1258 نذيرا بالدخول في عهد التدهور والانحطاط ، فان نهاية الموحدين في سنة 1269/668 تعني نفس الشيء بالنسبة للغرب الاسلامي ، جملة وتفصيلا ، برغم بعض المنجزات الحضارية التي تحققت ، مثلا على يد المرينيين او الحفصيين فيما بعد . فكل القرائن والاحداث تشير الى تقلص العالم الاسلامي كقوة سياسية وانطوائه على نفسه تجاه التطورات التي بدأت تعرفها اروبا الغربية قبيل عصر النهضة .

هنالك ، اذن ، تواكب في اهم الاحداث التاريخية التي تمس بكيان الدولة العربية الاسلامية ، سواء في المشرق او المغرب اللذين عاشا

نفس المواجهة مع اوربا المسيحية متقلبين بين النصر والهزيمة . فماذا نظرنا الى هذا الكيان من الداخل نجد مظاهر اخرى للتواكب . ففي الوقت الذي قامت فيه الثورة ضد الامويين بالمشرق في بداية القرن الثاني للهجرة وانتهت بادالة دولتهم واحلال العباسيين محلهم ، اندلعت الثورة في المغرب بشكل عارم مرتكزة على المذهب الخارجي وانتهت بقيام عدة امارات خارجية وفي الاخير بتأسيس دولة الادارسة التي اعتمدت على برابرة المغرب كما اعتمد العباسيون على الخراسانيين . نعم ، ان ميزان القوى لم يكن متكافئا بين الدولتين . ومع ذلك ، فقد كان هنالك تشابه في الحركتين التاريخيتين ، فالعباسيون يحتجون بقرابتهم من النبي وكذلك يفعل الادارسة . والعباسيون يؤسسون عاصمتهم المجيدة بغداد وكذلك الادارسة حينما يشيدون عاصمتهم مدينة فاس (7) .

وفي هذا الطور ، ايضا ، نجد العالم الاسلامي يتقلب بين ظاهرتي التوحيد والتجزئة . فالدولة العباسية عاشت في عصرها الذهبي فترة من التوحيد ، ثم دبت فيها حركة الانفصال في اواسط القرن الثالث وتجزأت مملكتها الى دويلات . وفي هذه الفترة بالذات انطلقت حركة التوحيد من المغرب على يد الفاطميين الذين استطاعوا ان يبسطوا حكمهم على جزء كبير من العالم الاسلامي . لكنهم لم يحتفظوا ، هم ايضا ، بوحدة مملكتهم الواسعة وتلتها المحاولات التي قام بها السلاجقة والمرابطون في المغرب والتي تقلبت بين مد وجزر . فالاتجاه الى توحيد دار الاسلام عرف في المغرب كما عرف في المشرق ومر من نفس التطورات .

ومهما يكن ، فان العالم الاسلامي في طور النهوض ، سواء اكان في وضع الوحدة او التجزئة ، استطاع ان يحافظ على كيانه ويرد عنه كل الاعتداءات ، ويتمتع بمنزلة ممتازة في العالم المعاصر . كما استطاع

---

7) فيما يخص الثورة العباسية ومعناها التاريخي ، من المفيد مراجعة دراسة حديثة هي «طبيعة الدعوة العباسية» للمؤرخ العراقي الدكتور فاروق عمر ، دار الارشاد بيروت .

وفيما يخص المقارنة بين العباسيين والادارسة ، نحيل القارىء ، اولا ، على التصريحات التي فاه بها كل من السفاح وادريس الاول عند تسلم الامر والبيعة ، وثانيا على المراجع الخاصة بدراسة المذاهب الاسلامية ، وبالاخص :
H. Laoust : Les Schismes dans l'Islam Payot 1965 pp. 48-119

ان يكون واثقا من نفسه ، قادرا على منافسة خصومه والتفوق عليهم (8) .

فاذا نظرنا الى عصر النهوض من وجهة الحضارة ، نستطيع ان نكشف عن عدة مظاهر للتواكب بين المشرق والمغرب . وسنجتزيء هنا ، ايضا ببعض الامثلة :

1 ـ ارتكز الاقتصاد العربي في عصر الخلفاء الكبار اي في القرون الثلاثة الاولى لتاريخ الاسلام على التجارة . وبرغم قلة مصادرنا عن هذا الموضوع فقد وصل التحقيق التاريخي الى ابراز الدور الكبير الذي لعبه الشرق الاسلامي في تنشيط التجارة العالمية ، ووضعت الخرائط للطرق التجارية الكبرى التي كانت تنطلق منه الى جهات مختلفة . فتربط بحريا بين البصرة او الابلة على شاطيء الخليج العربي والهند الصينية والصين . كما تربط بين الخليج العربي وشواطيء افريقيا الشرقية . كما تربط الشرق العربي مع آسيا الوسطى والصين او بلاد الفولجا بواسطة طرق برية كانت تخترق اقليم خرسان وبلاد ماوراء النهر . وكان البحر المتوسط يلعب دورا كبير في ربط التجارة العربية ببلاد اروبا الغربية .

وفي نفس الاتجاه ، سارت بلاد المغرب التي نشطت هي الاخرى في توسيع شبكة الطرق التجارية ، سواء نحو الشمال تجاه بلاد اوربا عبر البحر المتوسط او تجاه الشرق الاسلامي ، او نحو الجنوب ، تجاه افريقيا السوداء الغربية ، وقد بدأت الابحاث الاخيرة تبرز الدور الكبير الذي لعبه المغرب في ربط افريقيا السوداء بالتجارة العالمية وعرفت الطرق الصحراوية التي كانت تسلك منها القوافل ، متخذة من سجلماسة مركزها الرئيسي الذي تتفرع منه شبكة طرق ذاهبة في كل الاتجاهات (9) .

---

8) هذا هو الانطباع الذي يخرج به الباحث من قراءة بعض المراجع العامة مثل :

ح ـ ابراهيم حسن : «تاريخ الاسلام» في 4 مجلدات .

م ـ بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية .

— C. Cahen : l'Islam des origines au début de l'empire ottoman

ع ـ عنان : دولة الاسلام في الاندلس .

— ch A Julien : Histoire de l'Afrique du Nord

— A. Laroui : Histoire du Maghreb

وكان من نتائج هذا النشاط التجاري الاهتمام الخاص الذي حظى به النقد ، سواء في المشرق والمغرب ، والحرص على صياغته من المعدنين النفيسين : الذهب والفضة . وكما كان الخلفاء العباسيون يبحثون بالحاح عن مناجم الفضة والذهب في المشرق وغيره ، كان الامراء في المغرب يجتهدون في الحصول على هاتين المادتين بكل الوسائل . ومازالت لدينا في المغرب ، شهادات حية عن دور سك النقود التي اقامها الادارسة ، مثلا ، في عدد من الاقاليم . كما لازالت هنالك مناجم للفضة يعود عهد استغلالها الى ذلك العصر (10) .

فاذا القينا نظرة خاطفة على الانشطة الاقتصادية الاخرى نجد دلائل كثيرة وقوية على التواكب في شأنها بين الشرق والغرب . وقد امتد هذا التواكب الى التطورات التي اجتازتمنها تلك الانشطة والى اصناف الانتاج وبضاعة الاستهلاك .

فالفلاحة تقدم لنا نفس المظاهر هنا وهناك : زراعة الحبوب في المساحات الكبرى ، الاعتماد على الرعي والانتجاع في مناطق الجفاف ، خلق حزام من الاراضي المسقية حول كبريات المدن لتزويدها بالخضروات والفواكه . كما ان هنالك تشابها في التقنيات الزراعية المستعملة ، وبالاخص في اساليب الري ووسائله . ولذا ان نقول مثل ذلك عن التطورات التي حدثت بالنسبة لاستعمال بعض المزروعات الجديدة المهمة ففي نفس الوقت الذي ظهر فيه الارز ، مثلا ، بالشرق العربي ، لم تمض عليه مدة طويلة حتى انتقل الى المغرب ،

وكذلك كان الشأن بالنسبة لقصب السكر والقطن وغيرهما من

---

9) ابراهيم أحمد العدوى : الاساطيل العربية في البحر المتوسط ، القاهرة 1957 .

ـ صابر محمد دياب : سياسة الدول الاسلامية في حوض البحر المتوسط

ـ ابن خلدون : المقدمة ص 447ـ454 .

— H. Lombard : l'Islam dans sa première grandeur

— A. Miquel : L'Islam et sa civilisation

10) ابحاث الاستاذ «دانييل اوستاش» عن النقود الادريسية (بالفرنسية) وكذلك كتاب «موريس لومبارد» .

M. Lombard : L'Islam dans sa première grandeur Flammarion pp. 103 - 121

E. W. Bowill : The Golden trade of the Moors

نقل الى العربية بقلم زاهر رياض وعنوان «الممالك الاسلامية في غرب افريقيا واثرها في تجارة الذهب عبر الصحراء الكبرى» .

النباتات العطرية او بعض الاصناف من الخضروات والفواكه التي انتقلت من الشرق الى الغرب (11) .

وكذلك كان الشأن بالنسبة للصناعة والسكافة أي ما يسمى ، بتعبير آخر ، الصناعة التقليدية ، حيث تبين لنا المصادر المكتوبة والاثار المتبقية ان نفس الانشطة الصناعية كانت قائمة بالمشرق والمغرب ، وكانت تخضع لنفس الاعراف والتقاليد ، وتعرف تنظيمات مهنية ونقابية متشابهة . وهذا ما تبرزه المقارنة التاريخية بين اسواق بغداد ودمشق والقاهرة وفاس ، مثلا ، وان كان هذا موضوعا مازال في حاجة الى المزيد من البحث والاستكشاف . نعم ، هذا التواكب لا يعني انه لم يكن هنالك تنوع في الاسلوب ، وبروز شخصية كل بلد في ما ينتجه من مصنوعات ، وبالخصوص في الصناعات التي لها طابع فني مثل صياغة المعادن النفيسة والمجوهرات والهندسة المعمارية والزخرفة على الخشب والجبس ، وصناعات الجلد والزرابي والانسجة الخ (12) .. ولهذا امكن لمؤرخي الفن الاسلامي ان يتحدثو ا، مثلا ، عن اسلوب مغربي اندلسي ، وآخر مصري وسوري ، آخر فارسي ، وآخر هندي . لكن هذا الاختلاف لا يمس بالتواكب الذي اكدناه منذ البداية لانه لا يتجاوز الشكل الى الجوهر بحيث يظل المسجد هو المسجد ، والمدرسة هي المدرسة والفندق هو الفندق ، مثلا ، وان اختلفت هاته الابنية في بعض اشكالها الهندسية ومظاهرها الزخرفية .

3 ــ لنا ان نلاحظ نفس التواكب في الحياة الثقافية . حيث نجد في كلا الجناحين الشرقي والغربي سلما واحدا للقيم الثقافية ، تأتي في درجته العليا العلوم الدينية وتليها علوم اللسان ، ثم تأتي بقية العلوم الاخرى التي تعتبر ذات منزلة دنيوية . واذا نظرنا الى المدرسة في المشرق والمغرب نجدها على نمط واحد من حيث البرامج وطرق التلقين والمتون المستعملة احيانا . كما ان المسجد كان يلعب هنا وهناك نفس الدور في تنشيط الحياة العقلية .

ومن الممكن ان يلاحظ معترض بعض الاختلاف او التفاوت بين الشرق والغرب من حيث كمية الانتاج او قيمته في هذا الميدان . ولكنه تفاوت لم تكن له أي صبغة نهائية ، وانما برز في القرون الاولى من تاريخ الاسلام ، نظرا لكون بلاد المغرب كانت في حاجة الى فترة زمانية أطول

11) A. Miquel : L'Islam et sa civilisation
D. et J. Sourdel : La civilisation de l'Islam classique.
21) M. Lombard : ouvrage cité p 153 - 159
C. Cahen : L'Islam des origines...

لتتبنى اللغة العربية وتهضم جملة من التقاليد الحضارية والثقافية الواردة من الشرق . ولكن ، لما تم ذلك في القرن الخامس الهجري ، على أوسع نطاق ، بدأ التجاوب بين الشرق والغرب يقدم كل ثمـاره (13) .

ونستطيع أن نقيس على هذه الامثلة ما كان يجري في ميادين أخرى من الحياة العامة لم نتعرض لها .

التواكب في طور الانحطاط

مفهوم الانحطاط يحتاج الى تحليل واسع وتوضيحات عديدة . وهو لا يعني انعدام الانتاج والابتكار بالكلية . ففي هذا العهد ظهرت عقـول جبارة عند العرب ، ولكنها ظلت حالات فردية واستثنائية . فالانحطـاط يعني ، قبل كل شيء ، الاطار العام الذي اصبح يعيش فيه المجتمع العربي ووزن هذا المجتمع داخل العالم المعاصر .

فقد اخذ هذا الوزن يتناقص ابتداء من القرن السابع الهجـري أي الثالث عشر الميلادي امام صعود دول اوربا والشرق الاقصى . وجـاءت غارة المغول لتؤكد الانهيار وتضع حدا لوجود الدولة العربية ، بمعناهـا الكامل . ولعل المغرب استطاع في هاته الحقبة أن يحتفظ باستقلاله مدة أطول . فلم تلحق به غارة من نوع الغارات المغولية ، وبقيت فيـه دول قائمة تواصل عملها بنوع من التوفيق ، احيانا ، مثل الحفصيين والزيانيين ، والمرينيين . ومع ذلك ، فان هذا الفارق لم يكن الاسطحيا . فقد نشأت كل هاته الدول من تجزئة المملكة الموحدية التي استطاعت ، في عهدهـا الزاهر ، ان توحد المغرب العربي ، واصبحت تعيش في نزاع مستمر فيما بينها . وعجزت عن مواجهة الدول المسيحية في اسبانيا التـي كانـت تكتسح تدريجيا ارض الاندلس العربية : ففي كلتا الحالتين ، في الشرق كما في المغرب ، اصبحت الاقطار العربية في موقف ضعف تجاه العالـم الخارجي ، مما جعلها تفقد منزلتها وهيبتها وتثير طمع الطامعين .

ونحن لو أردنا ان نمعن النظر بالتفصيل في هذا الانتقال من القوة الى الضعف ، يمكننا ان نشاهد المنعطفات الكبرى التي جرى فيها هـذا التطور بالتدريج . فقد استطاع الاسلام في أول فترة من تاريخه أن يكتل كل قواه ، في نطاق وحدة سياسية شاملة ، ثم انتقل الى الانقسام البسيط الى كيانات محدودة ، ثم تحول ذلك الانقسام الى تجزئة لامتناهية مـع انشاء كيانات اقطاعية وتكريس الشتات السياسي وتفكيك التضامن الاصلي وخلق صراعات داخلية كانت سببا في تقلص ظل العرب بالاندلس ، مثلا ،

13) عبد الله كنون : النبوغ المغربي 1ـ43ـ107 .
د ـ احسان عباس : تاريخ الادب الاندلسي : عصر سيادة قرطبة .

أو بالعديد من أقطار الشرق الاسلامي فاذا قمنا بتاريخ مقارن للعالمين الاسلامي والاروبي المسيحي . نجد الاول بدأ بوضعية تفوق شامل ، انتقل منها بالتدريج نحو وضعية تكافؤ تحولت ، في النهاية ، الى وضعية تخلف وانحطاط ، لان المجتمعات الاسلامية بصفة عامة ، لم تكن واعية بهاته التطورات قادرة على تلافي اخطائها وانحرافاتها (14) .

وهنا يظهر التواكب ، بالخصوص ، في الروح التي صارت تهيمن على اجهزة الحكم في تلك الاقطار . فقد اصبحت الدولة تعيش في خوف وحذر ، مما جعلها تعيش في نوع من الانكماش والانطواء متخوفة من كل اتصال وتفتح . وعقلية الخوف هذه دفعتها الى سد الابواب والركون الى الجمود ورفض كل تجديد . فكان لذلك ، بالطبع أثره في الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية . ويكفي أن نشير ، مثلا ، الى أن حالة التعليم ، شكلا ومضمونا ، لم يدخل عليها اي تغيير منذ القرن الثالث عشر الى التاسع عشر وأن التطورات الكبرى التي عرفتها الحياة العلمية بأروبا منذ عصر النهضة في القرن السادس عشر لم تؤثر بقليل ولا بكثير في الاوساط العلمية عندنا ، سواء في الشرق او في الغرب . وهذا المثال يشير الى القطيعة التامة التي عاش فيها العالم العربي مع اروبا طيلة قرون عديدة دون أن يستفيد من تجربتها في أي ميدان من الميادين ، والمقارنة بين المشرق والمغرب تبرز أوجها كثيرة للشبه في كل مظاهر الحياة الفكرية .

ونجد امثلة أخرى في الحياة الاقتصادية والاجتماعية . واذا أردنا ان نعرف اليوم اصول تخلفنا بالنسبة للدول المتقدمة ، فيجب ان نعود لتلك العصور ، اذ بدأت أقطارنا تتردى في هوة الفقر دون ان تجد وسيلة ناجعة لتدارك الحالة . فقد فقد العالم العربي دوره التجاري الكبير بالنسبة لبقية العالم . فكان اكتشاف الطريق البحرية لرأس الرجاء الصالح مع حصار البرتغال للتجارة العربية في البحر الهندي سببا رئيسيا للقضاء على الازدهار الاقتصادي في الشرق العربي . كما ان الطريق نحو افريقيا السوداء عبر الصحراء لم تعد تلعب دورها التجاري الكبير

14) ليس من السهل تحديد مفهوم الانحطاط وتوضيح محتواه لانه مفهوم معقد ويدخل في جدلية تاريخية تحتضن عدة تناقضات ، ومن المفيد الرجوع الى ماكتبه في هذا الصدد مؤلفون عرب مثل ابن خلدون في نظريته عن أعمار الدول او جرجي زيدان واحمد أمين الخ ،، أو ما اثاره المستشرقون في مؤتمرهم المنعقد ببوردو والمشار اليه آنفا ، ونستطيع على اي حال ، ان نتصور هذا المفهوم اذا قلنا انه يعني تدهور المجتمع في أهم مقوماته ومظاهر حياته .

حينما لم يقر له قرار معشعب بغداد ، ان ينتقل بجيشه ودواوينه الى «سامرا» دون ان يكون لذلك تأثير كبير في حياة المجتمع .

والذي يؤكد لنا هذه الظاهرة هو ان علاقة الدولة بالمجتمع كانت في النهاية علاقة قوة وهيبة ينتفى معها كل حوار . ولاشك ان العاطفة الدينية لعبت دورا كبيرا في استقرار الدول واستمرارها ، وبخاصة الدولة العباسية . ولكن تحليل الواقع بموضوعية يؤدي بنا حتما الى تسجيل هاته السطحية في العلاقات بين الجانبين ، التي ترجع قبل كل شيء ، الى ميزان القوى ، دون ان يقدم لنا التاريخ شواهد قاطعة عن تعاطف مستمر بينهما (19) .

ويترتب عن هذا اننا حين ننظر لتاريخنا من زاوية الدول وحدها ، فاننا نضع انفسنا في موقع لا نرى منه الا الاشياء الظاهرة ، في حين ان البواطن المهمة تفلت بين أعيننا . وبعبارة أوضح ، اننا نرى المدار الذي تدور فيه الدولة ، ولكننا لا نرى المدار الذي يدور فيه المجتمع . ولذلك فلا يمكننا أن نربط جوهر التاريخ بوضعية الدول . الشيء الذي يظهر لنا بكامل الوضوح اذا امعنا النظر في القرون 4 و 5 و 6 للهجرة حيث نجد ان الحضارة العربية الاسلامية بلغت أوج ازدهارها في حين أن الدول ضعفت وفقدت استقرارها .

معنى كل هذا أنه لم‌تكن هنالك روابط بنيوية ولا تأسيسية قوية بين الدولة والامة .فالروابط البنيوية هي التي تنشأ عن مؤسسات تمثيلية : جماعات استشارية أو تشريعية قائمة في النطاق المحلي والمركزي ، تنظيمات شعبية مختلفة مهنية ، نقابية الخ .. والروابط التأسيسية هي التي تنشأ عن التسليم المبدئي ، عن طريق العرف او عن طريق القانون المكتوب ، بنوع من التنظيم السياسي القائم على حقوق عمومية يحترمها كل من الحاكم والمحكوم ، وهذا يفسر لنا كون ابن خلدون حينما اراد ان يحلل أصل الدولة استنادا الى تجربة المجتمع الاسلامي الذي كان يعرفه اكثر من غيره ، خرج باستنتاجه المشهور وهو أن الدولة تنبني على العصبية ، قبل كل شيء . ومفهوم العصبية حينما نحلله يبرز لنا :

1 ـ الجانب الاعتباطي في أصل الدولة حيث انها تتمثل في تسلط

---

19) اننا نتحدث هنا بالطبع عن الحالات العادية ولاندخل فيها بعض الفترات القصيرة والاستثنائية التي سادت فيها البطولة او غلب عليها الحماس الديني .

تتحكم في مصائر المجتمعات العربية آنذاك كان من مصلحتها ان تحارب كل تجديد ، وكل تفكير صحيح ، وكل تفتح ذهني ، فتعمل على تركيز الجمود والعقلية الخرافية من وراء ستار الدين ، وترك العامة ضحية للشعوذة والتدجيل . نعم ، لقد صدرت في هذا العصر تآليف مهمة تدل على علم وتفكير ، ولكنها قليلة بالقياس الى عدد من التآلف التي تدل على الفقر الفكري او التخلي عن التفكير ، بالمرة . وبدل أن تكون موجية بالعمل والجد والمثابرة والابتكار ، فانها تدعو الى التخلي عن الدنيا والقناعة بالقليل ، والاستسلام للقدر والتواكل . وكل هذا كان من شأنه أن يصرف العامة عن التفكير في مصالحها ومحاسبة الحكام على تصرفاتهم .

من هذه الامثلة القليلة والمجملة ، نأخذ فكرة عن طور الانحطاط وتشابه مظاهره في المشرق والمغرب العربيين . وقد جاء الوقت الان لنحاول تأويل هذا التواكب وتوضيح أسبابه ، تاركين الكلام عن عهد الانبعاث للاخير

التأويل التاريخي لظاهرة التواكب

ان استعراض مختلف المظاهر الدالة على وجود تواكب تاريخي بين المشرق والمغرب ، تجعلنا ننتهي الى هذا الاستنتاج وهي أن أشحر الدول المختلفة التي حكمت الاقطار العربية في مختلف الاطوار كان سطحيا ، حيث انه لم يمس بحركات التطور الكبرى التي عاشها المجتمع العربي الاسلامي من الشرق الى الغرب .

وهذا يدفع بنا الى اعادة تقييم تأثير الدولة في ذلك المجتمع ، من جهة ، والى البحث عن العوامل الاخرى التي كانت تؤثر فيه والتي لم تكن صادرة عن جهة الدولة .

وبالفعل ، اننا حين نحلل علاقات الدولة بالمجتمع نجدها محدودة . فتركيب الدولة لم يكن مبنيا على أساس تمثيلي للمجتمع في أي شيء . بل أن الدولة في كل اشكالها من خلافة وسلطنة وامارة كانت تمثل جهازا مفروضا على المجتمع العربي الاسلامي الذي لم يكن له اي خيار في قبوله او رفضه . ومن جهة أخرى ، لم تظهر الدولة أي حرص كبير في مؤسساتها على أن تحيط نفسها بممثلين عن القطاعات الاجتماعية المختلفة بقصد الاطلاع على رغبات العامة واحوالها . وهذا ما كان يجعل الدولة تعيش جنبا الى جنب ازاء المجتمع دون ان يكون هنالك ارتباط وثيق ، ما عدا رابطة العلاقات الادارية التي كانت تنحصر غالبا في الجبايا ، بحيث ان التداخل بين الدولة والمجتمع كان سطحيا . فالخليفة المعتصم مثلا ، يستطيع ،

حينما بدأت السفن الاوروبية ترسو على شواطئ افريقيا وتتعامل معها مباشرة . وكان هذا أهم الاسباب في اندثار مدينة سجلماسة الشهيرة التي كانت مركزا تجاريا رئيسيا في بلاد المغرب طوال عدة قرون (15) .

وفي نفس الوقت بدأ الاقتصاد الرعوي يطغى على الاقتصاد الزراعي في الارياف ، نتيجة لطغيان عشائر الرحل على الاقاليم المجاورة للصحراء ، وللاهمال الذي اصبحت تعيش فيه المناطق الفلاحية بوجه عام من تخل عن ضبط الامن والعدل في البوادي والارياف ، وتفريط في وسائل الري التي أصابها الخراب ، وعدم حماية الاراضي الزراعية من تسلط أصحاب الرعي والمواشي . وفي مثل هذا الجو بدأت تتكون اقطاعيات محلية تتزيى بشتى الاشكال ، ولكنها على اي حال تضعف الكيان العام وتمس باستقرار السكان والمجتمع نظرا لما ينشأ بينها من تكتلات متعادية . وفي هذا المحيط ، لم تعد المدينة عامل توحيد واستقطاب للارياف المجاورة لها ، بل كانت علاقاتها مع سكان الريف مبنية على النزاع المستمر مما يجعل التكامل الاقتصادي بين الجانبين غير قار . وكل هذه ظواهر عامة نلحظها سواء في تاريخ المشرق او تاريخ المغرب في عهد الانحطاط (17) .

وأمام تردي الاوضاع وضعف السلطة المركزية ، ظهرت بعض الحركات الاصلاحية في شكل زوايا صوفية تحاول تربية العامة على المبادئ الدينية وتكتل الناس ، في بعض الاحيان من اجل الدفاع عن الوطن ورد غارات الاستعمار . ولكن هذه الزوايا ظلت مرتبطة بالماضي من الوجهة الروحية ولم تستطع أو لم ترد أن تكون عامل تغيير وتطور ، بحيث انها في الوقت الذي كانت ترد العدوان الاستعماري ، كانت تحارب كل فكرة جديدة ، مما جعل منها في النهاية قوة محافظة . وفي هذا المضمار أيضا ، نجد تواكبا بينا بين المشرق والمغرب (18) .

على أن الاتجاه الثقافي ، بوجه عام ، تأثر ، اثناء هاته الفترة ، بالمصالح القائمة في المجتمع . ذلك أن الاقطاعيات التي كانت

15) J. Pirenne Les grands courants de l'Histoire universelle pp 277 - 367

F. Brandel La Méditerranée et le Monde Méditerranéen à l'époque de Philippe II

16) نفس المراجع .

17) C. Cahen : op cit pp 239 - 263

ك ـ بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية : 345ـ399 .

18) H. Laoust : Les Schismes dans l'Islam pp. 282-299

ع ـ الفاسي : التصوف الاسلامي في المغرب .

جماعة قوية بعصبيتها على مجتمع بكامله محاولة أن تسيطر على كل مقوماته .

2 ـ عزلة الجهاز الحاكم الناشيء عن العصبية داخل المجتمع فتجعل منه بنية سطحية وطفيلية في عدد من الحالات ، مما ينجم عنه عدم استقرار الحكم وقصر «أمد الدولة» (20) .

من ثم صح لنا أن نعتبر أن سيطرة الدولة تظل محدودة في بعض المستويات من الحياة الاجتماعية ، بينما تظل مستويات أخرى ذات كثافة وعمق قائمة بذاتها وخارجة عن تأثيرها ، فلا يمكننا ، اذن ان نفسر التواكب التاريخي بين الشرق والغرب بوضعية الدول واجهزة الحكم التي كانت هامشية ، من بعض الوجوه ، بالنسبة للمجتمعات ، بل يجب ان نبحث عنها في تلك المستويات التي تعكس بنياتها حياة الجماعة بروابطها وتناقضاتها وتظهر فيها الثوابت والمتغيرات الحقيقية المتصلة بالعوامل الاساسية للتطور التاريخي ، وهذا يتطلب ، بالطبع ، اعادة النظر في الطريقة التي اعتدنا بهاأن ننظر الى التاريخ الاسلامي ، وبناء نظرية جديدة تستطيع أن تفسر وتستوعب ذلك القسم الجوهري من تاريخ المجتمعات الاسلامية الذي لا يرتبط بكيان الدولة ، ولعلنا لا نستغنى عن الرجوع الى المنهاج السوسيولوجي في التحليل لننفذ الى تلك المستويات الاساسية التي نرى فيها المجتمعات الاسلامية من خلال التاريخ ككل متماسك .

ونحن اليوم ، محتاجون الى مباشرة هذا التحليل بهذه النظرة الشمولية واعتقد ان مفهوم الامة الذي أتى به الاسلام لعب دورا كبيرا في التاريخ ، ومازال لحد الساعة لم ينل نصيبه من البحث والدرس ، بالمنهاج العلمي الصحيح ، وان كان بعض المستشرقين تفطنوا لاهميته ، فالاسلام نفى القومية الضيقة المبنية على الرقعة الجغرافية المحددة او على الروابط السلالية ودعا الى فكرة الامة الاسلامية التي تجمع بين اجناس وشعوب مختلفة برابطة العقيدة واعتبر ان الارض الاسلامية او دار الاسلام كما ورد في الاصطلاح التقليدي تكون وطنا واحدا يخضع لشريعة واحدة ويؤمن بنفس القيم ومهما تجزأ هذا الوطن بين دول مختلفة ، فانه يبقى متصلا في العمق والجوهر ، اذ لا تمس هذه التجزئة بمقومات المجتمع الاساسية .

---

20) ابن خلدون : المقدمة .
م.ع. الجابري : العصبية والدولة .

ولقد حاول الامويون أن يسلكوا سياسة قومية عربية ازاء الشعوب المفتوحة ، ولكن فكرة الامة الاسلامية التي بدأت تتمكن آنذاك في مختلف الاقاليم قضت على اتجاههم وانجبت ثورة جديدة هي التي اصعدت العباسيين الى الحكم ، على اساس محو كل الفوارق التي اقامها الامويون .

وتنشأ عن هذه الفكرة مجتمع شمولي أو كما يسميها العالم الاجتماعي الفرنسي «مارسيل موس» ظاهرة اجتماعية كلية هي التي تعبر عنها كلمة أمة ، بمفهومها التقليدي عند العلماء المسلمين ، وهذا المجتمع الشمولي هو الذي يساعدنا على فهم كثير من ظواهر التاريخ الاسلامي ، ومن بينها ظاهرة التواكب التي هي موضوعنا .

وترتبط بفكرة الامة الاسلامية مبادىء اخلاقية اجتماعية ، فهي أمة «وسط» لا تنزع الى الغلو والتطرف في اي شيء ، وهي مبنية على التقارب و «التعارف» بين القبائل والشعوب ، بتنحية العصبيات واقامة سبل اللقاء والتبادل ، كما تلتقي في الاعتصام «بحبل الله» أي بالكتاب المنزل الذي هو القرآن ، ومن ثم كان شعارها هو الوحدة «ان هذه امتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون» .

حقا ، ان هاته المبادىء كونت مثلا اعلى لم يكن من الممكن تحقيقه على وجه الكمال ، ولكن تاريخ الاسلام جسم ، من بعض الوجوه ، مجهودا قويا نحو ترجمته الى الواقع فكانت هنالك دار الاسلام التي لا تعرف حدودا داخلية ، برغم تكاثر الدول والكيانات السياسية داخل رقعتها وكانت فكرة «الاخاء» الاسلامي أسمى من «المواطنة» الاقليمية في سلم القيم الاخلاقية والاجتماعية المتعارف عليها داخل العالم الاسلامي ، وكانت هنالك تقاليد مشتركة في شؤون الحياة المختلفة ، ورغم الهزات والصراعات التي عاشتها الامة الاسلامية بسبب الخلافات المذهبية والسياسية ، فانها لم تنل من وحدة الكيان والتضامن الجماعي حتى ان عددا من الملاحظين الاوربيين شبهوا في عصرنا هذا العالم الاسلامي بصندوق «الرنين» بمعنى أن اي حادث يقع فيه الا ويكون له صدى في جميع انحائه القريبة والبعيدة ، ولابد لنا هنا من التنويه بدور أهل السنة والجماعة في المحافظة على الوحدة والانسجام ، فقد ناضلوا طوال قرون متعددة ، تارة في صفوف الحكم ، وطورا في صفوف المعارضة من اجل الوصول الى هاته الغاية ، واستطاعوا ، في النهاية ، أن يجتذبوا اليهم الاغلبية الساحقة .

فهذا المجتمع الشمولي ليس فكرة نظرية او فرضية وانما هو الواقع يلمس في الاحداث على تنوعها ، ولا يمكننا في هذه العجالة أن نتحدث عن طريقةتكوينه ، وانما يجب ان نشير الى ان بعض المبادئ التي أتى بها الاسلام كالمساواة والتضامن عملت كثيرا في خلق روابط متينة بين سائر الشعوب التي اسلمت ، كما ان المواجهات المختلفة التي تعرض لها العالم الاسلامي في تاريخه قوت هذه الاواصر وجعلت منها موقفا تلقائيا لدى سائر الشعوب الاسلامية .

وقد ظهرت شمولية هذا المجتمع في مستويات عديدة :

– في مستوى التشريع الذي ينظم حياة الفرد والاسرة والمعاملات على اختلاف مناحيها مما كان له أثره البين على النظام الاقتصادي والمالي ، ومهما اختلفت المذاهب الفقهية فقد ظل التشريع في جوهره موحدا .

– في مستوى الحياة الاقتصادية حيث ان الجغرافية والمناخ اوجدا كثيرا من اسباب التشابه والتقارب بين المشرق والمغرب ، مما جعل ظروف الحياة بالنسبة للانسان في كلا الجناحين على شاكلة واحدة .

– في مستوى الحياة الحضرية ، اذ نجد المدينة العربية في الشرق أو في الغرب تحمل نفس الطابع وتقدم نفس الصفات ويكاد يكون تصميمها واحدا ، كما ان اسواقها وحرفها تتشابه الى حد كبير .

– في مستوى الحياة الاقتصادية حيث ان الجغرافية والمناخ اوجدا للمجتمع الشمولي نفس المثل والافكار والقيم ومزجها بالحياة الروحية والعبادات التي تحتل مكانا مهما في الحياة اليومية وجعل من الحج ملتقى سنويا لابناء الامة الاسلامية يتم فيه الالتقاء والتعارف بين مشارقة ومغاربة .

– في مستوى الحياة الثقافية ، حيث ان الثقافة العربية الاسلامية لم تكن ثقافة بلد معين ، بل كانت منذ اول يوم ثقافة «دولية» ، ان صح هذا التعبير وكان العلماء يمثلون ، في هذا المضمار ، رابطة دولية ، فعلماء المغرب يتصلون بعلماء المشرق ، كما ان هؤلاء يفدون على المغرب رابطين بين التيارات والمذاهب الفكرية في كلا الجهتين ، ولنذكر على سبيل المثال دور رجال أمثال مالك ، والبخاري ، والغزالي والشيخ خليلفي تاريخ المغرب والغريب أننا نجد خوارج البصرة يتصلون بخوارج المغرب في «تاهرت» وغيرها منذ القرن الثاني ولنذكر ، على سبيل المثال ايضا ، التيارات الفكرية التي سرت مع الحركات الصوفية في مجموع العالم الاسلامي على يد رجال امثال الشاذلي وابن العربي

والكيلاني وغيرهم ، ونتج عن هذه الاتصالات المستمرة وهذه التيارات السارية بواسطة الدروس والتآليف ، تكوين طريقة موحدة في التفكير والملاحظة والتقييم لانها تستند الى نفس الاصول والمبادئ، ورغم اننا نجد كل بلد يفخر بعلمائه ويفضلهم احيانا ، فما هذا الا موقف عاطفي يستجيب لنزعة انسانية معروفة ، ولكنه لا يمس بتاتا بجوهر الاشياء وبالاطار العام الذي كان يعيش فيه هذا المجتمع الشمولي وحتى في عصر الانحطاط الذي غلب عليه التقليد وران عليه الجمود ظل هؤلاء العلماء يستقون من معين واحد ويرجعون الى نفس المصادر .

تلك بعض المستويات الاجتماعية التي جعلت من الامة الاسلامية في تلك العصور مجتمعا شموليا واحدا تحركه نفس الدوافع وتجمعه نفس المشاعر ، وهذه الوحدة لم تؤثر فيها النزاعات الداخلية ولا الحروب فيما بين الدول الاسلامية ، وذلك راجع الى كون الحياة السياسية التي كثيرا ماكانت تسيطر عليها النزعات الفردية والمطامح الشخصية لم تكن منسجمة مع هذا الكيان الاجتماعي الشمولي او هي ان انسجمت معه في بعض الفترات ، فانها لم تستطع ان تضع لنفسها ركائز قارة تضمن لهذا الانسجام استمراره ورسوخه ، وهذا نلمس بصورة عابرة المشكلة الكبيرة التي طالما اسالت الاقلام الا وهي المقابلة بين الاسلام كدين والاسلام كدولة ، وعلى اي ، فاني اكرر هنا ما قلته آنفا وهو ان الكيانات السياسية المتعددة التي اقتسمت دار الاسلام في تلك العصور المنصرمة ظل اثرها محدودا سطحيا بالنسبة للعوامل الاقتصادية والروحية والثقافية التي كانت تجعل من الامة مجتمعا واحدا ، نشاهد وحدته سواء في النظر الى الكل او في النظر الى الجزء .

وهاته النتيجة التي انتهينا اليها ليست بدعا في التاريخ اذا اعتبرنا التحليلات التي انتهى اليها علم الاجتماع المعاصر ، برغم اختلاف نظرياته واتجاهاته ، فنحن لو انطلقنا مع المادية الجدلية ، سنجد التمييز واضحا بين بنيات تحتية وبنيات فوقية وسنجد ان الكيان السياسي يدخل في ضمن هاته الاخيرة بمعنى ان الدولة ليست هي العامل الفعال في تطور المجتمع ، بل ماهي الا صورة للمجتمع المدني الذي ليس بدوره الا انعكاسا لدرجة من تطور الانتاج والتجارة والاستهلاك (21) ويطالعنا العالم الاجتماعي الالماني «تونس» بنظرية تكاد تنطبق حرفيا على الواقع التاريخي الاسلامي حينما يميز بين الامة (LA COMMUNAUTE) والمجتمع (LA SOCIETE) فالاولى تجسم مايسميه الارادة العضوية اي الارادة الطبيعية ، التلقائية التي

21) رسالة ك.ماركس الى ب.ارمانكوف .

تلتقي فيها كل العناصر النفسية والتي نجد اثرها في الارياف والـقـرى والاوساط الشعبية ، بوجه عام ، أما الثانية فهي تمثل ارادة التفكير ، وهو مايجعلها اصطناعية وسطحية (22) ، وهذا ماتقودنا اليه ، ايضـــا نظرية العالم الاجتماعي الفرنسي «موس» عن المجتمع الشمولي ، وكذلـك التحليلات التي قدمها «جورفيتش» عن ماسماه «سوسيولوجية الاعماق» ، فهو يقول ، مثلا :

«ان المجتمعات الشمولية هي اوسع الظواهر الاجتماعية الكليـــة واضخمها واغناها مضمونا وتأثيرا على اي واقع اجتماعي ، فالمجتمعـات الشمولية تتجاوز بثقلها وسلطتها ليس فقط التجمعات الوظيفية ، والطبقات الاجتماعية بل كذلك هرمياتها المتنازعة» (23) .

الواقع اننا ندخل هنا في موضوع شيق بابحاثه ومناقشاته ونظرياته المختلفة ونحن لاندعي اننا طرقناه كما يجب ، وانما كان يهمنا ان نبـرز حقيقة تاريخية ، وهي ان البنيات السياسية ليس لها ، في بعض الحالات ، من الكثافة والعمق ، ما يجعلها تفسر واقع المجتمع في كل ابعاده وتطوراته وهذا ما نلمسه ، بدلائل كثيرة ، عندما نحاول ان ندرس تاريخ الاســلام بتعمق ، وليس المراد ان نأخذ بهاته النظرية او تلك التي برزت في بيئـــة اوربية لها معطياتها الخاصة ، ولكن ان ننطلق من تلك النظريات المختلفة، في نطاق دراسة للتاريخ المقارن ، حتى نخرج بنظرية صالحة لتفسير تاريخ الاســلام .

ولايسعني هنا الا ان اذكر ، بنوع من التقدير ، بعض النظريات التي تعتبر فعالية التاريخ ككل في تكوين الامم وتطورها وتوجيهــها الحضاري ، دون الالحاح على جانب ونسيان الجوانب الاخرى ، حقا ، ان الاقتصاد لعـــب دورا اساسيا في تاريخ العرب وحضارتهم ، وما زلنا في حاجة الى دراسات ودراسات تتصل بهذا الموضوع ، ولكن هنالك عوامل اخرى لايسوغ لنا ان نهملها لانها تفسر ظواهر اساسية في تاريخهم مثل الدين واللغة والثقافة والاصالة ، بمعناها العلمي ، والعلاقات مع الخارج والجغرافية الخ ،،

وقد سبق لي ان بحثت جانب الاصالة كأساس لتكوين الشخصيـــة القومية والثقافة القومية ، مبررا بالخصوص ، ان الاصالة ليست ارتباطا بالماضي ، كما يحاول ان يؤولها بعض الباحثين ، بل انها تعبر عن الارادة في المحافظة على الحرية الذاتية وانقاذها من الذوبان في المؤثرات الخارجية ومن الوقوع في مهاوي الاستلاب ، فهي في مفهومها الصحيح ، لاتتنافـى

22) F. Tônnies : communauté et société
23) G. Gurvitch : Vocation actuelle de la Sociologie 1/443

مع فكرة التقدم في ابعد مداها (24) . ولطالما تحدث الباحثون الاجانب عن «الاصالة العربية» وبالاخص «جاك بيرك» ، وانها في اعتبارهم مزيج من وفاء للتاريخ والتقاليد ورفض للخضوع والاستسلام وتفضيل للخيال على الواقع ، ذلك الخيال الذي يجعلهم يحتفظون بابائهم وانفسهم ويتجاهلون واقع التخلف الذي مازالوا يعيشون فيه موقفا سلبيا ، ولكنه مع ذلك يعبر عن همة وطموح وهو الذي ربط ويربط العرب بعضهم الى بعض مهما تباينت أقطارهم واختلفت مذاهبهم (25) .

وقد ذهب انور عبد الملك في كتابه الجدلية الاجتماعية وفي مقال له نشر بمجلة «قضايا عربية» الى ان النهضة الحضارية ترتبط باطارات تاريخية ثلاث هي الحضارة والمنطقة الثقافية والامة ، فالعالم العربي جزء من الدائرة الحضارية ـ الثقافية الاسلامية التي تتكون من العالم العربي وامتداده في افريقيا .

كما ان العالم العربي من جهة اخرى ، يكون المركز الحركي الاول بهذه الدائرة الحضارية ، الثقافية الاسلامية وهو ايضا يكون النقيض التاريخي والعصري لعملية التناقص الجدلي بين التحرك الغربي وتحرك الشرق الناهض لن نتعرض الان لاستنتاجات انور عبد الملك بالنسبة للمستقبل ولفكرة النهضة (26) وانما سنقف عند معناها التاريخي ، انها تقدم لنا ارضية عملية صحيحة مدعمة بحجج متعددة ، فالعالم العربي يكون جزءا من حضارة لها ملامحها الخاصة ، وهو في نفس الوقت يكون منطقة ثقافية ويتطلع الى ان يكون تشكيلة قومية موحدة فاذا اضفنا الى هذا انه تعرض شرقا وغربا لنفس المواجهات والصراعات التاريخية فهمنا كيف انه نحا نحو الوحدة في مواقفه الاساسية .

وهذه الوحدة هي التي تفسر في اعتقادي ، ذلك التواكب الواضح بين تاريخ المشرق والمغرب الغربيين في طوري النهوض والانحطاط ، والعوامل التي عملت على انحطاطه هي أنه بعد التجارب العديدة التي اجتاز منها في طور النهوض اخذ يفقد شيئا فشيئا حماس الاندفاعات الاولى التي كانت

---

24) م. زنيبر : مفهوم الاصالة في ثقافتنا القومية مجلة «أقلام» أعداد 2ـ3ـ4ـ5ـ6ـ7 من يونيو 1972 الى دجنبر 1973 .

25) J. Berque : Les Arabes d'hier à demain - l'Orient second etc.

26) انور عبد الملك :
«النهضة الحضارية» مجلة «قضايا عربية» عدد 1 نيسان 1974 .
ينظر كتابه المنشور باللغة الفرنسية .
La dialactique sociale   Editions du Seuil

مرتكزة على نوع من الايمان والثقة بالنفس وتسربت اليه ادواء خطيرة من تفشي الاقطاعية وفساد الحكم وتفوق الاعداء ويأس من الاصلاح ومع ذلك، فقد احتفظ هذا المجتمع بوحدته حتى في المواقف السلبية التي عرف بها في حالته المتدهورة من جموده وانطوائه على نفسه ورفضه الاتصال بالعالم الخارجي .

ولكن الانحطاط يدل على ازمة داخلية في المجتمع تعني انه لم يعد قادرا على الاستمرار في البقاء مادام على صورته الحالية ، وتعني ، بالتالي أنه لابد له من ثورة عميقة تخرج به الى صورة جديدة تتغير فيها كثير من الاسس البالية المنهارة التي كان يرتكز عليها فيما سبق وتأتي بفكرة جديدة تتحمس لها كل النفوس ، الا ان الشعوب العربية كانت قد وصلت درجة من اليأس والاتكالية جعلت من المتعذر عليها ان تفكر في ثورة اصلاحية شاملة من تلقاء نفسها ولا ان تجد بين مفكريها ورجالها من يقودها في طريق اليقظة والتحرك الفعال بل كان لابد لها من ان تصطدم مع الاستعمار الاجنبي لتدرك ثمن الحرية وتستيقظ من غفلتها ، وتحاول ان تتدارك القرون الضائعة .

هذا الاصطدام مع الغرب الاستعماري ومافتح عنه من ردود فعل وطنية وما تولد عنه من تحول في الرؤيا والتفكير هو الذي اعتدنا ان نسميه عصر الانبعاث .

طور الانبعاث :

الا ان هذا الانبعاث لايشبه في شيء النهضة الاوربية ، لانه انبعاث وقع وسط الدموع والدم بسبب تسلط الاستعمار على الاقطار العربية ، فهو انبعاث لم ينطلق من موقف قوة وانما من موقف صراع ودفاع عن النفس ، ولذلك فقد كان انبعاثا في النفوس والعقول قبل ان يكون انبعاثا حقيقيا في الاشياء ، فالثورة الكاملة الشاملة ، الكفيلة ببعث الحماس وابراز الطاقات الخلاقة لم تحدث ، وانما الذي حل محلها هو اليقظة التدريجية والوعي بالاهداف والعراقيل ونحن اليوم امام بلاد عربية لم تعرف الاستعمار ، مثل اليمن ، وأخرى كثيرة عرفته عن كثب والملاحظ هو ان الوعي بلغ أعلى مستواه في البلاد التي كان عليها ان تواجه الاستعمار ، ولايمكن لاي نهضة ان تتحقق دون وعي شامل وجرأة على رؤية الواقع وتحليله من كل الجوانب .

وفي هذه المرحلة ، ايضا يتراءى لنا التواكب واضحا بين المشرق والمغرب ، سيما واننا نجد في هذا التاريخ القريب منا مايكفي من المصادر

والوثائق والشهادات الحية فنحن اذا اردنا ان نرسم لوحة عن حالة العالم العربي في بداية القرن التاسع عشر ، سنجد نفس السمات في المشرق والمغرب وهي التي تلخص في كلمة «انحطاط» المحللة آنفا ، لكن اليقظة التي نشأت مع الصراع ضد الاستعمار اثناء القرن التاسع عشر احدثت تطورات مهمة في الفكر العربي ، كان ابرزها ظهور فكرة القومية العربية .

وقد رأينا آنفا كيف ان مفهوم الامة الاسلامية خلال الاطوار السابقة كان هو المحرك الاساسي للمجتمع العربي الاسلامي بحيث كان يغطي كل التجزئات السياسية وكل القوميات ويربط بين سائر الاقطار الاسلامية بنفس التيارات الفكرية والروحية ، لكن فكرة الامة الاسلامية في اواخر عصر الانحطاط تعرضت لازمات وانحرافات كثيرة ، فقد استغلتها الدولة العثمانية لتكون بها امبراطوريتها الكبيرة التي جعلت فيها النفوذ الاكبر للعنصر التركي بينما فرضت على العرب وضعية الشعوب الخاضعة ، كما ان «ايران» سارت في اتجاه قومي واضح منذ قيام الدولة الصفوية ، فلما استيقظت الشعوب العربية ونشدت حريتها ، وجدت نفسها ، أمام هذه المعطيات التاريخية الجديدة ، منساقة هي الاخرى في طريق القومية ، ولاشك ان تيار القوميات الذي طغى بأوربا اثناء القرن التاسع عشر كان له اثره على تكوين الاتجاه القومي عند العرب .

وعلى ايّ ، فان المطالبة بالحرية كان لابد وان تجد صياغتها في تيار القومية ، فقد شعر العرب انهم استضعفوا واخضعوا كعرب ، ومن ثم جاء النداء بشعار العروبة كسلاح فكري وروحي لمكافحة كل انواع التسلط والاستعمار التي انطبع بها تاريخهم المعاصر فالتطور الاساسي الذي اتسم به طور الانبعاث هو هذا التحول من مفهوم الامة الاسلامية الى مفهوم الامة العربية وفي هذا الاطار الجديد ، اصبحت الامة العربية تكون من وراء الدول والحكومات مجتمعا شموليا واحدا ، كما كان الشأن من قبل بالنسبة للامة الاسلامية ، ولا ادل على ذلك من قضية فلسطين حيث تجد الشعور العام بالتضامن مع شعب فلسطين واحدا لدى سائر الشعوب العربية ، مهما كانت المواقف الرسمية هنا او هناك .

ولكن فكرة القومية العربية ينحصر معناها في تحديد العلاقات مع الغير ومكافحة الاستعمار ، بل ان لها مضمونا اساسيا يعني الشعوب العربية في حياتها الداخلية ، انها تستهدف ، اولا ، تحقيق النهضة العربية التي كانت هي فكرة الانطلاقة الاولى عند بداية الانبعاث في القرن التاسع عشر ، وقد تعرضت هاته النهضة ، كما هو معلوم ، لتشويش الاستعمار وعراقيله ،ولكن مازال موضوعها مطروحا أمام الشعوب العربية ، وان

تغيرت مقاييسها تبعا للتطور العالمي ، كما تستهدف تحرير المواطن العربي من كل العبوديات والتبعيات ، وفتح آفاق جديدة أمامه سواء على صعيد الحياة الفردية او الحياة الجماعية ، انها تعني بناء امة قوية من الداخل بالالتفاف العام حول اهداف ومبادئ ، عن رضى واقتناع جماعي وهنا ايضا تتجاوب الافكار بين جناحي العالم العربي ، كما تعكس ذلك كل المؤتمرات واللقاءات الجماعية المبنية على حوار صريح .

وهكذا فنحن اذا حللنا المشاكل التاريخية التي ابرزها طور الانبعاث سواء في المشرق او في المغرب ، نجد التواكب واضحا تماما ويكفي ان ننظر الى مطالب اي شعب في المشرق لنجدها تعبر عن مطالب اي شعب في المغرب ، ولنذكر منها على سبيل المثال لا الحصر :

- الرغبة في التحرر الكامل من سيطرة الاستعمار بكل اشكاله .
- الرغبة في اقامة ديموقراطية سياسية واجتماعية .
- الرغبة في الاصلاح الزراعي .
- الرغبة في التصنيع ... الخ .

أخبار علمية

● تقيم وزارة الاعلام في دولة قطر موسما ثقافيا في شهر تشرين الثاني (نوفمبر) سنة 1977 ويستمر حتى شهر ايلول (سبتمبر) 1978 ويشتمل على عدة امسيات شعرية وندوات ثقافية واسابيع فنية الى جانب العديد من المعارض التشكيلية لفنانين قطريين عرب واجانب ومن الشخصيات البارزة الذين سيشاركون في هذا الموسم الدكتور حسن نعمة سفير دولة قطر في الهند والدكتور علي الكواري – رئيس قسم النقليات والتسويق بالمؤسسة القطرية العامة للبترول .

● قام وفد من الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب بزيارة الى الجماهيرية الليبية برئاسة الدكتور حسين امين – الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب ويتشرف بمقابلة الاخ العقيد معمر القذافي – الامين العام لمؤتمر الشعب العام وذلك في الفترة من 24 – 9 ولغاية 28 – 9 – 1977 حيث قام السيد الامين العام بتوضيح اهداف الاتحاد ومهماته الثقافية وفكرة مهرجان التراث العربي المزمع اقامته في الاندلس للاخ العقيد القذافي ولعدد من المسؤولين في الجماعيرية الليبية .

– تلقى اتحاد المؤرخين دعما من جامعة قاريونس في الجماهيرية الليبية قدره (5000) دينار عراقي ، والامانة العامة للاتحاد تقدم جزيل شكرها وتقديرها لرئاسة الجامعة المذكورة وتهيب بالجامعات العربية ان تحذو حذوها في دعم واسناد اتحاد المؤرخين العرب .

● صدر العدد الاول والثاني من المجلد (الثاني والعشرون) من مجلة معهد المخطوطات العربية التابع لجامعة الدل العربية كما صدر الجزء الاول من المجلد (الثالث والعشرون من المجلة المذكورة وهو طافح باخبار المخطوطات وكتب التراث .

● أقامت وزارة الاعلام في الجمهورية العراقية بالتعاون مع اتحاد المؤرخين العرب مهرجانا تذكاريا للمؤرخ البريطاني ارنولد توينبي تقديرا لمواقفه الانسانية وانصافه للحضارة العربية وتكريما لمكانته العلمية . وقد وجهت الدعوة الى عدد من المؤرخين والباحثين في العالم ،

وقد بدأ المهرجان في 25 ـ 10 ـ 1977 في بغداد ولمدة خمسة ايام .

ـ صدر كتاب مدينة القدس في العصر الوسيط تأليف الاستاذ الدكتور رشاد الامام من الجامعة التونسية ، وقد تناول المؤلف في كتابه لمحة موجزة عن تاريخ مدينة القدس قبيل العهد المملوكي ، ثم تناول اوضاع القدس في العهد المملوكي ، كما خصص فصلا للادارة والوظائف في مدينة القدس ، وافرد فصلا اخر لدراسة سكان المدينة والحياة الدينية منها كما تناول موارد المدينة وعمرانها والحياة العلمية بفصول وافية ، والكتاب مهم للباحث العربي ويعتبر من المصادر الرئيسية لتاريخ هذه المدينة ، قامت بطبعه ونشره الدار التونسية للنشر .

ـ من منشورات وزارة الاعلام في الجمهورية العراقية صدر كتاب (المنسوجات العراقية الاسلامية من الفتح العربي الى سقوط الخلافة العباسية ببغداد تأليف السيدة فريال داود المختار والكتاب بالاصل رسالة قدمت الى جامعة بغداد لنيل درجة الماجستير ، وقامت مطابع دار الحرية بطبعه .

● من الكتب الوطنية التي اصدرتها وزارة الاعلام في الجمهورية العراقية كتاب (فارس القسطل) عبد القادر الحسيني بقلم السيد عاصم الجندي ، والكتاب وثيقة مهمة في تاريخنا المعاصر .

ـ انعقد في انقرة مؤتمر علمي في شهر تموز (يوليو) 1977 وقد كرست البحوث التي قدمت في المؤتمر عن تاريخ تركيا الاجتماعي والاقتصادي ، وقد حضر المؤتمر عدد من المختصين ونوقشت فيه بحوث في تاريخ تركيا من البدايات الاولى للوجود التركي وحتى الحرب العالمية الثانية .

ـ اختير الاستاذ الدكتور حسين امين عضوا في اللجنة الاستشارية في معهد المخطوطات العربية التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، وستجتمع اللجنة المذكورة في القاهرة لتعرض عليها شؤون المعهد .

ـ صدر في بغداد كتاب (نصرة مذاهب الزيدية) للصاحب ابن عباد 326 ـ 385 هـ تحقيق الدكتور ناجي حسن ـ الاستاذ المساعد في قسم التاريخ بكلية الاداب ـ جامعة بغداد ، وهو من كتب التراث وقد قامت مطبعة الجامعة بطبعه .

ـ عقد في مدينة المهدية مؤتمر تحت عنوان (ملتقى القاضي النعمان) للدراسات الفاطمية من 4 ـ 6 آب (اغسطس 1977) واهم الواضيع التي طرحت في المؤتمر هي :

1 ـ مصادر التاريخ والفكر الفاطمي قبل الانتقال الى مصر .
2 ـ التنظيمات السرية والدعوة المبكرة .
3 ـ الاوضاع التي مهدت لقيام دولة الفاطميين في افريقيا وباقي المغرب .
4 ـ مقومات الفكر الاسماعيلي المبكر (الفلسفة ـ الفقه) .
5 ـ حركة التمرد ضد الفاطميين في افريقيا وخلفياتها .
6 ـ الادب الفاطمي ، اصوله وتطوره ايام الخلفاء الاربعة الاول .
7 ـ الفنون الفاطمية المبكرة : العمارة والفنون الصغرى .
8 ـ العلاقات الخارجية للدولة الفاطمية في افريقية .

● انعقد في شهر كانون الاول (ديسمبر) 1977 في جامعة عين شمس مؤتمر حضاري تحت عنوان ابن خلدون المؤرخ الاجتماعي العربي ، شارك فيه عدد من المؤرخين والباحثين العرب والاجانب .

ـ صدر عن دارة الملك عبد العزيز المملكة العربية السعودية كتاب (سيرة الامام الشيخ محمد بن عبد الوهاب تأليف امين سعد ، والكتاب يبحث في سيرة الامام محمد بن عبد الوهاب وحقيقة الدعوة الوهابية ويتطرق الى تأسيس الدولة السعودية كما يبحث في سيرة الدعوة وجهاد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ويبين اراء العلماء الغربين وتقييمهم لشخصيته .

● صدر عن نفس الدار كتاب (لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب ، تحقيق وتعليق الشيخ عبد الرحمن بن عبد اللطيف بن عبد الله آل الشيخ وهو من الكتب التي تعنى في سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب والتوسع الوهابي في الجزيرة كما يتطرق الكتاب الى سلطنة الامام محمد بن سعود وابنه عبد العزيز كما يذكر القبائل النازلين نجدا واسماء قبائل عمان ومسائل فقهية متفرقـة .

ـ من منشورات وزارة الاوقاف العراقية صدر الجزء الاول من (المصباح المضيء في خلافة المستضيء) لابن الجوزي المتوفي سنة 597 هـ . بتحقيق الآنسة ناجية عبد الله ابراهيم وطبع في مطبعة الاوقاف ويقع في 603 صفحات من القطع المتوسط .

ـ من منشورات دار الشعب القاهرية صدر كتاب (امير المسلمين : يوسف بن تاشفين ، تأليف الاستاذ ابراهيم محمد حسن الجمل والكتاب دراسة مفصلة لحياة الامير يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين ، ودوره في توحيد المسلمين وانتصار الرائع في موقعة الزلاقة على الفرنج .

ـ صدر عن جامعة الامام محمد بن سعود الاسلامية في الريـاض

كتاب (القصص الاسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين) جمعها وحققها احمد بن حافظ الحكمي باشراف الدكتور عبد الرحمن الباشا ، والكتاب يقع في جزئيين كبيرين ، يتناول بالدراسة والبحث القصص الاسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين .

ـ بناء على طلب وزارة التراث القومي في سلطنة عمان من الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب العمل على تحقيق ونشر (ديوان جواهر السلوك في مدايح الملوك للشاعر العماني علاين سعيد بن عراية ، وقد عهدت الامانة العامة للاتحاد القيام بتلك المهمة الى الاستاذ الدكتور داود سلوم ـ رئيس اللغة العربية في جامعة بغداد وقد قام بالواجب وحقق المخطوط وهو الان في طريقه الى النشر .

الفهرس العام